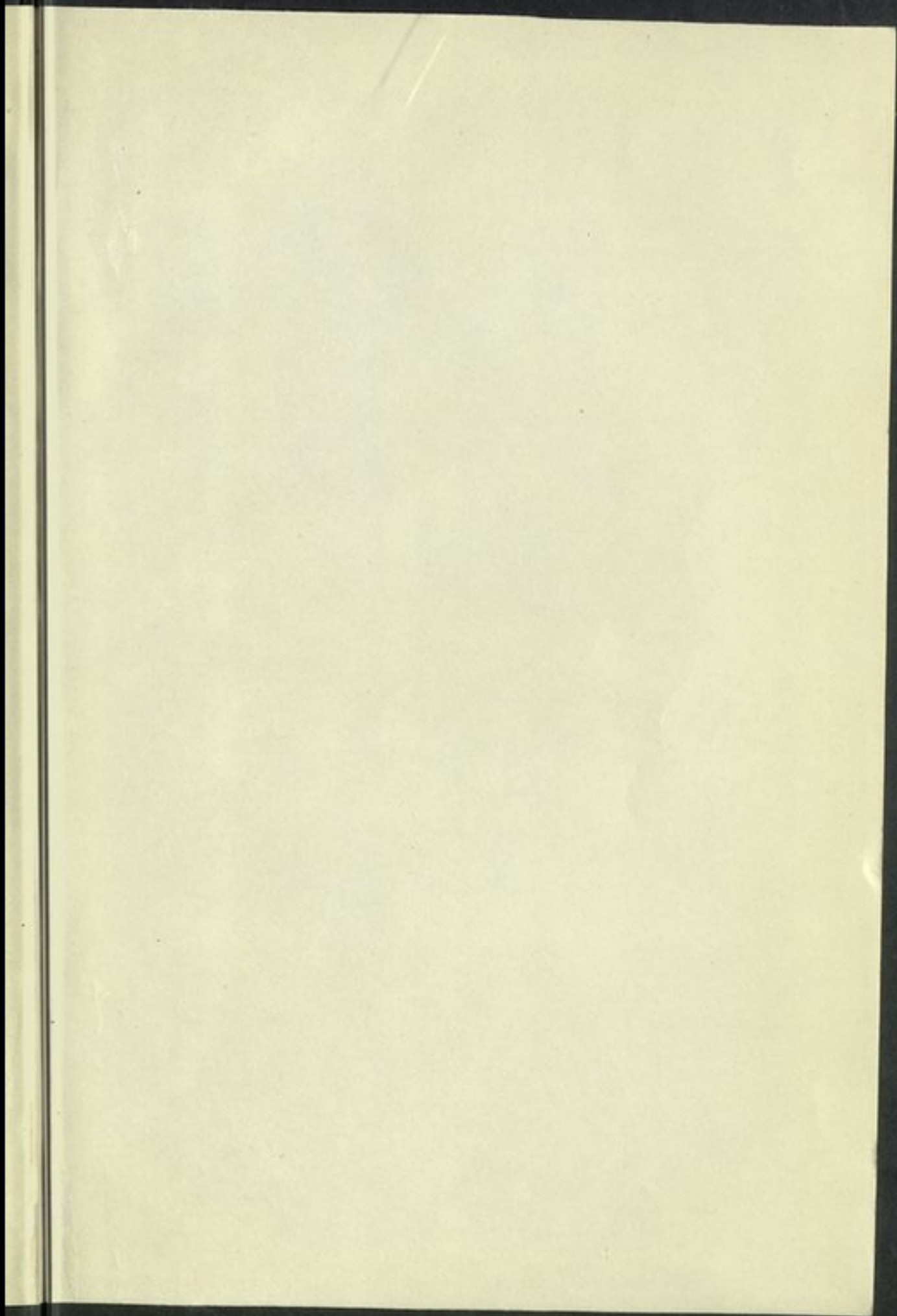
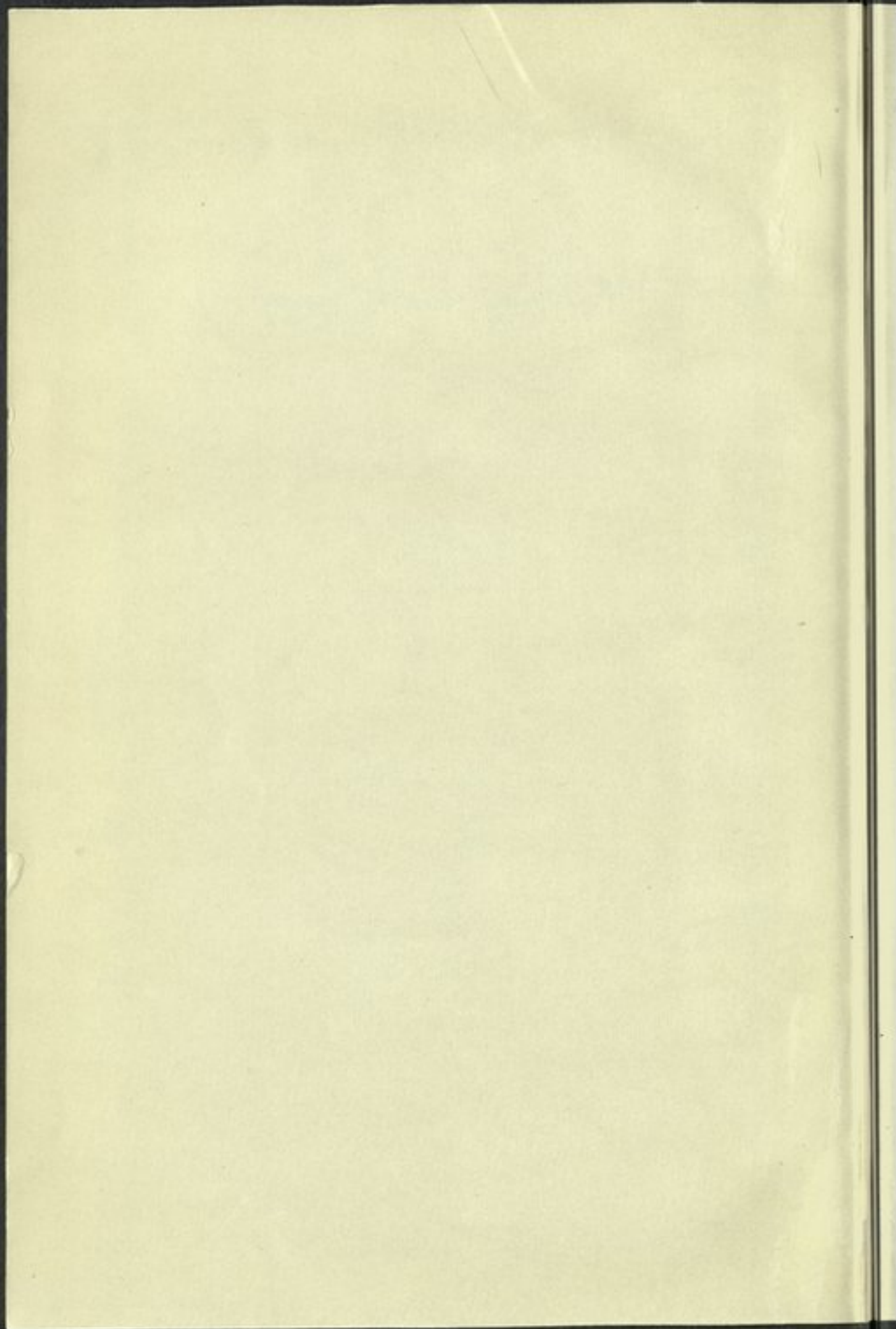


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458





892.78
Z39aba2A
C.1

العباسية تحت الرشيد

او

نكبة البرامكة

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام
وتشتمل على نكبة البرامكة واسبابها وما يتخلل ذلك من وصف مجالس
ال خلفاء ونجالسهم وملايسهم ومواقبهم وبيان ما بلغت
اليه الدولة من الحضارة واللاهية في عصر الرشيد

تأليف

عمر جي زيدان

منشئ الهلال

مطبعة الهلال بالقاهرة

سنة ١٩٠٦

Handwritten text, possibly a title or header, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a name or date, in Arabic script.

مقدمة

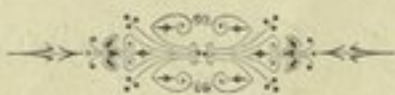
روايات تاريخ الاسلام

تدرجنا باثناء هذه الروايات في بسط تاريخ الاسلام ووصف احوال العرب وسائر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من زمن الجاهلية فصدر الاسلام فايام بني امية في الشام والاندلس فايام بني العباس الى عصر الرشيد وهو موضوع هذه الرواية . فضمننا اشهر حادثة من حوادث ذلك العصر واغربها نعني نكبة البرامكة التي اختلف المؤرخون والرواة في اسبابها وتفصيلها وبذلنا الجهد في استطلاع تلك الاسباب من سياسية وادبية وتاريخية وبسطناها في سياق قصة غرامية تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب مختصرة واليها ينسبون تلك النكبة فجعلناها مدار هذه الرواية وتوسعنا فيها ووشحنها بما بلغ اليه عصر الرشيد من الثروة والرخاء والايهة والحضارة وما كان من رسوم الخلفاء في مجالسهم ومواكبهم والآداب المرعية في مجالسهم ومخاطبتهم وما انعموا فيه من الترف والبذخ في الملابس والاثاث والرياش وما نقشى بينهم من اسباب الجاسوسية مع تكاثر الجواري والسراري

فرسمنا ذلك العصر في صورة مكبرة جمعنا فيها ابهى مناظره واهم مظاهره . فاذا لم تكن هي الحقيقة بعينها فانها كثيرة الشبه بها . واذا كان بعض حوادثها لم يقع فعلاً فوقوعه ممكن . لان الروائي المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية مجردة وانما هو ينمقها بما يوضحها ويزيدها رونقاً من آداب العصر واخلاق اهله وعاداتهم حتى يختل للقارىء انه عاصر ابطال الرواية وعاشهم وشهد مجالسهم

وشاهد مواكبهم واحتفالاتهم - شأن المصور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطرًا أو سطرين فيشتغل هو في تصويرها عامًا أو عامين .
 فمقتل جعفر البرمكي مثلاً عبر عنه المؤرخ ببضع كلمات أما المصور فلا يستطيع تصويره إلا إذا كان مطلعاً على عادات ذلك العصر وطباع أهله وأشكال ملابسهم والوانها وضروب الفرش وأشكال الأسلحة ليمثل كلاً من القاتل والمقتول بقيافته وشكله . وينبغي له أن يكون عالماً بانفعالات النفس وما يبدو من آثارها على الوجه أو في حركات الجسم ليمثل غضب القاتل أو شرسته وخوف المقتول أو كآبته .
 وغير ما تقتضيه الصناعة من تصوير مكان الواقعة ان كان غرفة أو شارعاً أو بادية أو حديقة والزمان الذي وقعت فيه ان كان صباحاً أو اصيلاً أو عشاءً . ولكل من هذه الاحوال اشكال والوان لا يتم جمال الصورة إلا بانقائها

وذلك شأن الروائي بالنظر الى التاريخ فهو يمثل تلك الاحوال ويصور اشكالها والوانها بالالفاظ من عند نفسه فيوشرح الحادثة التاريخية بخلاصة درسه الطويل في آداب القوم وعاداتهم واخلاقهم وادبهم والتفطن لآثار العواطف في مظاهرهم مع بيان ما يحف بتلك الحادثة من الشؤون المعاصرة ويطبق وصفه على نظام الاجتماع واحوال العائلة في ذلك العصر . واذا رجع المطالع الى تحقق الحوادث التاريخية على اجمالها وجدها حقيقة ثابتة - ذلك ما توخينا في سائر رواياتنا والله المستعان في نتميم هذه السلسلة بمنه وكرمه

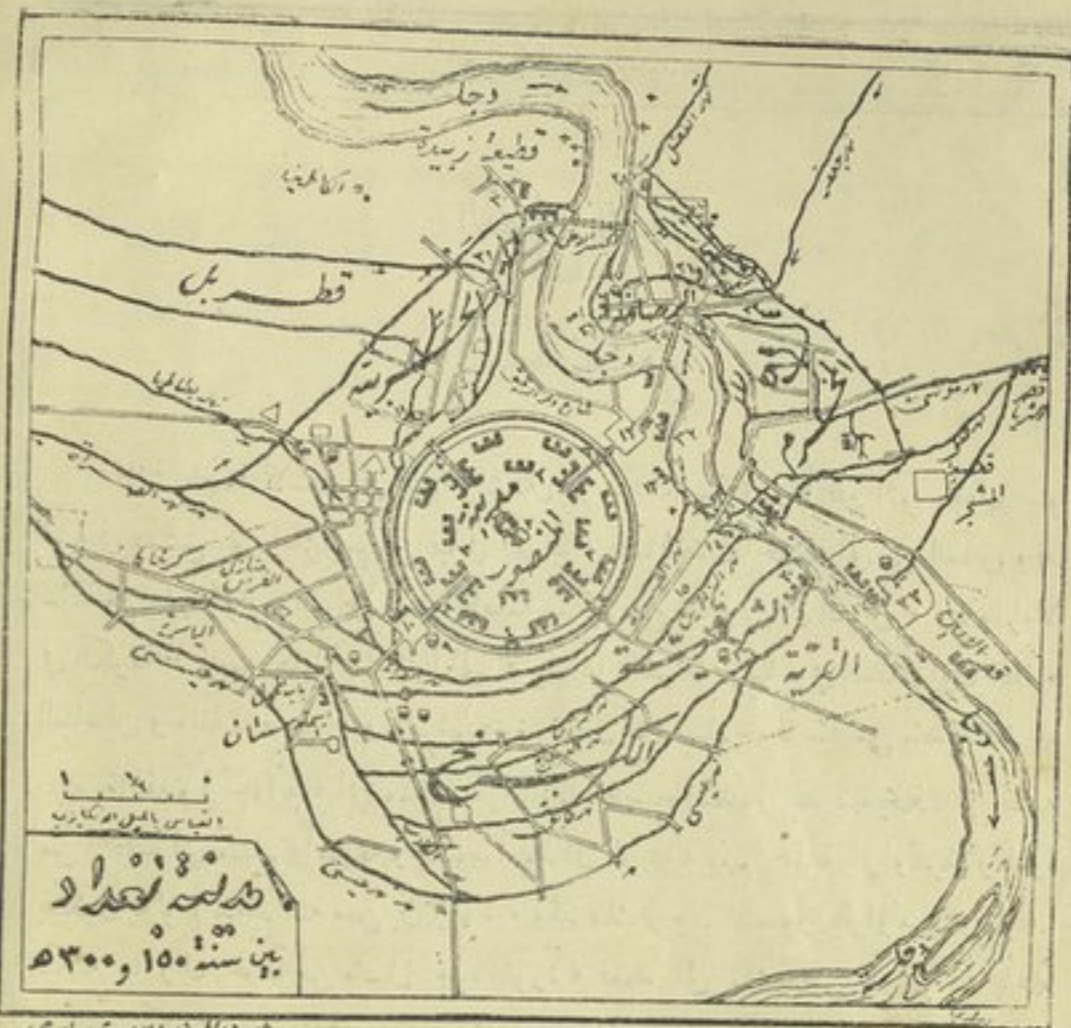


الفصل الاول

مدينة بغداد

كانت عاصمة الاسلام في ايام الراشدين يثرب (المدينة) تبركاً بقبر النبي فجعلها بنو أمية في دمشق مقر احزابهم من قبائل العرب . فلما انضت الخلافة الى بني العباس وقد ساعدتهم عليها مواليهم الفرس جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس . وكانوا اولاً في الكوفة اذ بايعهم اهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات وفيها توفي السفاح اول الخلفاء العباسيين وخلفه المنصور . واول شيء بشره قتل ابي مسالم خوفاً منه على منصبه فقتله غيلة كما تقدم في رواية « ابي مسالم الخراساني » فاصبح المنصور بعد قتله يخاف على نفسه من اصحاب ابي مسالم وأشباعه وخصوصاً بعد ان نار عليه منهم جماعة الراوندية وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . وقد فتنك رجال المنصور بالراوندية وقتلوهم لكنه ما زال خائفاً من مثل هذه الثورة . فعمد الى بناء حصن بأوي اليه بأهله ورجال حكومته فبنى بغداد بشكل مستدير سمي مدينة المنصور جعل قصره في منتصفه وسماه قصر الذهب وجعل قصور الامراء ورجال الدولة وابنية مصالح الدولة حوله وبينها الاسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينة سوراً في ثلاثة اسوار الواحد داخل الآخر الاول او الداخلي محيط بالابنية ووراءه فراغ فيه ابنية كالتفلاع ونحوها ووراء الابنية سور ثانٍ متين ووراءه فراغ للمرور حوله ووراء هذا الفراغ سور ثالث ووراء هذا السور خندق فيه الماء . وجعل للمدينة اربعة ابواب سماها باسماء المدن التي توجه نحوها وهي ابواب البصرة والكوفة والشام وخراسان (راجع الخارطة) وافتتح فيها اربعة شوارع كبرى تمتد من الابواب الى مركز المدينة

وكان المنصور يقيم اولاً في قصر الذهب في منتصف مدينته ثم اطمان باله وازدحت المدينة فابنى قصرأ خارج باب خراسان على شاطيء دجلة سماه قصر الخلد (رقم ٣٢ في الخارطة) وظل القصران مقر الخلفاء بعد المنصور الى ايام الرشيد وكان الرشيد يفضل الاقامة في قصر الخلد واكثر اقامته فيه



تخطيط المدن الاستراتيجي

- | | | |
|----------------------|----------------------------|-----------------------------|
| ١ قصر الذهب او القبة | ١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل | ٢٢ قصر المعتم |
| ٢ الخضراء | ١٣ دار القرار (قصر زبيدة) | ٢٣ دار الروم (البطركحانة) |
| ٣ جامع المنصور | ١٤ دار حميد بن عبد الحميد | ٢٤ قصور البرامكة |
| ٤ المطبق | ١٥ جامع معروف الكرخي | ٢٥ باب الطاق |
| ٥ باب البصرة | ١٦ مشهد علي | ٢٦ قصر المهدي |
| ٦ باب خراسان | ١٧ قصر جعفر السبركي ثم | ٢٧ جامع الرصافة |
| ٧ باب الشام | ١٨ قصر التاج | ٢٨ باب الشماسية وقصر موسى |
| ٨ باب الكوفة | ١٩ قصر الفردوس | ٢٩ قصر الحرم الطاهري |
| ٩ جامع المسيب | ٢٠ دار عيسى | ٣٠ قصر زبيدة |
| ١٠ ديوان الصدقة | ٢١ قصر ابن الخصب | ٣١ دار الرقيق |
| ١١ سجن باب الشام | | ٣٢ قصر الخلد |
| | | ٣٣ حدائق القصور او البساتين |

على ان مدينة المنصور لم تكن وحدها كافية لاقامة الجند ومن يلحق بهم من الباعة والاهل وغيرهم ناهيك بمن تقاطر الى تلك العاصمة من المسلمين وغير المسلمين فابتنوا المنازل خارج المدينة فرأى المنصور ان يقلل الازدحام فرغب الناس في السكنى على البر الشرقي في مكان سمي الرصافة وانشأ فيه جامعاً وقصراً فابتنى الناس حولهما المنازل. واتفق ان ابنه المهدي جاء بجيشه من خراسان فنزلوا في الرصافة لانها آخر طريقهم برّاً من خراسان فامرهم المنصور ان يبقوا هناك واقطعهم القطائع فابتنوا المنازل واصبحت الرصافة بلداً كبيراً وكانت في بادىء الرأي معسكراً يعرف بمعسكر المهدي ثم امتدت جنوباً وشمالاً فتولدت احياء المحرم والشمسية واقام الخلفاء الدور على ضفاف دجلة شرقاً وغرباً يهمنها منها في هذا المقام قصر الخلد (٣٢) وقصر زبيدة (١٣) وكلاهما على الضفة الغربية وقصر جعفر البرمكي (١٧) ووراءه قصر الامين على الضفة الشرقية

ونشأ حول مدينة المنصور احياء أخرى على الجانب الغربي اهمها الكرخ وفيه كان يقيم التجار من الاجانب وخصوصاً الفرس. وحي الحريصة في الشمال واكثر سكانه من العرب. فكانت بغداد في ايام الرشيد قسمين قسماً شرقياً وقسماً غربياً يوصل بينهما ثلاثة جسور اهمها الاوسط ويعرف بالجسر او جسر بغداد وهو يوصل بين مدينة المنصور والرصافة رأساً. وكان في بغداد على عهد الرشيد وما بعده عدة انهر مجرورة اليها من دجلة والفرات تخترق احياء المدينة وقد بنى الناس قصورهم على ضفافها او فيما بينها. اشهرها نهر عيسى ونهر طابق ونهر الدجاج ونهر اليزاين ونهر الصراة ونهر الفضل ونهر جعفر وغيرها

وكانت بغداد في ايام الرشيد آهلة بالقصور والحدائق واهلها في رغد ورخاء والاموال تنصب في خزائنها بالملايين والخليفة يهب ويحيز والناس يتقاطرون الى بغداد التماساً للتكسب بما يرضى الخليفة او رجاله من اسباب الارتزاق وفيهم العربي والفارسي والرومي والتركي والتكردي والارمني والكرجي والسندي والهندي والصيني والزنبي والجبشي على اختلاف الممل والنحل بين صانع وناحر ونحاس وشاعر ومغني وأديب ومخوي وراو وفيهم المسام والذمي والحرم والمولى والعبد والغلام والجارية. وكلامهم يحومون حول دار الخلافة او دور الاسراء يبيعونهم السلع او يتملقون اليهم بالمديح او يدسون اليهم اسباب الزلنى استنزافاً للاموال. وهؤلاء يبذلون الاموال بسخاء يافون ان تعد عطاياهم بمئات الدراهم وانما يعدونها بالالوف والوف الالوف وكيف يعرفون للمال قيمة وهو ينصب في

خزائهم انصباب السيل اذ كانوا يشاطرون اهل الارض غلاتهم فضلاً عن الجزية والغنيمة .
فاذا صار ذلك الى الخليفة وأمرائه استكثروه فانفقوه في من يحوم حولهم من المقرين

الفصل الثاني

ابو العتاهية

وكان في جملة المرتزقين بالشعر على ابواب الخلفاء ابو العتاهية واصله من الموالي
مثل اكثر شعراء ذلك العصر وكان ابو العتاهية في اول امره يصطنع الجرار ويحملها في
قفص على ظهره وبدور في الكوفة ليبيعها وكان ذا قريحة شعرية فقدم بغداد وما لبث ان
ارتقى بشعره الى مجالسة الخلفاء . واول من قربه منهم المهدي بن المنصور وقد فتن به
وبشعره حتى كان المهدي يصحبه في الصيد او الزهة ويكرمه ويحيزه . وكان ذلك شأنه مع
الهادي بن المهدي ولم تطل مدة حكم الهادي ولكنها على قصرها اثرت في قلب ابي العتاهية
فلما مات الهادي عاهد ابو العتاهية نفسه ان لا يقول شعراً بعده

فلما تولى هرون الرشيد طلب اليه ان يقول شعراً فابى فغضب عليه وامر بحبسه في بيت
مساحته خمسة اشبار في خمسة فاستعطفه وقال شعراً غنى به الموالي المغني المشهور فامر له
الرشيد بخمسين الف درهم . وحظي عند الرشيد حظوة كبيرة حتى كان لا يفارقه في حضر
ولا سفر الا في طريق الحج وعين له الرشيد راتباً سنوياً غير الجوائز وغير ما كان يناله
من رجال الدولة وجوائزهم يومئذ بالوف الدرهم فجمع مالا كثيراً . لكنه كان مع ذلك
طماعاً شديداً يجمع المال ولا ينفقه ولا يذخر وسعاً في حشده بأية طريقة كانت
وخصوصاً بعد ان نذر الزهد وعاهد نفسه ان لا ينظم شعراً فقل تكبه من الشعر فاخذ
يفتنم الفرص الاكتساب من ابواب اخرى

وكان ابو العتاهية في خلافة الرشيد حوالي سنة ١٨٢ هـ يحضر مجلس محمد الامين بن
الرشيد وهو يومئذ في السابعة عشرة من عمره وكان الامين ميالاً الى القصف واللبو منذ
نعومة اظفاره لا يخلو مجلسه من المغنين واهل الخلاعة والجواري والغلمان وهو اول من استكثر
من الغلمان والخدم وتفنن في انقائهم وتزيينهم — وكان يشهد مجلسه كثيرون من الشعراء
ولا سيما اهل القصف والمجون منهم كالحسن بن هاني الملقب بابي نواس . وكان ابو العتاهية

مقرباً من زبيدة ام الامين فكان يحضر مجلس الامين لعله يصيب كسباً او جائزة بسبيل من السبل وكان الامين كريماً مسرفاً لا يعرف للدراهم قيمة وكان لا يشهد مجلس الامين من اهل الجند والدهاء الا من كان له غرض سياسي لا يرى الوصول اليه الا على يد الامين او تقرباً به الى امه زبيدة وهي احب نساء الرشيد اليه لانها ابنة عمه ولها كلمة نافذة عليه وكان اكثر نساء الخلفاء يومئذ من الجوارى المعنقات ولذلك لم يكن بين العباسيين خليفة امه وابوه هاشميان الا الامين . فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة او الوساطة او الدسائس يتزلفون اليها بالثناء على ابنها مع اعتقادهم انه ليس اهلاً للخلافة ويطعنون باخيه المأمون لان امه جارية فارسية ويحطون من قدره عندها وهو بالحقيقة ارقى من ابنها عقلاً وادباً

وكان اكثر الناس سعياً في هذا السبيل الفضل بن الربيع لان اياه كان وزيراً المنصور والمهدي وكان هو يرشح نفسه للوزارة فلما تولى الرشيد الخلافة قرب يحيى بن خالد البرمكي ونوّض الى ابنه جعفر بن يحيى الوزارة بكل معانيتها لان اياه يحيى كان سبباً في نيئه الخلافة فشق ذلك على الفضل بن الربيع وثار في نفسه عوامل الحسد ولم يذخر وسعاً في استنباط الاسباب للايقاع به ولم يجد سبيلاً الى ذلك الا بالتزلف الى زبيدة وابنها لعله انها تكره الفرس على الاجمال والبرامكة على الخصوص ولا سيما جعفر بن يحيى لانه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريته) بولاية العهد بعد ابنها الامين . فكانت تقرب كل من ينصر ابنها ويطعن بالمأمون ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الامين في هومو ويسايره في قصفه ويتلقاه للغرض الذي قدمناه

فاتفق في مجلس حضره ابو العتاهية تلك السنة ان الامين ذكر عزمه على ابتياع بعض الجوارى البيض ممن يحسن الغناء . يضمّن الى اللواتي في قصره واكثر المغنيات يومئذ من الجوارى الصغر وكانوا يقننون الجوارى البيض للتسري فقط واول من علم الجوارى البيض الغناء ابراهيم الموصلى مغني الرشيد . فاحب الامين ان يتخذ مغنيات من البيض فاخبره الفضل بن الربيع ان بعض كبار النخاسين اتى بجلبة من الجوارى الحسان انزلهن عند كبير من تجار الرقيق في بغداد وهو يهودي واسمه فنجاس وان الناس محبون بجمالهن الفتان فيمكن ابتياع بعضهن وبعدها الى الموصلى ان يعلمن الغناء واخذ الفضل على نفسه ان يذهب من الغد الى ذلك التاجر فينتقي له احسنهن طلعة واطربهن صوتاً . فلما سمع ابو العتاهية ذلك تنسم منه ربحاً كبيراً بالتواطؤ مع فنجاس لعله ان الامين لا يهبه مقدار ما يدفعه من المال في

هذا السبيل

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فرأى ان يذهب في تلك الليلة الى فنحاس يخبره بعزم الامين وانه هو الذي حمله على ابتياع الجوارى من عنده ويغريه على زيادة كمية كبيرة على الثمن الذي بقدره هو على ان تكون تلك الزيادة مقابل سعيه في ذلك

الفصل الثالث

غريبات

فهرول ابو العتاهية من ساعته يلتمس دار ذلك التاجر والمسافة بينهما بعيدة لان قصر الامين في جنوبي المخرم في الجانب الشرقي من بغداد ودار فنحاس في اعالي الجانب الغربي بقرب دار الرقيق التي انشأها المنصور لما كان يتتبعه من الجوارى والغلمان المجلوبين . وكان ابو العتاهية ابيض اللون اسود الشعر نظيف الثياب له وفرة جعدة وهياة حسنة ولباقة وحصافة . وكان تلك الليلة في لباس بسيط غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة او ابنه ايام كان ينظم الشعر وكان منذ عاهد نفسه على الزهد بلبس ثياب الفقراء وربما ساعده على ذلك بخله . وكان يلبس فوق ثيابه عباءة بسيطة ويعتم بعمامة بسيطة كأنه من عامة الناس فالتفت تلك الليلة بالعباءة وغير شكل عمامته اخفاء لحقيقة امره لانه ذاهب في شأن يحتاج الى التستر

فمشى على شاطئ دجلة وهو يتردد بين ان يصعد في احدى السفن التي تسير في دجلة حتى يصل الجسر وينزل من هناك ماشياً الى دار الرقيق او يجعل طريقه كله برًا وكان يفضل الذهاب ماشياً فراراً من نفقة الانتقال بالسفينة او على دابة من الدواب الاجرة فلما اطل على دجلة رأى بالقرب من الشاطئ شراعاً منشوراً وسفينة تحترق عباب المساء على عجل . فاستبشر وعزم على الركوب فيها . وكان الليل قد سدل نقابه وسكنت الطبيعة لبعده ذلك المكان عن الشوارع المزدحمة في الكرخ لان اكثر الابنية القائمة على ضفاف دجلة من القصور الشام والحدائق الغناء للخليفة او وزيره او بعض اولاده او اهله . فصاح ابو العتاهية بالسفينة ان تقف فلم يجد صياحه تعاماً فاعاد النداء فاجابه ربانها انه لا يستطيع الوقوف فاعاد الصياح قائلاً « قف ناشدتك المروءة »

فسمع ابو العتاهية عند ذلك لغطاً ورأى النوتية في حركة عند الشراع فأرخوه بحيث تبعل في السفينة في سيرها ورأى حركة المجاذيف فعلم ان اهلها في عجلة لا مراً وليس لمجرد النزهة في مياه النهر على جاري عادة اهل بغداد ولم تكن الليلة مقمرة تصلح للنزهة فاعجبته سرعة السفينة . وبرز رجل حتى وقف على حافة السفينة ونادى « من انت ؟ »

فقال « اني غريب امسى علي المساء واحب الطلوع الى الحرية ولا اعرف الطريق » فلما سمع الربان قوله تحوّل عن حافة السفينة حتى توارى والسفينة تتباطأ في سيرها ولبث ابو العتاهية في انتظاره وبعده نيهة عاد الربان وهو يقول « مرحباً بك تفضل » وادنى السفينة من الشاطئ ، ثم امر بعض النوتية فالتى خشبة بين السفينة والشاطئ ، مشى عليها ابو العتاهية حتى دخل السفينة وحباً الربان فردّ التحية وأشار اليه ان يجلس على دكة بجانب الشراع فجلس واجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية وهم اربعة يستعينون على سرعة المسير بالمجاديف . وحانت منه التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلاً وامرأة عليهما ثياب اهل البادية وقد جلسا الاربعاء واحنيا رأسيهما من النعاس وهما قاعدان وبجانب الرجل فعال غليظة من نعال اهل الحجاز ورأى بين ايديهما غلامين قد توسدا ظهر السفينة وجعلا رأسيهما على حجر المرأة كل واحد من ناحية وعليهما ثياب غير ثياب اهل البادية وقد غطتهما المرأة بمطرف من الخزموشى فاستغرب ذلك وجرّه حب الاطلاع الى استطلاع خبرهما

وكانت السفينة تحترق النهر والجوّ هادي لا يسمع فيه غير مسير السفينة تشق عباب الماء واصوات المجاذيف تنقر سطحه بانتظام . وما لبثوا بعد برهة ان اطلوا على ابنة بغداد وقد انبرت القصور على الضفتين ثم سمعوا اصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء فوجد ابو العتاهية بذلك حيلة لمخاطبة الربان فقال « اليس عندك طنفسة اصلي عليها العشاء »

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من اولئك الغريباء . فنهض ابو العتاهية واخذ في الصلاة وعيناه لا تحوّلان عن ذينك الغريبيين والغلامين وهو يتفرس بالوجوه . فعلم ان الرجل والمرأة من اهل الحجاز وهما كهلان وخشونة البادية ظاهرة في قيافتيهما . واما الغلامان فكان نور القبس قد وقع على وجهيهما فعرف ابو العتاهية من خلال خفقان نور القبس انهما اخوان احدهما في الخامسة من العمر والاخر في نحو الرابعة وفي وجهيهما جمال اهل المدن بلون ابيض مشرب حمرة ولهما عيون طويلة الاهداب كأنها مكحولة بالآثم قد زادها دفء الغطاء اشراقاً وحمرة وهما مستغرقان في النوم . وراهما اصفر

سناً من ان يكونا ابني ذينك البدو بين فازداد رغبة في معرفة خبرها وما صدق ان رجوع من الصلاة حتى اقترب من الربان وساله قائلاً « لم اعرف رفاقنا الليلة فهل هم غرباء مثلي » فقال « نعم »

قال « من اين اتوا ؟ »

فقال الربان « مالك ولهذا السؤال ؟ »

قال « لان الغرباء انساب »

فضحك الربان ضحكة اغتصائية وقال « لا يهيك الاطلاع على اخبار الناس دع عنك الفضول فاني لم اسالك من اين ايتت او الى اين ذاهب ولا ما هو اسمك ونسبك . . » قال ذلك وتركه وتحول الى حافة السفينة وكانت قد تجاوزت الجسر السفلي وكان مفتوحاً وفتمه سهل لانه مؤلف من السفن السابحة متصلة بعضها ببعض بالسلاسل وفوقها ألواح من الخشب لمروا الناس والدواب . وبعد ان تجاوزت السفينة الجسر اطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الاوسط ويندر ان يكون مفتوحاً فقال الربان « قد اقتربنا من الجسر وهذا آخر شوطنا ففضل وانزل »

وكان ابو العتاهية قد استاء من خشونة الربان وهم ان يطلعه على حقيقة حاله لانه لو عرفه لاحترمه لما كان للشعراء من النفوذ في دور الخلفاء ولكنه فضل الكتمان . ولما سمعه يناديه وقف واسرع الى حافة السفينة فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقم الرشيد وقد اضيى القصر بالشموع الملونة وانبعثت الانوار من النوافذ على اغراس الحدبقة وتضوعت الروائح الزكية فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الازهار والرياحين وتذكر ابو العتاهية المهمة التي هو ذاهب بها وما يتوقعه من وراء نجاحها من الكسب المالي فاغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان وهو يضحك « هل تنزل في قصر امير المؤمنين ؟ » قال « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر »

قال « حسناً » وعاد الى التفكير في تدبير ما ينبغي ان يقوله لفتح صاحب دار الرقيق اذا لقيه وأخذ يعد نفسه للمسير على قدميه المسافة الباقية وما هي قليلة وود لو ان هذا الجسر مفتوح مثل الجسر السفلي ليم سفرته بالسفينة فاصح عمامته وشد منطلقته فوق القباء وتزمل بالعبادة حتى اذا دنت السفينة من الشاطئ الغربي اتقوا له خشبة نحوّل عليها وهو ياتي على الربان لحسن وقادته وذمته لا يزال عالقاً بما شاهده هناك ولكن سروره بما امله من الكسب انساه كل شيء

الفصل الرابع

عتبة

فلما وطىء الشاطيء سار مهراً ولا نحو الشمال حتى قطع شارع باب خراسان ودخل في شارع دار الرقيق فرأى الحوانيت قد أقفل معظمها والاقدام لا تزال مزدحمة بعابري السبيل . فحدثته نفسه ان يكتري حملاً يركبه فغاب عليه البخل فظل ماشياً وهو يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس وهي قصر كبير لان الرجل كان من أهل اليسار والزوة بما كان يكتبه من نجارة الرقيق وكان أكثر ريعه للخلفاء او أولادهم فاذا وقف على جارية جميلة او غلام جميل أنفذ به بعض الدماسرة الى دار الخليفة او الامير او غيرهما يسعون في ترويح تلك الساع وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمرية بعض المقرين من بطانة الخليفة او ولي عهده ممن يحبون الكسب من هذا السبيل وخصوصاً الشعراء والمغنين ولم تكن هذه اول مرة اكتسب ابو العتاهية بها مالا بالسمرية

فلما أطل أبو العتاهية على قصر فنحاس اتبه لنفسه وقد مضى هزيع من الليل تخاف ان يكون الرجل قد ذهب الى الفراش لانه قلما يطيل السهر اذ ليس هو مفرماً بالسمع او مجالس الشراب وانما هم ان ينفق سلعته على أهل اللهو ويسره ان يبالفوا بالترف والقصف لتزداد ارباحه . فكانت عاده ان يتناول عشاءه عند الغروب فاذا اذن العشاء ذهب الى فراشه . وكان أبو العتاهية يعام ذلك ولكنه أمل ان يكون فنحاس ساهراً تلك الليلة — فلما أطل على القصر رأى فيه الانوار على غير المعتاد فانشرح صدره وعد ذلك من أسباب توفيقه فتحول من شارع دار الرقيق نحو اليسار في طريق يؤدي الى القصر . فلما دخل الزقاق المؤدي الى بابه رأى عند الباب أشباحاً وسمع عن بعد لفظاً فاصح وقرس فرأى دابتين تحمل عليهما شخصان معهما غلامان فدهش لما علم انهم الرفاق الذين شاهدتهم في السفينة وتبادر الى ذهنه حينئذ ان الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع ولكنه لم يجد على الرجل حياة التخاسين او التجار وانما هو من أهل البداوة

فتباطأ ابو العتاهية وانزوى في مستر بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد فرأى الرجل الشيخ بعد ان تحمل الغلام على كتفه امسك بحلقة الباب

ودقها دقاً عنيفاً ووقف ينتظر الجواب فابتدرته المرأة قائلة « هل تظنهم في انتظارنا ؟ »
فاجابها الرجل « لا بد من ذلك • الا ترى الانوار في القصر ••• لا بد ان تكون
مولاتنا في انتظارنا هنا على احمر من الحجر لاننا ابطانا عليها »

فلما سمع ابو العتاهية كلامهما لم يجد فيه لغة اهل مكة ولا المدينة بل هو اقرب الى
لغة اهل بغداد المولدين فزادت رغبته في معرفة سر هذا الامر وما لبث ان رأى خوذة
الباب فتحت واطل منها رأس امرأة بيدها مصباح قد وقع نوره على وجهها وظهرت
ملاعجها ظهوراً تاماً فشاهد وجهها مشرقاً وعينين سوداوين وحاجبين مقوسين ومبسماً لطيفاً
وشعراً قد ضفر ضفراً بسيطاً • وتدلى قباقتها على الاجمال انها من الجوارى البيض وانها
في نحو الاربعين من عمرها ولا يزال الجمال ظاهراً في عينيها • ولما وقع بصره عليها
خفق قلبه لانه تذكر وجهاً يعرفه ويحبه وكان عالماً بصاحبه منذ بضع عشرة سنة وقد
منعت عنه وبقيت لذلك حرقه في قلبه فأخذ يتفرس بالمرأة ليتحقق ظنه واذا هي تقول
بلفظة « جئتم ؟ الحمد لله ••• لقد ابطأت علينا يا رياش »

قال « لقد ابطانا رغم ارادتنا اسألني برّة عما لا قيناه من العوائق في أثناء الطريق ألم
نذهب اولاً لعند سيدنا اعزّه الله فابقانا عنده الى ؟ المساء ••••• فجتنا من عنده توجّاه
الى هنا ••• هل مولاتنا هنا يا عبية ؟ »

فلما سمع ابو العتاهية ذلك الاسم بعد ان سمع صوت الجارية بغت وتزايدت ضربات
قلبه وتحقق انها الجارية التي كان يهواها في ايام المهدي وقد اكثر من تشبيه بها وهو
لا يجسر ان يطلبها منه فاحتال في عيد انبروز فاهدى الى المهدي برنية فيها ثوب مطيب
وكتب على حواشيه بيتين يعرض بطلبها منه وهما :

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
اني لا ياس منها ثم يطمعي فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فأدرك المهدي يومئذ عرضه فهم بدفع عبية اليه • فجزعت الجارية وقالت « يا امير
المؤمنين حرمتي وخدمتي ائدفعني الى رجل بائع جرار ومتكسب بالشعر • فأعفاها وقال
املوا له البرنية مالا وأوصاه ان يكف عن التشبيب بها فكف ابو العتاهية عن ذكرها
ولكن حبها ما زال في قلبه • ولما مات المهدي وتفرقت جواريه لم يعلم ابن كان مصيرها
فلما رآها في تلك الليلة حاجت في قلبه حرارة الشباب ولكن استغرابه مما يراه
شغله عن تلك الذكرى

الفصل الخامس

دار فنحاس

اما عتبة فكانت قد عادت من الخوخة وأمريت البواب ففتح الباب فدخل الرجل (رياش) يحمل احد الصبيين على كتفه راكباً عرضاً وقد القى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل واستغرق في النوم وذؤابتا شعره مرسلتان على كتفيه فوق الدراعة وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة. وعتبة تسير بين يديهما بالمصباح في فناء الدار حتى تواروا عن بصر ابي العتاهية. ثم رأى البغاثين في الزقاق عائدتين يسوقهما المكاري فظل واقفاً وهو يفكر في ما رآه وقد نسي المهمة الاصلية التي جاء من اجلها وأصبح همه كشف ذلك السر وخصوصاً بعد ان سمعهم يتساءلون عن مولاتهم فقال في نفسه « من عسى ان تكون تلك المولاة؟ لعل في الامر سرّاً اكتسب من وراء كشفه مالا » فرأى ان يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ اهل البيت انه عرف شيئاً من امر القادمين فاذا دخل بعد ذلك احتال في كشف السر فتربص حتى سمع صرير الباب ورآه يفلق ثم سمع صوت ايصاده فتقدم نحوه ودقه بالحلقة فسمع رجلاً ينادي « من ؟ »

فاعاد القرع ففتحت الخوخة وأطل رجل من انباط السواد اسمه حيان كان فنحاس قد جعله بواباً وكان يعرف ابا العتاهية وشاهده هناك غير مرة. فلما رآه في تلك الساعة وقد توسط الليل استغرب قدومه ولكنه رحب به وفتح له فدخل ابو العتاهية وهو يتظاهر بالتعب وقال « هل مولاك في البيت يا حيان ؟ »

قال بلهجة الانباط وهم يلفظون الحاء هاء والعين همزة والقاف كافاً « نأَمْ .. هل تريد الدخول إليه ؟ »

قال وهو يمشي في فناء الدار « لم يكن مرادي الدخول عليكم في هذه الساعة لو لم أر البيت مشعشعاً بالانوار على غير المعتاد لاني لم اعهد المعلم فنحاس بظل ساهراً الى ما بعد العشاء فاستغربت ذلك واحببت ان اعرف الباعث على هذه السهرة فارجو ان يكون السبب احتفالكم بزواج او قدوم قادم » قال ذلك وهو يمازح البواب لعله يبيح له بشيء.

فاجابه « ليس ثمَّ ما بكلك الراحة ولكني لا أأرف سبب السهرة .. » ثم بدّل الحديث حالاً فقال « أتريد ان ترى سيدي الآن ؟ »

قال نعم « اين هو ؟ »

فقال « اني ذاهب لادأوه لك » واسرع في مشيته حتى دخل في دهليز اتصل منه الى سلم صعد عليه وابو العتاهية يتبعه لثلاً يتي خارجاً ويحدث ما يمنعه عن الصعود وكان الدهليز والسلام كلها مضيئة بالشموع ولكنه لم ير احداً من الخدم او الجواري في طريقه ولم يكن يسمع ضوضاء ولا غوغاء فعلم ان القادم يريد التستر . ثم وصل حيان الى غرفة نعوذ ابو العتاهية ان يجالس فنحاس فيها وكانت مظلمة فادخل اليها حيان مشتمة فيها عدة شموع ودعاها للجلوس فجلس وذهب النبطي ليدعوه مولاه فمكث ابو العتاهية في انتظاره وهو يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة و بوداً ان يعرف مقر اولئك الاضياف في القصر فسمع صوت غلام يضحك فعرف انهم في غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق اليها ثم عاد حيان وهو يقول « ان سيدي ذهب الى الفراش . . هل ايكله ؟ »

فاستبشر ابو العتاهية بنومه وقال « دعه نائماً وساقبله في الصباح . . » قال ذلك وتشاءب وتمطى يظهر التعب والنعاس فقال له البواب « هل تريد الرقاد ام آتيك بالطعام قبلاً ؟ » (مع تحريف الاحرف بلفظه)

قال « لا حاجة بي الى الطعام ولكنني اشكو التعب فقد كنت في مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب ولما اقتربت من قصركم ورأيت الانوار فيه قلق خاطرني واتيت لاقضي ساعة مع المعلم فنحاس فصرفت الدابة والمكاري ولا ادري اذا احببت الذهاب هل اجد دابة بقرب هذا المكان »

فقال حيان « اذا كان لا بد من ذهابك فان في الاصطبل دواب كثيرة ولكنني لا اري حاجة الى السرعة فاسترح عندنا الليلة واذا شئت الرقاد اخذتك الى حجرة فيها فراش »

قال « ولكنني لا استطيع النوم في النور على هذه الصورة »

قال « قد اخذنا في تطفئة الانوار ولا تلبث ان ترى القصر مظلماً »

فقال « اذا كان الامر كذلك فافضل الرقاد هنا اولي من ان اذهب واعود بالغد لاني جئت الى المعلم فنحاس بامر تجاري فيه كسب كثير بحول الله . . »

فازداد البواب رغبة في استبقائه لعلمه ان سيده يتوقع منه ذلك لكثرة جشعه للمكاسب مع ما عنده من الثروة الطائلة . وكان فنحاس انما يهيمه كسب المال ولا يبالي بالطريقة المؤدية الى كسبه فكثيراً ما كان يبغي في سبيل ذلك عن امور لا يبغي عنها

الحرء وعذره ان الناس على ضلال في امر دينهم فهم يتمسكون بامور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف او عزة النفس ويبدلون في سبيلها حياتهم او يضيعون بها اموالهم ويفوتهم كثير من المكاسب الطائلة كأن الشرف يشبعهم اذا جاعوا او يدفنهم اذا بردوا او يروهم اذا عطشوا . اما المال فهو عنده السلطان او هو الصولجان فمن قبض عليه كان سلطانا تطأ طي له الرؤوس ويخدمه الرؤساء . . . تلك هي مبادئ المعلم فنحاس وكان ابو العتاهية يعرف ذلك فيه وكثيراً ما يستعين به في اعمال يكسب بها الاثنان على نحو الكيفية التي جاء عليها تلك الليلة

فلما توسم البواب من ابي العتاهية ما يسر مولاة اخ عليه بالرقاد هناك ودعا ان يتبعه فسارا وابو العتاهية بتنصت وبتلفت لعله يتحقق الغرفة التي تتوق نفسه الى معرفة سر اهلها ثم وقف حيان امام باب فتوح ودعا الى الدخول والمشمعة بيده فدخل فاذا هناك فراش على طنفسة لا باس منها فقال ابو العتاهية « هذا فراش نظيف كثر الله خيرك » واظهر انه يريد الرقاد فتركه حيان ومضى وكان ابو العتاهية قد عرف الجهة التي فيها اولئك الناس فلما ذهب حيان وقد اطفئت الانوار ونام كل اهل البيت نزع عمامته وعباءته وتحفف بطاقيه كانت على الفراش وخرج يتلمس الحائط وركبته ترنجان وقد نام اهل القصر واستولى السكوت على المكان واصبحت معرفة تلك الغرفة اقرب من جبل الوريد فاذا لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها

الفصل السادس

التلصص

فما عثم ان وصل الى الغرفة وهو يسمع اناساً يتكلمون همساً كأنهم يحاذرون ان يسمعهم احد فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة جالسة على سرير في صدر المكان وفي حجرها ذاك الطفلة وقد ضمتهما الى صدرها واخذت تقبلهما وعيناها تتلألأ بالدمع وفي ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن فلا تدري أمي تبكي فرحاً او حزناً . وتفرس ابو العتاهية بتلك المرأة فاذا هي بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها في وجهها جمال وهيبة لم يشاهد مثلها مع كثرة ما

رآه في عمره من الجوارى الحسنان في دور الخلفاء او ولاية العهد ولا في دار جعفر البرمكي او غيره من البرامكة . ورأى فرقا كبيرا بين ما يعرف من جمال اولئك وما في جمال هذه من الهيبة والوقار . ولو تأملت في تلك الهيبة لرأيت مصدرها العينين ولم تكونا كبيرتين ولا واسعيتين ولكنهما ترسلان اشعة براقية . ولم يكن فيهما ذبول مثل سائر عيون الغواني بل كانتا حادتين بشعر الرجل اذا نظرنا اليه انهما اخترقتا صدره واصابتا قلبه واستطلعتا خفايا سره . ولم يكن لون الفتاة ابيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال ذلك اللون بل كانت حنطية مشربة حمرة . ولها ميسم ينطق بغير كلام ويدل على عواطفها كما تدل المرأة على ما يقابلها . ورأى ابو العتاهية على جبينها عصابة مكحلة بالجوهر فدهش لهذه العصابة على الخصوص لانه لم يكن رأى مثلها من قبل واول من اتخذ العصاب المكحلة بالجوهر عليّة بنت المهدي (اخت الرشيد) فعلت ذلك اذ كان في جبينها فضل سعة شوّه جمالها فحدثت العصاب المذكورة لتستر ذلك العيب فكان من اجمل الاختراعات . ولم يكن ابو العتاهية رأى ذلك لانه لم يكن شائعا

وكانت قد صفت شعرها تصفيفا بشكل حمة تعرف بالجمة السكينية نسبة الى سكينه بنت الحسين لانها اول من صفتها . ورأى ابو العتاهية في مقدم تلك الجمّة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر عينا من الزمرد وفي اجنحته فصوص من الياقوت الاحمر مرتبة بين فصوص الالماس ترتيبا عجيبا وقد اشترك تلالؤها باشعة النور حتى توهم ابو العتاهية ان الغرفة مضيئة من نور تلك الطرة وليس من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب . وفي اذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بقدر بيضة الحمامة وفي عنقها عقد من الجوهر في غاية التناسب . واما ثوبها فممن اثمن المنسوجات ولكنه كان في غاية البساطة لونه سماوي على حواشيه وشي دقيق . فذهل ابو العتاهية لمنظر تلك الفتاة وقال في نفسه « لاشك ان هذه الحورية من اهل بيت الرشيد ولا بد لها من شان سري اذا اطلعت عليه ابتزرت الاموال به »

ونظر في جوانب الغرفة فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب اهل الحجاز وقد قعدا على الارض باحترام وتهميم وخصوصا الرجل وكان كهلا قد وخطه الشيب . وفرس ابو العتاهية في وجهه فلم ير فيه ملامح اهل البادية فعلم انه تنكر بذلك اللباس لغرض ما واما المرأة فلما رأى وجهها بالنور تبين له ان اصلها جارية من الجوارى وقد كبر سنها — واما صاحبه عتبة فاستلقت انتباهه على الخصوص وكانت جالسة بين يدي

السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها • وتأمل ابو العتاهية في عتبة فرأى الجمال لا يزال في وجهها وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سماً وبضاضة • وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة علق في طرف كل منها قطعة من الثقود او المصاغ وفي عنقها عقد ثمين وفي زنديها الاساور والدمالج وعليها ثوب لونه احمر مشجر بعروق خضراء

فدهش ابو العتاهية من تلك المناظر واصطكت ركبته من التائر وانبعه الانحاء لانه لم يكن يستطيع النظر من ذلك الثقب الا اذا انحى • على انه كان صابراً ينتصت لما دار من الحديث هناك واول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من غنثها انها لصاحبه عتبة وهي قولها « لا بأس عليك يا مولائي • • لماذا تبكين ؟ » فرفعت تلك الفتاة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهي تقول وصوتها محتق من البكاء « قلبي يحدثني يا عتبة انها آخر مرة اراها فيها »

فصاحت « ماذ الله يا مولائي بل ارجو ان تربها مراراً في كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم • وهذا ريش حفظه الله لا يدخر وسماً في القدوم البنا كما امرت • • • وعسى ان يقضي الله باطلاق حررتك فيكونان معك في كل حين »

فتهدت الفتاة وقالت « آه يا عتبة انك تمين محالاً • • • لان غريمنا ظالم مستبد له السلطة المطلقة وقد انغمس في ملذاته وتمتع بكل ما تشبهه نفسه واصبح لا يبالي بسواه هلك عطشاً او مات جوعاً او ذاب لوعه • • انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة وانما يهيمه ملذات نفسه » قالت ذلك وهي تستخرج من كمها منديلاً من الحرير مزركشاً بالقصب مسحت دموعها به

فقالت عتبة « تلك حال الرجال على الاطلاق يا مولائي فانهم اصحاب السيادة وقد فضلوا انفسهم على المرأة فخللوا لانفسهم ما حرموها منه وتمتعوا بما حظروه عليها • يتزوج الرجل عدة نساء وبقنتي الجوارى والسراير ويمنع المرأة من ان تزوج برجل حبه ويحبها • • • ولكن • • • »

فقطعت الفتاة كلام الجارية وقالت « ليس بين الرجال من عمل عمل اخي ولا بين النساء من اصاب بمصابي • • • زوجتي برجل هو جمعني به وحبيني اليه وعقد له علي ثم حرم علينا من ثمار ذلك العقد ما حلله الله لاحقر خلقه • وهو مع ذلك يخطر في قصره وحوله مئات من الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات والسنديات وفيهن البيض

والصفر والحمر والسمر والسود . . . » ولما بلغت الى هنا غصت بريقها وشرقت بدو وعها .
وكان الغلامان في حجرها وكبيرهما ينظر في وجهها نظرا الاستغراب وهي تتكلم فلما رآها
تبكي شاركها في البكاء ولما رآه آخره يبكي بكي ايضاً وبكت عتبة وعلا ضجيج البكاء في
تلك الغرفة

ثم رأت عتبة ان تتجلد وتحنف عن مولاتها فقالت لها « لا يخفى عليك يا مولاتي
ان اخاك امير المؤمنين حرسه الله لم يمنعك من الزواج بذلك الوزير الا لعدم كفاءته فانك
بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبي . والوزير مولى فارسي مثل سائر الموالي
فكيف تزوجينه ومثلك تزوج احد ابناء عمها الهاشميين . . . فامير المؤمنين مشهور
بجبه لك وانما منعك من الزواج تنزيهاً لمقامك . »

فصاحت « ويلك يا عتبة . . . ألا تزالين مخدوعة بهذه التموهيات . . . ؟ اذا كان اخي
بعد الزواج بالموالي او العبيد حطة لمقام الخلافة فما بالله يتزوج هو بالجوارى ويستولدهن
ويولي اولادهن العهد بالخلافة . . . العل الجارية ارفع مقاماً من المولى ؟ ناهيك بما في
قصوره من الجوارى للتسري بلا عقد . . . فلماذا لا يقتصر بالزواج على ابنة عمه زبيدة
مع ما يظهره من حبها واحترامها ولكنه اطاع شهواته ولم يجحد من يصدفه فانغمس
وأرف ورآني ضعيفة فاستبد في . . . عرفني بشاب لا اعرف في ابناء عمي من بني هاشم
احسن منه وزوجني به ثم منبني منه واصبحنا نعد التقرب خيانة ونحاف ان يطالع أحد
على سرنا كاتنا من اهل الفجور نعوذ بالله . . . ولكن من يستطيع ان يقول ذلك لآخي
ولا تكون حياته في خطر ؟ . . . »

الفصل السابع

العباسة عروس الرواية

وكان ابو العتاهية قد آلمه ظهره وهو مخنن عند الباب ينظر من ذلك الثقب ورجلاه
ترتعدان وهو يمسك اتقاسه تخافة ان يشعر به احد ولما سمع ما دار من الحديث علم ان الفتاة
هي العباسة اخت الرشيد . وكان عالماً أن الرشيد عقد عليها لجعفر بن يحيى البرمكي وزيره
ليحل له النظر اليها لان الرشيد كان يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبو على بعده

وكان الرشيد يحب اخيه العباسه ايضاً ويحب ان يراها كثيراً فعقد لجعفر عليها حتى يحل له ان يراها فقط وخوفه مما وراء ذلك . وعلم ابو العتاهية مما رآه وسمعه ان جعفر تزوج العباسه سرّاً وان الغلامين اللذين معها هما ثمره ذلك الزواج وانها تخاف ان يعرف اخوها الرشيد بذلك فيقتلها . تخفق قلب ابي العتاهية فرحاً بذلك الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير بواسطته لعلمه ان اعداء جعفر يتتبعون مثل هذه الوشاية بالوف من الدناير وخصوصاً الفضل بن الربيع لاسباب تقدم ذكرها . ودمعت عينا ابي العتاهية ليس تأثراً من حالة العباسية بل من طول حملته وتطلعه من ذلك الثقب واحسّ وهو في تلك الحالة الحرجة ان العطاس يكاد يدهمه فخاف ان يعطس فيفتضح امره فجعل يفرك ارنبة افه حتى اذهب العطاس عاد الى التلصص والتفرس وكان قد سمع عتبه تخفف عن العباسه وتقول لها « دعينا من النوح الآن فقد تكبدت المشقة والخطر لتشاهدي ولديك فانشقيهما وقبلهما ودعي انتقادير مجري بما يشاء الله »

فاطعتها وكان الغلامان في حجرها وهما شاخصان اليها وقد استغربا ما راياه منها فلما رأتهما ينظران اليها والدمع لا يزال في عيونهما لم تتمالك عن الابتسام وعيناها تقطران دمعاً وتناولت الكبير وضمتها وجعلت قبله في خديه وفي عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستشق ريحه وهو مغرق في الضحك بحسبها تلاتيه او تداعبه — وأنى له ان يشعر بما يجول في خاطرها او بما يهيج من عواطفها وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا الا الاكل والشرب ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل او بالكعاب او بغيرها من الالعب وما مطامع الدنيا عنده الا نديامه . فاذا فطم كان همه بطنه ومطعمه عجله يدبرها او كرة بلاعبها وتسليته حصي يتي بها يتناً أو طينا يصطع منه تمثالاً . يرى المائت فيضنه نائماً ويلقى الثعبان فيحسبه جبلاً . لا يخاف الهجر ولا يحاذر الفقر ولا يعرف نوائب الدهر . ربما احب هرة تلعب بين يديه اكثر مما يحب والديه لانه يحب كل ما تنتهي راحته اليه . ولو عقل لقاس تعلقه بطير عاشره بضعة أيام ثم ذهب عنه كم يكون اسفه عليه فكيف يكون تعلق الوالدة بابنها وهو حشاشة قلبها وبضعة من نفسها ومثال حبيب قلبها . ولا لوم على الاطفال اذا لم يدركوا حب الوالدة لانه سرّ معلق على غير الوالدين ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشيبية واحتلاطهم بالعاتلات ومشاهدتهم حنو الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلك الحنو حتى يولد لهم الاولاد فيذوقون مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجهه صحة ويسيل كلامه لطفاً وتزيده اللكنة عذوبة وسهر على طفل يقاسي الالم

ويجزئه التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه او يكتمه خوفاً من مرارة الدواء والوالدان
بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان انفاسه وقد غلّت ايديهما وتقطر قلباهما وضافت
الدنيا عليهما • ولا سيما الوالدة فانها الصق بولدها في طفولته اذا مشى مشى قلبها معه
او ضحك رقصت جوارحها له واذا تكلم كانت كلها آذاناً لعله يلمس منها شيئاً يسرُّه
ويسرُّها ان يناله ولو كان في نيله شقاؤها • وهي تزداد حباً له كلما تعذبت في تربته
ويزداد حنوها اليه بزيادة شقاؤها به • فمن اين لغير الوالدين ان يفقهوا ذلك او يدركوا
حنو الوالدة — حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً فانهم لا يستطيعون ادراك حب
الوالدة لولدها الانحياً وابن الحقيقة من الخيال

الفصل الثامن

البغية

فكانت العباسة تستنشق ريح ابنها وهي نجش بالبكاء وقلها يتردد بين اليأس والرجاء
والغلام يضحك والسداجة الفطرية ظاهرة في وجهه وسلامة النية وطهارة القلب باديتان
في كل حركة من حركاته • وقد اصاب المصورون اذ شبهوا الملائكة بالاطفال فانهم مثال
الطهارة والقداسة وصدق الالهجة فهم لا يخفون عواطفهم ولا يكظمون ما في نفوسهم
ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم واقواها حب الذات • فالطفل يحب ذاته ويحب
كل ما يرى فيه نفعاً لنفسه • وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي
من اظهاره — ولذلك فلما رأى احد الاخوين امه تلاعب اخاه وتقبله التي نفسه على
صدرها كأنه يزاحمه على ما يكتنه ذلك الصدر فقبلته العباسة ثم التفتت الى عتبة وعيناها
تتكلمان عنها وما تماكنت ان قالت لها « ما الطف هذين الولدين وما الطف اسميهما (الحسن
والحسين) هل يسمح لي الله ان اعيش معهما ولو في كوخ حقير او في خيمة بالبادية »
فابتدرتها عتبة قائلة « ان الله على كل شيء قدير ••• الا تظنين ان رجوعك الى
قصرك قد آن فان الفجر اصبح قريباً وتخاف ان يشعر احد برجوعك فنقع في ما نتخوفه »
قالت « يعز علي الذهاب يا عتبة ولكن لا بد منه ••• ابن الدراهم التي اتيت بها
ممعك ؟ • ادفعها الى رياش ••• »

فتناولت بكرة من الدراهم ودفعها اليه فتناولها واثني على العباسة ونهض فقبل يدها
وكذلك فعلت برءه فقالت لهما العباسة « لا حاجة بي ان اوصيكما بالحسن والحسين
فانهما فلذه كبدي »

وكان الحسن اكبرهما سنأ فلما تحقق عزم والدته على الفراق ورآها وقفت ترامي
عليها وامسك يدها واسند خدءه على راحتها وقال وصوته محتق « تعالي معنا يا ماما . . .
وقولي لابني يجي » معنا ايضاً . . . »

فظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفي عينيه دمعان تترددان بين المآقي
وشفتاه ترنجان ولا تطاوعانه على الكلام . وكأنه يحاول التنافض ويحاذر ان يسبقه البكاء وقد
غص بريقه . فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر
المؤثر وقد كانت من اول اجتماعها بابنيها تتخوف من ساعة فراقهما وتغالب نفسها
وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها . فلما رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر
والده ويطلبها به على تلك الصورة غلبتها عواطفها واحست بما تكابده من ألم الفراق وتقل
المحاذرة والتخوف فلم تتمالك ان قعدت بغتة وهي تضم الغلام الى صدرها وتصيح
« صدقت يا ولداه » وأغرقت في البكاء حتى اغمى عليها

وكانت عتبه واقفة تراعي حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها وقد همت
ان تخفف عنها فلما رأتها قعدت بغتة خافت عليها من الاغواء لانها شاهدت اغواءها على تلك
الصورة غير مرة فلما سمعتها تصيح وتبكي تحققت غيبوبتها فتناولت احدى الشموع من المشعمة
وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعي خادماً يا نبيها بالماء لترش سيدتها . وكان ابو العتاهية لا
يزال واقفاً ينظر من ثقب الباب . فلما اسرعت عتبه اليه وفتحته على غير انتظار والشمعة يدها
بغت وارتيك في امره وكاد الدم يجمد في عروقه فوقف كأنه صنم من الاصنام وبصره
شاخص كأنه لا يرى شيئاً . اما عتبه فظننته لاول وهلة بعض خدم المنزل فصاحت به
« هات الماء » ثم علمت من لباسه انه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه
الصورة . اما هو فلم يطل جموده الا لحظة ثم انبته لنفسه وحوال وجهه وطلب الفرار . فلما
تحرك تذكرت انها تعرفه ثم فطنت الى انه ابو العتاهية فاشكل عليها امره وهي في تلك الجبال
من القلق على سيدتها خوفاً عليها من الاغواء فغلب عليها ذلك القلق فامرعت الى غرفة
الخدم وصاحت بهم فنهض بعضهم وجاءها بالماء فعادت الى سيدتها ورشتها به فافاقت .
واخذت تخفف عنها وخاطرها مشتغل بابي العتاهية وادركت من ارتباكها عند رؤيتها

انه كان يتلصص لرؤيتهم ولا بد انه سمع شيئاً من احاديثهم وهي تعلم انه لا يؤمن على مثل هذا السر وان اطلعه على امر هذين الغلامين خطر على العباسة . فكانت تخاطب مولاتها وتحثف عنها والقلق والارتباك بادبان في وجهها وهي تتردد بين ان تطلع العباسة على هذا الامر او تكتمه عنها ولكنها فضلت كتمانها لئلا تزيد احزانها وتخافها . على انها عازمت على تدبير وسيلة تمنع ابا العتاهية من افشاء هذا السر فلما عازمت على ذلك ذهب فلقها وعادت الى التهوين على العباسة والتخفيف عنها و اشارت الى رباش ان يذهب هو وبرة بالغلامين اولاً فاطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعهما ويضاحكما وكانا قد تعودا عليه وتعلم هو بما يلعبهما به من المواعيد او نحوها . فسكنا وظلت عتبة بجانب العباسة تشاغلها وتسايرها وهي تنهد ولا يزال اثر الاغماء بادياً فيها . فلما خرج رباش وبره امرت الخادم الذي كان قد جاءها بالماء ان يسندم حيان فذهب ثم عاد وحيان معه وآثار النعاس ظاهرة في عينيه لانهم نادوه وهو مستغرق في النوم فجاء وعلى رأسه طاقية لم تستر الا بعض شعره فوقف بين يدي عتبة فقالت له « ان مولاتي تنقدم اليك ان ترسل مع هذين من يدبرلها مركباً يركبان عليه الى دجلة »

الفصل التاسع

الهاجس

فاشار بيد به على رأسه اشارة الطاعة وخرج وظلت العباسة وعتبة في انتظاره . ثم اظهرت عتبة انها تحتاج الى شيء من حياض فخرجت لملاقاته وهو عائد فدعته الى خلوة فخاطبته وفي بداها مندبل فيه تقود وضعه في كفه وهي تقول « امرتني مولاتي ان اشكرك على الخصوص لعنايتك بنا وهذا المندبل هو لك هدية منها » ثم مدت يدها واستخرجت صرة اخرى دفعتها اليه وقالت « وهذه للمعلم فحاس »

فأثنى حيان عليها جهد طاقته فقطعت كلامه فائتة « هل ابو العتاهية هنا من زمن طويل » وقد ذكرت اسمه تمويهاً على حيان انها واثقة بوجوده هناك فقال « بل جاءنا الليلة »
قالت « اصدقني . . . »

قال « قد صدقتك . فانه جاء لمقابلة المعلم فنحاس في هذه الليلة وكان المعلم قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » قال ذلك بغير حذر ولا تردد فتحققت انه بقول الصدق فقالت « اطلب اليك خدمة لا تكلفك تعباً فهل تقضيها لي ؟ »
قال « على الرأس والعين »

قالت « اريد ان تستبقي هذا الشاعر عنديكم ولا تدعه يخرج قبيل ان اعود في صباح الغد »

فاستغرب طلبها وقال « اخاف ان يطلقه مولاي ولا يطيعني في استبقائه »

قالت « قل لمولاي ان امير المؤمنين يريد استبقائه لامر بهيمة »

فلما سمع ذكر امير المؤمنين خفق قلبه لانه لم يكن يعلم من امر العباسة سوى انها امرأة من سراة بغداد استأجرت تلك الغرفة في تلك الليلة لامر خاص فقال « سأقول ذلك لمولاي »

قالت « احذر ان تستخف بقولي »

قال « سمعاً وطاعة »

فقالت « فاعدد لنا البغال ربثاً نرجع » واسرعت الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد استبطأتها فسألتها عن سبب تغييبها فقالت انها ذهبت لايضاء حيان باعداد البغال فصدقتها ثم خرجنا حتى ركبنا ومضنا

اما حيان فأخذ يفكر فيما سمعه من تحريض عتبة على الاحتفاظ بابي العتاهية فلم يفهم لذلك سبباً معقولاً وقد خوفه ذكرها امير المؤمنين ولكنه عزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها في الصباح ليلقي تبعه ذلك عن عاتقه . وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه

اما ابو العتاهية فانه فر من وجه عتبة على تلك الصورة وقد ذعر وكاد الدم يجمد في عروقه من البغنة لكنه ظن انها لم تعرفه فوصل الى فراشه وركبناه تصطكان فاستلمتني بعد ان اغلق الباب ولبث صامناً ينوقع ان يسمع صوتاً او يشعر بخنق نعال او حركة تدله على ما كان من تأثير تلك المقابلة . فضت برهة وهو يجلس انفاسه مبالغة في الاصغاء ويصيح بسمعه والعممة قد تكاثرت وشبح عتبة نصب عينيه . واخذ يفكر في ماذا عسى ان تكون العاقبة على انه تخوف وغلب عليه الحذر . وكانت الحجرة التي بات فيها تشرف على الزقاق المؤدي الى باب تلك الدار من نافذة كانت مقفلة فمالبث ان سمع قرعة اللجم وجلبة السياس فنهض وتطلع من شق في النافذة فرأى رياشاً وبرة قد ركبا ومعهما الغلامان

فتربص ليرى ما يكون من امر العباسة وجاريتها فسمع حركة السياس في اعداد الركائب وراها خرجنا على بغلين وفي ركاب العباسة سانس يده على كفل البغلة وقد النفث بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة اخفاء لحقيقة حالها . فتحقق ذهابهما فاطمان خاطرهما وعاد الى فراشه واخذ يفكر في ما جاء من اجله الى فنحاس فعزم على ان يبكر في الصباح الى غرفته و يفتحه بهذا الشأن ثم ينصرف الى بيت الامين او الى الفضل بن الربيع ويحيى مع من يتدبانه لان لقاء الجوارى

الفصل العاشر

طارق

نام ابو العتاهية وهو بهجس ونسي بغننه ولم ينم كثيراً حتى سمع جلبة في ذلك الزقاق يتخللها قرعة اللجم وصهيل الخيل فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها بلباقة فرأى الصباح قد لاح . واطل فرأى عدة رجال على افراس جياد عرف من مسروجها وما عليها من اكسية الديباج انها من اسطبل الامين تخفق قلبه وتفرس بالراكبين فرأى بينهم الفضل ابن الربيع وحوله جماعة من حاشية الامين عرف اكثرهم ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول « اخن القوم لا يزالون نياماً »
فأجابه احد الفرسان « لا بأس من ايقاظهم فان المعلم فنحاس لا يهجمه الا كسب المال ولا يبالي بالنوم »

فقهقه الفضل ثم قال « الا اذا ظننا قادمين لمصادرتة او الى امر يذهب بجيانه »
فقال الفارس « لا خوف من المصادرة في ظل امير المؤمنين والذهب يتدفق من بيت ماله . ولا خوف من نكبته واهل الدولة في حاجة الى جواريه و غلمانة حتى امير المؤمنين . . »
وفي اثناء ذلك تقدم احد الخدم وقرع الباب واخذ الفرسان في التحول عن الخيول واول من نزل الفضل وكان طويل القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية اسم اللون يخالطه صفرة ولا يزال في عنقوان الشباب وقد غلب عليه المزاج الصفراوي على اصطلاحهم فساعده على كتمان عواطفه والظهور بما يريد من التلبس بالصدافة لاعدائه والسعي في الوشاية عليهم . واهل هذا المزاج من اقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاؤون من الاحوال

وكتبان ما تكنه فمائرهم فهم لذلك يصبرون على الضيم ربثا ينتهزون الفرص لنيل ما ربههم
فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل كما يفعل باهل المزاج العصبي او الدموي الذين اذا
غضبوا ظهرت امارات الغضب في عيونهم وجباههم ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش
والصبر على المكاره

فلما تحقق ابو العتاهية قدوم الفضل قال في نفسه « لا بد من امر بعث علي تعجبه
في المجيء ولا بد ان يكون الامين قد حمله على ذلك تشوقاً لما وعد به نفسه من امر
اولئك الجوارى لاهتمامه باسباب القصف والترف ورغبته في الفناء . وخاف ابو العتاهية ان
يحول قدوم الفضل في تلك الساعة دون ما يتوقعه من الكسب وهو لم يقابل فنحاس
بعد فتحول عن النافذة وهرع يطلب غرفة فنحاس فرأى اهل الدار في هرج بنقدمهم
حيان وقد اسرع الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد انباه بقدومهم فلم ينتبه
لابي العتاهية . اما هذا فظل سائراً الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلاً فدقه وهو
يناديه قائلاً « العلي المعلم فنحاس لا يزال نائماً ؟ »

فلم تمض لحظة حتى سمع وقع خطواته داخل الغرفة ثم فُتح الباب واطل منه المعلم
فنحاس وهو لا يزال بلباس النوم ليس عليه الا السراويل والدراعة فوق القميص وفي
عينيه رمص من ضعفها وطول الرقاد وقد نبش شعر رأسه وانتفش واختل نظام ساليه
ولحيته . وكانت لحيته شططاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال وهي
مقسومة الى شطرين وافته كبير مستدق قد ذهب طولها باحد بداهه . وكان لبغته في تلك
الساعة قد نهض وقبضه مفتوح من اعلاه فبان اسفل عنقه واعلى صدره وفيهما تجعد
يتخاله شعر اجعد لوراً بته في تلك الحالة لحسبته من المتشردين

اقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح الرمص عنهما يعطن كفه وحالما وقع
نظره على ابي العتاهية عرفه فصاح فيه « ما وراءك يا ابا العتاهية ؟ »
فدخل ابو العتاهية واغلق الباب وراءه وهو يقول « قد جئت مساء الامس بمهمة
وكنت نائماً فانتظرتك الى هذه الساعة ولما استبظأتك جئت لايقاظك فارجو ان لا اكون
قد ازعجتك . »

فقال وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل طوق قبضه « ليس ثم ازعاج . . . قل ما الخبر »
قال « لا تخف فان المسألة رابحة . . . قد حرضت مولانا ولي العهد على اقتناء بعض
الجوارى وان لا يتاعهن الا من عندك وانت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء واهل

الدولة فاطماني فحيت لاخبرك بذلك على ان لا تضيق تعبي . . .
 فقطع فنحاس كلامه قائلاً . فهمت المألوب . . . كن مرناً . . . فتي أتى رسوله
 بهذا الشأن أضفت نصيبك الى الثمن بارك الله فيك . ليس هذا الذي تريد . . . انك
 رجل غيور على مصلحتي . . . واذا شئت جعلت نصيبك من البيعة جارية جميلة .
 قال « لا حاجة بي الى الجوارى كما تعلم . . . »
 فضحك وهو يفتش عن قبائه وجيبته وقال « طيب . . . لا تخف فاني افهم بلاشارة
 فافهم انت . . . ولا يتم الشرط الا بعد وقوع البيع .
 قال البيع يتم في هذه الساعة لان الامين ارسل الفضل بن الربيع وقد وصل الى
 دارك وأظهم ادخلوه الى دار الرقيق الان واحذر ان تطاع احداً على ما دار بيننا . . . »
 فوضع فنحاس يده على فم ابي العتاهية وقال « لله ما ايسطك . . . كنت اظنك
 انبه من ذلك . . . » ثم عاد الى تسريح شعره واصلاح شأنه فمشط لحيته وقتل سالفه وشد
 على خصره منطقة فوق القباء ولبس الحية وخرج ابو العتاهية في اثره واذا بجيان يسرع
 نحوها فلما وقع نظره على ابي العتاهية اجفل وتذكر وصية عتبة فاراد ان يوقف مولاه
 ليخبره بالفادمين ويبلغه تلك الوصية فابتدره فنحاس قائلاً « فهمت مرادك ها ابي ذاهب
 اليهم ابن هم ؟ . . . » وهو يحسبه قادماً ليخبره عن الفضل فقط . فبغت حيان ولم
 يجسر ان يخبره بفرضه وخصوصاً بين يدي ابي العتاهية فسايره وقال « قد جاء مولانا
 الفضل بن الربيع فادخلناه دار الرقيق وهو في اتفارك هناك » واجل الخبر الآخر الى
 فرصة أخرى
 اما ابو العتاهية فانه نظر الى حيان وتبسم على جاري العادة وهو لا يعلم ما في ضميره
 فحياه حيان متأدباً ومشى في اثره



الفصل الحادي عشر

دار الرقيق

منى المعلم فتحاس وهو يتعز باذيال جيته حتى خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق • فاشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عديدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة • وكان الفناء مزدحماً بالخدم من رجال الفضل وانظارهم متجهة نحو تلك الغرف كأنهم يشاهدون فيها شيئاً غريباً • وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس وفيها الوسائد مصفوفة بين يدي الجدران وقد زخرفت تلك الجدران بالقوش الملونة • وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته ولبث في انتظار المعلم فتحاس • اما هذا فخالما اقبل على الغرفة رأى الفضل في صدرها جالساً الاربعاء وقد اسند كوعيه على ركبتيه فهرع اليه مسرعاً واكب على يده ليقبلها وهو يتسهم ويتأذب فضحك له الفضل واجتذب يده منه وهو يقول « اظننا ازعجتك بهذه الزيارة »

قال « كلاً يا مولاي فان زيارتكم حظ وشرف لنا »

فاشار اليه بالجلوس وهو يقول « ان مولانا ولي العهد رغب الينا ان تأتيه ببعض الجوارى الحسان ممن يحسن الغناء وقد كان في الامكان ان نبث اليك بعض خاصتنا في هذه المهمة ولكننا احببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج بما حوته من اصناف الجوارى والغلمان فقد قيل لنا انها تحوي من كل معنى طرب »

فقال وهو يتكلم ويتعلم نادياً « لقد تحماتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتموني شرفاً لا استحقه وقد كنتم في غنى عن ذلك باشارة منكم فننقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدي مولانا حفظه الله ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة • اما اذا شئتم ان تشاهدوا اصناف الرقيق التي في هذه الدار فترون فيها ما لا يجتمع في سواها لاني لم اذخر وسعاً في استقدام احسن الرقيق الابيض والاصفر والاحمر والاسود من الجوارى والغلمان على اختلاف القدود واللغات والاسنان من المولد في العراق او الحجاز والمجلبوب من اقاصي بلاد الترك والروم وطبرستان وخراسان والسند والمغرب وفيهم الصقالي والصقالية والرومي والرومية والتركي والتركية والفارسي والفارسية والارمني والارمنية والسندي والسندية والبربري والبربرية • • • »

فقطع الفضل كلامه قائلاً « هل عندك من الجوارى المغنيات ؟ »
قال « كيف لا .. وقد تعلمن الغناء عند مغني مولانا امير المؤمنين نفسه وحفظن
الاشعار المطربة واتقن الضرب على آلات الطرب وفيهن العوادة والطنبورية حتى صاحبة
الدف والمزهر .. »

فضحك الفضل وقال « كأي بك تصف جوارى امير المؤمنين ... ولكن اظن
المغنيات اللواتي اشرت اليهن من الجوارى الصفر والسود ومولانا انما يريد مغنيات من
الجوارى البيض »

فقال « كل ما يطلبه مولاي هو عندي »
قال « ولكن اهل بغداد لم يعودوا تعلم الجوارى البيض الغناء فانهم انما يقتنونهن
للتسري كما لا يخفى عليك ولم اعرف احداً علم الغناء للبيض الا ابراهيم الموصلى مغني
امير المؤمنين .. »

قال « الم اقل لمولاي انه يوجد عندي كل ما يطلبه ؟ »

الفصل الثاني عشر

اصناف الرقيق

فحفظ الفضل للقيام فنهض المعلم فنحاس ونهض سائر الحاشية ومشي هو بين
ايديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار فتسارع الخدم الى الانزواء وفتحوا الطريق
للفضل فمشى والمعلم فنحاس يمشي بين يديه متأدباً وفي اثر الفضل رجال حاشيته . حتى اذا
قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الاولى من جهة اليمين وكان بابها مفتوحاً قليلاً ففتحه
فنحاس يده فرأى الفضل جماعة من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز اكبرهن
العاشرة من العمر وكلهن عاريات لا يكسو ابدانهن الا ما يستر العورة من الاطمار البالية .
وخشونة البداوة ظاهرة عليهن بارسال شعورهن ساذجة لم يمسهن المشط منذ خلقن . ولكنه
رأى الجمال الطبيعي يتجلى في اشراق وجوههن باليباض المشرب حمرة الدال على صحة
البدن . ناهيك بجمال العيون وفيهن شقراء الشعر زرقاء العينين وسوداء الشعر والعينين وما
بين ذلك . اما هن فخالما فتحت الباب ورأى الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين

وظهر الخوف في وجوههم • ولكن الحجره اضيق من ان تتسع لفرارهن فجعلن يتسترن
بعضهن وراء بعض وعيونهن شاخصات وبعضهن اخذن بالبكاء واستغثن بلغة لم يفهمها احد
من الوقوف • فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر الى فتحاس فابتدره هذا قائلاً
« لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من الوحشة فان معظم اللواتي في قصور الخليفة
وسائر الامراء من الجوارى الحسان والقيان المطربات كن في بادىء الراى مثل هؤلاء
وقد اتيت بكم الى هذه الحجره اولاً لاريكم حال الجوارى عند اول قدومهن لتعلموا كم
نقاسي في تربيتهن وتعليمهن حتى يذبح منهن الجارية التي تباع بألف دينار او عشرة آلاف
او عشرين الفاً »

فقال الفضل • بالحقيقة انه عمل شاق •• هل كانت فريده ومنة ودينار وام الخال
وغيرهن من الجوارى الفاتنات في مثل هذه الحشونة ؟

قال • نعم • ان اكثرهن مجلوب على هذه الصورة •

قال • من اين تأتي بهن •

قال • ان النخاسين يخترقون بلاد الترك والصقالبة والروم ويحملون المشاق
والاخطار حتى يأتونا بهن •

قال • وكيف يجدونهن هناك ؟

قال • يأخذون البعض بالفزو والبعض بالسرء من والديهن او بعض اقاربهن
بشمن بخس ويبيعونهن لنا باغلى الامنان •

فقال الفضل • اليس حراماً ان يفصل هؤلاء عن آبائهن ويحملن الى ديار الغربية
وهن صغيرات على هذه الصورة ؟

فضحك فتحاس وهو يحتمش بضحكه وقال • كلاً يا مولاي فان استرقاقهن من اكبر
اسباب سعادتهن لانهن ينتقلن به من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدنية والترف
وقد يبلغن من رخاء العيش ما لا يبلغه بنات الامراء وخصوصاً من كانت منهن جميلة الوجه
رخيمة الصوت وليس كل واحدة منهن تبلغ الى ذلك النعيم الا اللواتي ينجبن ويبرعن
فهؤلاء يبيعن بثمن غال ••• فربما نبغ واحدة من كل خمسين او ثمانين • فمن انجبت وكان
فيها ذكاه ولها صوت رخم علمناها الغناء وحفظناها الاشعار • ونعلم الباقيات بعض
الصنائع البيتية وغيرها على قدر الطاقة •• وسترى في ماتمره به من الغرف اصنافاً من
الجوارى على اختلاف الطباقات •••

فاستغرب الفضل ما سمعه واطهر الاكتفاء من رؤية تلك الحجرة وحول وجهه
فسبقه فنجاس الى الغرفة التالية وفتحها فرأى فيها بنيات سود البشرة جعد الشعور فطس
الانوف فعرف الفضل انهن من بنات الزنج وهن اقرب الى القذاراة والوحشية من اهل الحجرة
الأولى والسواد اقبح الالوان بتدرج اجتماعه مع الجمال . ولحظ فنجاس ان الفضل ميال الى
سرعة الانتقال من هناك فمشى امامه وهو يقول « هؤلاء صغار الزنوج يحملن الينا
النحاسون من اقامي السودان والغالب في اخذهن على سبيل السبي بلا ثمن ونحن نبتاعهن
بثمن بخس واكثرهن يتعلمن الخدمة التلثنة ويغلب ان نجعلهن في خدمة الجواري
البيض »

وقبل ان يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنجاس « وفي هذه الحجرة بنات من
البربر يحملن النحاسون من بادية افرريقية . واكثر هذا الصنف من الجواري ينقلن الى
بغداد بدلاً من الجزية كما لا يخفى على مولاي . وفي الغرفة التي تليها جوار صفر من بلاد
السند وفي التي بعدها جوار حر من بلاد الروم وفي الغرف الاخرى طبقات من اولئك
الجواري بين مرار ومواشط وحواضن وطباخت وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة
وفي بعض هذه الغرف طبقات من اصناف المالك البيض والسود قد تدرّبوا على الصنائع
المنزلية بين طاه وخباز وفراش وسائس . وفيهم من اتقن الادب وحفظ الشعر والعربية
ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود على اختلاف الاسنان »

الفصل الثالث عشر

الجواري المولدات

فرأى الفضل ان الفرجة على هذه الصورة يطول امرها فقال « أرنا امثلة من اغرب
ما عندك ودعنا من هذا التفصيل فان الوقت لا يساعدا على رؤية كل من في هذه الغرف »
فقال « هل تريد ان اريك الغلمان الصغار من البيض والسود فانهن في مثل ما رأيت »
قال « بل ارنا الجواري الصبيات »

فتجاوز فنجاس عدة غرف حتى وصل الى حجرة فتح بابها فاذا فيها فتيات بيض بين
الخامسة عشرة والعشرين من العمر وهن مع ذلك في حال السذاجة عليهن اكسية من

الاثواب البسيط، وشعورهن مرسله او مجدولة وفي آذانهن الاقراط وفي اعناقهن عقود من الخرز الملوّن وفيهن جمال النساء وحياواهن . ولما رأين الفضل ورجاله غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحراً وفي قامتها رشاقة وقدزادتها السداجة جمالاً وهيبة فوقت من نفسه موقعاً حسناً فنادها بالعربية فلم تفهم مراده ولكنها اركت انه يسادها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها وغطته بذراعها فاعجبه ذلك النفور فقال « اين ابو العتاهية او ابو نواس يصف لنا هذا المنظر بيت من الشعر »

فتذكر فحس ابا العتاهية والتفت وهو يتوقع ان يراه الى جانبه فلم يجده واوشك ان ينطق باسمه لولم يتذكر نكته فتجاهل وقال « صدق مولاي باعجابه فان هذه الجارية من طبرستان اشتريتها في جملة جوارى من نوعها وليس فيهن اجمل منها . ولكنك ستري ما هو اعجب من ذلك . فكيف لو رأيت الجوارى المولدات من البصريات والكوفيات ذوات اللسان العذبة والقُدود المهيفه والاقساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة وحسن زيهن وزينتهن وفيهن الطويلة البيضاء والسمراء العساء والصفراء العجزاء وبينهن من اذا صببت عليها جرة ماء وهي قائمة فلا يصب ظاهراً نخديها شي لعظم عجزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت طلحة التي كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان »

فضحك الفضل لمهارة فحس في وصف جمال النساء مع ما يظهر من شيخوخته وقال له

« اراك ماهراً في وصف الحسان يا معلم فحس »

فأجابه على الفور ويده على لحيته « واين قضيت هذه الشيبة يا مولاي ؟ »

فقال الفضل « اذهب بنا الى الجوارى المولدات »

فاشار اشارة الطاعة وتحول الى الجانب الآخر من الفناء فتبعه الفضل ورجاله وفحس يقول « يظهر انكم تعبتن من الوقوف فها انا ذاهب بكم الى الجوارى المغنيات اللواتي قد حفظن الاشعار والقنّ الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » حتى وصل بهم الى غرفة ففتح بابها ووسع للفضل مدخلها فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفي بعض جوانبها ثلاث من الجوارى البيض جالسات وقد ناحت رأحة المسك منهن . على احداهن ملحفة معصرة فوق غلالة حمراء وعلى رأسها عصابة مزركشة وقد ارخت تحت العصابة سالفين علقت في طرف كل سالفة باقوتة حمراء وارخت شعرها كأنه الليل وتجزت بالعود وتعطرت بالمسك وكانت مقدّمة على صاحبيتها لانها اجملهن خلقة على ان صاحبيتها كأننا في مثل هياتها من حيث اللباس ولكنها تفضلها بجمالها ورشاقة قدّها .

وكانت عيناها سوداوين كأنهما مكحولتان ولونها ابيض صاف صفاء البلور وفي عنقها عقد من العتيق . وكانت جالسة بين رفيقتها على وسادة فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلاً « قومي يا قرنفة وقبلي يد مولانا الفضل بن الربيع » وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاد الخليفة فتميزت للوقوف وطال تحننهما لنقل اوراكنها على حد قول الشاعر :

فقيامها مثني اذا نهضت من ثقله وقعودها فرد

ثم نهضت ومشت وهي تتأبل وسراويلها تنثني فوق قدميها . حتى اذا دنت من الفضل ابن الربيع هتت له وابتمت ابتسام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيل يده فمد يدها . والتفت الى فنحاس لفتة الاستحسان فقال فنحاس « خاطبها يا مولاي فانها فصيحة اللسان » فخيأها الفضل فاجابت بافصح عبارة فادرك من لهجتها انها بصرية ولكنها تختلف عن اهل البصرة اهلها بلون الوجه وسائر الملائع فنظر الى فنحاس وقال له « العلى هذه الجارية من اهل البصرة ؟ »

قال « كلا ولكنها ربيت في البصرة منذ طفوليتها واصلها من بلاد الكرج وقد ابنتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي شاهدتهن في الحجرة الاولى فانت فيها ذكوة وجمالا فارسلتها الى عميل لي في البصرة علما العربية والقرآن وحفظها الاشعار . ولما عادت الي اعجبني منطقتها ورخيم صوتها ورأيت ما علمته من رغبة رجال الدولة في الاقتداء بامير المؤمنين بتعليم الجواري البيض الغناء فرغبت الى الموصل مغني الخليفة في تعليمها فلم يقبل الا بعد ان بذت له المال الكثير وصرت ابعتها اليه كل صباح تاخذ عنه صوتا بعد صوت حتى انقثت هذه الصناعة واصبحت نادرة بين جواري بغداد لا يوجد نظيرها ولا في بلاد الخليفة »

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال تلك الجارية وكانت قد تشاغل عن سماع اطراب فنحاس بانزال عود كان معلقا على الحائط فانحسر كسها عن يدها فبان غضاضة زندها وعليه الاساور والدمالج وبان الخضاب في كفها ورأى قرطيا يلعبان في اذنيها . فلما فرغ فنحاس من اطرابه قال له الفضل « قلت انها تحفظ الشعر والعربية »

قال « اسألها ما شئت واسمع حديثها او انظر الى عصابها واقرأ ما زركشته عليها » فنقدم الفضل ونظر في العصابة فرأى عليها بيتا من الشعر بمحروف من الذهب وهو :

ليس حسن الخضاب زينا لكفي حسن كفي زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول « ما اجمل هذه العصاب لله در

مختزعتها . . . »

قال « اظنك تعني مولاتنا عليّة اخت الرشيد . . . فانها بالحقيقة قد أوجدت للحسان سبباً كبيراً من اسباب الجمال »

قال الفضل « هل تعلم السبب الذي من اجله اتخذت هذه العصائب ؟ »
قال « كلا يا مولاي »

قال « انا اخبرك عن السبب . ان في جبين عليّة فضل سعة حتى تسمح به فارادت اخفاء ذلك العيب فاتخذت العصائب المكحلة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت والله شيئاً ما رأيت في ما ابتدعته النساء اجمل منه » (١)

فتمحقق فنحاس ان الفضل سيشتري هذه الجارية لانخاله فأراد ان يرغبه في الاخرين فاشار الى احدها اشارة فهمتها فانزوت في بعض جوانب الغرفة والتفتت الى امرأة مياقة بالخائط بحيث لا يظهر وجهها لأحد وكان الفضل مشغولاً عن ذلك بمراقبة الجارية الأولى وهي نذاهي باصلاح العود . فلما علم فنحاس ان الجارية الثانية اتمت وصيته التفت الى الفضل وقال « وانظر الى ما على وجه هذه . . . لقد صبي باسوسنة » و اشار اليها فأنت تنهادي بمشيتها وثوبها الارجواني يتوج بلعانه

ففرس الفضل في وجهها فرآها قد كتبت على خدها بالمسك « الفضل بن الربيع »
فافتتن الفضل بذلك ورغب في هذه الجارية ايضاً

فأدركت الثالثة رأيه وخافت ان تبقى وحدها وهي تعدّ ذهابها مع الفضل فباحاً كبيراً لا تطمع باحسن منه فانزوت جانباً ويدها تفاحة عالجتها سرّاً ثم عادت حتى اقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له وتناولها واذا عليها بيت شعر مكتوب بالغالية وهو :

اقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهر
فادرك الفضل انها تشير الى ما يقوله ناظم هذا البيت (ابو دهبيل الجمحي) بعده :

يا ليت اني باثواني وراحتني عبدك لاهلك هذا الشهر مؤتجر
ان كان ذا قدرًا يعطيك نافلة منا ويحرمنا ما انصف القدر

فكانها تعرض برغبتها في الذهاب مع رفيقتها فاستحسن الفضل فطانتها وعزم على ابتياع الجميع وكان في عزمه سماع غنائهن قبل البيع ولكنه خاف التأخير ولم يكن ميالاً للهو والقصف وانما طامع الامين لغرض له في سياسة الدولة — فعزم على المسير لوفقه »

الفصل الرابع عشر

المساومة

فتحول عن الغرفة وتبعه رجاله وفتحاس بين ايديهم وهو يقول « اذا شاء مولاي اربته اصنافاً اخر من الجوارى البيض والسمر والحمر والسود ولكنه رأى احسن ما عندي » قال ذلك ترغيباً له بما وقع اختياره عليه . وسار بين ايديهم حتى ادخلهم غرفة الاستقبال فجلسوا فأمر فتحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل انه لا يرى في الوقت سعة لذلك والتفت الى فتحاس وقال « بكم تباع هذه الجوارى الثلاث ؟ »

فوقف فتحاس وقفة الاحترام وقال « وهل على ولي العهد شرط او مساومة فان الجوارى جواريه ونحن كلنا عبيده سواء دفع لنا مالا ام لم يدفع . . . » فلم يجهد الفضل احتيال فتحاس في ذلك فقال « نحن كلنا صنيعة ولي العهد ولكن البيع والشراء حق واجب »

قال « لا بأس من البيع ولكنني استحي ان اعين ثمناً فافرض ما تراه »
قال الفضل « ذلك اليك فاطلب ما تريده »

قال « ولكن منلك يعرف قيم الاشياء ومولانا ولي العهد كريم اذا اعجبه امر لا يبالي بما يدفعه . . . ونحن نقبل منه ان يدفع كما يدفع مولانا امير المؤمنين . . . » قال ذلك وابتم كأنه يظهر المزاح او يخلط بين الجد والمزح فقال الفضل « وكم يدفع يا امير المؤمنين ؟ »

قال « لم يدفع ثمن الجارية ١٠٠,٠٠٠ دينار^(١) وهل تلك الجارية احسن من قرنفلة او سوسنة ؟ » وضحك

فضحك الفضل حتى استلقى وقال « الا تدري ما ترتب على ذلك السخاء . . . ألا تعلم انه فعل ذلك في اول حكمه ولما امر وزيره يحيى بن خالد ان يدفع هذا المال اعتذر عن دفعه فغضب امير المؤمنين فاراد يحيى ان يبين ما يتحمله بيت المال في هذا السبيل فجعل المال دراهم فبلغت ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم فعرضها في الرواق الذي يمر به الخليفة اذا

اراد الرضوه فلما رأى ذلك المال استكثره وعلم انه امرف ٠٠
فقال فنحاس « فاذا لم يشأ مولانا ولي العهد ان يدفع كما دفع ابوه فليدفع كما دفع
وزيرايه ٠٠ »

فعلم الفضل انه يشير الى جعفر البرمكي عدوه فتذكر ما بينهما من المنافسة ولكنه
تجاهل ولم يبد في وجهه تأثر وقال « ما الذي دفعه ؟ »

قال « الم يدفع ثمن الجارية ٤٠,٠٠٠ دينار^(١) وهل يلقى بولي العهد ان يدفع
اقل من ذلك ؟ وفي كل حال اني مرسل الجوارى الى قصر ولي العهد والذي
يدفعه مقبول »

فاستاء الفضل من هذه المساومة وشق عليه ان يجعل الامين اقل سخاء من عدوه
والناس يومئذ يكتسبون الاحزاب السياسية بالسخاء وكان فنحاس عالماً بتلك المنافسة مطالعاً
على دخائل الجميع ولم يقل ما قاله الا وهو يعلم ان الفضل لا يراجمه حفظاً لكرامة مولاه
الامين لعلمه انه يرى من حسن السياسة ان يحفظ منزلته بين رجال الدولة حتى لا يجدوا
عليه ما يحقره في اعينهم وخصوصاً في تلك الحال . فنجح فنحاس في رأيه لان الفضل أراد
ان يظهر فضل الامين فقال « لو كان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التي ابتاعها الوزير
لحق لك هذا الطلب ومع ذلك فاني سأجعل ثمن الجوارى الثلاث معاً ١٠٠,٠٠٠ دينار »
فقال فنحاس وهو يظهر الزهد في الكسب « كل ما يدفعه مولانا كرم منه فاننا وما نملك
من بعض صنائعه »

ولم يجهل الفضل تملق ذلك اليهودي ولكنه جراه وقال « بارك الله فيك ٠٠ فارسل
الجوارى الى قصر مولانا مع من تعتمده لقبض المال ٠٠ »

قال « سأرسلهن حالاً وليس قبض المال مما يستعجل اليه ٠٠ » فلما قال ذلك تحفز
الفضل للوقوف فسبقه رفاقه الى النهوض واسرع احداهم الى الخدم في فناء الدار فاشار اليهم
ان يسرعوا في اعداد الركائب واشتغل الفضل في تجاوبة فنحاس على عبارات المجاملة
والاطراء وهو في اثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته اخفاء لما جاء من اجله

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١

الفصل الخامس عشر

القبض على ابي العتاهية

ولم يكد الفضل بفرغ من ذلك ويخرج الى باب البيت حتى سمع جلبة ثم رأى جماعة من الرجال يتعاركون وعليهم اردية تغطي اثارهم كأنهم متنكرون ولكنه عرف من قلائسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها انهم من جند الدولة — وأول من ألبس الجند هذا الزي ابو جعفر المنصور^(١) ولكن الفضل استغرب تنكرهم بالاردية فوق اثارهم على انه مالبث ان سمع صوتاً ينادي « ابي من رجال الفضل بن الربيع اتركوني وشأني »

فلما سمع الفضل اسمه تقدم فوسع له اصحابه حتى خرج من الباب وأشرف على الزقاق فرأى جماعة من اصحاب القلائس متكاً كثرين على رجل يوثقونه وهو يحاول التملص من بين ايديهم وحالماً وقع بصره عليه عرف انه ابو العتاهية فاستغرب وقوعه في تلك الورطة ونظر بيناً وشمالاً فرأى في بعض جوانب الزقاق امرأة ملثمة تشير اليهم ان يوثقوا الرجل ولما رآته بالغت في التنكر والتستر والرجال يعالجون ابا العتاهية بالوثاق وهو يهددهم بانه من رجال الفضل وهم يقولون « مالنا وللفضل فما عليك الا ان تجيب الخليفة » ووقعت عين الفضل على عين ابي العتاهية فرآه يشير اليه ويستجده وفي استجاده معنى توقع منه خيراً

فصاح الفضل بهم « اتركوا الرجل . . من الذي امركم بالقبض عليه ؟ . . »

فأجابوه وهم مشتغلون بشد الوثاق « انه طلبه امير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه

فقال لهم « ومن يتبشنا ان امير المؤمنين يطلبه وما شأنكم في ذلك ؟ »

فقدم احداهم اليه وهو عريفيهم ونظر الى الفضل فتوسم من بزمته انه من كبار اهل بغداد ولكنه انكر تلثمه وقال « اتنا من جند امير المؤمنين وقد امرنا بالقبض على هذا الرجل »

قال « لا اراكم من الجند وليس عليكم شارة الدولة »

فابتسم الرجل مظهر الاستخفاف بذلك الانكار وخلع الرداء عنه وادار ظهره ليقرئه ما هو مطرز بين كتفيه فقرأ « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » ثم اشار العريف

الى خصره فرأى سيفه معلقاً بمنطقته

فضحك الفضل وقال « هذه ثياب قديمة من ابام المنصور لانه هو الذي أمر رجاله بكتابة هذه العبارة ^(١) على اثوابهم وبتعليق السيوف بمناطقهم فلا يبعد انكم ابتعتم هذه الاثواب من بعض الوارثين لتتخلوا الجندي والافأين اسم امير المؤمنين الرشيد ؟ »
فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على اعلى الكتف اسم الرشيد مطرزاً بالقصب « هرون ابن المهدي امير المؤمنين » ثم تحول العريف عن الفضل وهو بهزراًسه وتوجه نحو رجاله وهم لا يزالون يعالجون ابا العتاهية واخذ يستخفهم على الاسراع في شد الوثاق وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون امره لانقاذ ابي العتاهية ولم يشاؤا الاقدام على ذلك الا باشارته مخافة ان يكون قاصداً التنكر لغرض في نفسه

اما هو فلما رأى استخفاف العريف به ناداه بصوت هادي يمازجه التهديد قائلاً
« ولكنه يقول لكم انه من رجال الفضل بن الربيع »
قال « ومن يثبتنا بصدق قوله ؟ وهب انه صادق فنحن مأمورون بالقبض عليه » قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه فصاح به الفضل « انا اقول لك ايضاً انه من رجال الفضل فاتركوه »

فلما سمعه يخاطبه بهذه اللمجة تحول نحوه وقرس في وجهه من وراء اللثام ثم التفت نحو المرأة التي كانت واقفة هناك فراها نسل من بين الجماهير فعلم انها تطلب الفرار واستدل من فرارها ان الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم على انه لم يكثرث بقوله وعاد الى رجاله وصاح فيهم « اوثقوه حالاً »

وكان فحاس في اول الامر واقفاً بجانب الفضل فساءه ما وقع في بيته من القبض على ابي العتاهية ولم يفهم السبب وحدثته نفسه ان يتقدم لاتقاذه وهو قادر على ذلك لكثرة من في داره من الرجال ثم تذكر ما وعده به من الاجتزاء من ثمن الجوارى فتوسم بالقبض عليه باباً للتخلص من ذلك الاجتزاء . على ان حيان مالبث ان جاءه وامر اليه ما كان في الامس وما اوصته به الجارية من الاحتفاظ به ريثما تأتي وان سيدتها من اهل امير المؤمنين فاطماً ففحاس وصم على السكوت ودخل الى داره بتشاغل بما لا طائل تحته اما الفضل فلما سمع تهديد العريف تقدم خطوتين بقدم ثابتة وهو يقول للرجل « لا لا ينبغي ان توثقوه حتى نعرف ما هو ذنبه . . . والا فانتم تحملون تبعه هذا العمل عند

امير المؤمنين «

فالتفت العريف نحو الفضل وهو يقول « ومن انت حتى تهددنا بأمر المؤمنين ؟ امض
لشأنك . »

فلما سمع رجال الفضل ما في تلك العبارة من الاستخفاف كادوا يهيمون بالرجل او
يصرحون له بالحقيقة ولكنهم تركوا ذلك للفضل وليشوا يتوقعون امره . اما هو فما زال
يرابط الجأش وما زاد على انه اشار الى رجاله ان يخلصوا ابا العتاهية فهجموا وكانوا اشداء
واكثرهم من القواد فعلت الضوضاء وهم الجند تجريد السيوف فصاح الفضل فيهم « لا حاجة
بكم الى السيوف اتركوا الرجل واذا سئلتم عنه فقولوا ان الفضل بن الربيع اخذه منكم فاذا كان
لامير المؤمنين او سواء حاجة به فليطلبه مني »

فلما سمعوا ذلك التصريح بغتوا وتوقفوا عن الحركة وجاء العريف الى الفضل وقال له
بغير لحن الاستخفاف « ان الرجل طلبه امير المؤمنين فكيف تتركه بعد ان قبضنا عليه
وماذا نجيب اذا سئلتنا عنه ؟ »

قال « قل لطلبه انه عندي . . قل انه عند الفضل بن الربيع او عند ولي العهد
كما تشاؤون » قال ذلك وبده على اللثام بهم بازاحتهم

فلم يبق عند العريف شك انه بين يدي الفضل ولكنه نظر الى من حوله من الرجال
فسمع احدهم يقول له « همسا » انك تخاطب وزيرا كبيرا . . هذا هو الفضل بعينه . »

فقدم العريف نحوه وهو بتأدب في مشيته وقال « لماذا لم يقل مولانا ذلك من
بادي الرأي فنحن صادعون بأمره » ثم اشار الى رجاله فخلوا ابا العتاهية وتحولوا
فانحاز ابو العتاهية الى رجال الفضل وقد وقعت عمامته عن رأسه وانتفش شعره فظهر قبح
منظره وجاؤا به الى الفضل فتواقع على قدميه وحاول ثقبيل طرف ثوبه فانفضه الفضل
وهو يقول « ما الذي اوقعك هذه الوقعة وانت الشاعر الزاهد . . ؟ » وضحك وهو يحسب
سبب القبض عليه مما يخالف اسباب الزهد

فقال « ان السبب يامولاي سا قصه عليك وهو بهمك »

فاشار اليه ان يسير معهم وامر رجاله بالركوب بعد ان قدموا له فرسه فركب وركبوا في
اتره قاصدين قصر الامين

الفصل السادس عشر

الصولجان والكرة

اما العريف ورجاله فاتهم عادوا الى قصر العباسة وكانت قد ارسلتهم للقبض على ابي العتاهية بمشورة عتبة — وذلك انهما لما رجعا الى القصر في اواخر الليل كما تقدم ظلّ خاطر عتبة مشتغلاً بما علمته من امر ابي العتاهية وقد ترجح في ذهنها اطلاعه على سرّ مولاتها . فلما وصلنا الى القصر دخلت العباسة الى غرفها تلتبس الرقاد واستولى القلق على عتبة فلم تنالك عن الدخول عليها باكراً والتصریح لها بما لاحظته و اشارت بالقبض على ابي العتاهية سريعاً لسلاً يوح بالسر . فاعظمت العباسة الخبر وخافت ولم تر حيلة للنجاة الا بالقبض عليه واخفاء خبره ريثما تتدبر في امرها . فتقدمت الى عتبة ان تنفذ شردمة من الجند ممن كانوا في خدمة قصرها ليقبضوا عليه بامر الخليفة . فذهبت عتبة معهم حتى اذا وصلوا الى دار فحاس كان الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان ابو العتاهية عازماً على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك مخافة ان يلاحظ تواطؤه مع فحاس ولم يحظر له انه مطلوب . وشعر حيان بذلك واخذ يشاغله بالحديث ونحوه ريثما يعود سيده من دار الرقيق ليطلعه على وصية عتبة . فلما احسّ ابو العتاهية بقرب خروج الفضل اسرع في الذهاب وكان العريف قد جاء بجنده فاشار حيان اليهم ان يقبضوا عليه فهموا به ورأى ابو العتاهية عتبة قادرك غرضهم فاخذ يطاولهم حتى أتى الفضل فوجدهم على تلك الحال فاتقده منهم فعاد العريف الى العباسة وكانت عتبة قد سبقته الى هناك واخبرت مولاتها بتعرض الفضل لهم . فلما عاد العريف وأبأها بما كان من نجاة ابي العتاهية على تلك الصورة عظم الامر عليها وتحققت ان سرّها لا يلبث ان يتصل بالفضل فاخذت تندب نفسها . وخذلت بعتبة وشاورتها في الامر فقالت لها « لم يبق لنا حيلة يا مولائي الا باستنجاد مولاي الوزير » .

قالت « وكيف نبلاغه الخبر وهو اليوم مع اخي في الميدان يلعبون بالكرة والصولجان » وكان ذلك يوم موعد تلك الالعاب على جاري العادة في الميدان بقرب قصر الخلد

قالت « لا بد من ذلك .. واذا شئت فاني اتولى نقل الخبر اليه »
فانفت عليها وقالت « تدبري بالامر كما تشائين فاني لا اعي شيئاً »
قالت « هل ادعوه اليك الى هنا ؟ »

قالت « افعلي ما ترين لاني اخاف انكشاف امرنا قبل تدبير الحيلة للنجاة .. »
قالت « لك علي ذلك باذن الله » وهمت بالخروج فنادت بها العباسة وقالت « خذي اليه
هذه البطاقة » وكتبت اليه بطاقة قالت فيها « ادركني في اول لحظة تتفرغ فيها لانقاذنا
من مخالب الاعداء » ودفعت البطاقة اليها نخبأتها بين اثنائها وخرجت للحال الى غرفتها
وترتبت بزى رسول قادم من خراسان وتلثمت لثام السفر وركبت فرساً واسرعت نحو
الميدان وكان قصر العباسة على مقربة منه

فوصلت الميدان والشمس قد مالت عن خط الهاجرة فرأت تلك الساحة غاصة برجال
الدولة على خيولهم في ساحة كبيرة قد احاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة
على اعمدة وقام الجند حول السور بالاسلحة يمنعون الناس من الدخول . فوقفت بجوادها
بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق موقف جعفر ثم تسعى في الوصول اليه . فرأت في
بعض جوانب الساحة فسطاطاً كبيراً خرج منه الرشيد على فرسه وقد اعتم بعمامة خفيفة
خاصة باللعب ويده صولجان هو عبارة عن عصا طويلة طرفها اعقف ورجال الدولة على
افراسهم متأهبين للعب وفي ايديهم الصوالة وقد اصطفوا صفيين احدهما مع الرشيد .
ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهورة بيده ثم التقف بها الكرة من الارض
وارسلها في الهواء فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجتهم واخذوا يستحثون افراسهم
وراءها . وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس ادهم وعليه دراعة تمتطق فوقها بمنطقة
عريضة من الخبز وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن احد غيره
يجسر على الدنو من الخليفة واما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان
مسايرة للخليفة ولا يجسرون على مسابقتة مخافة ان يغلبه احد منهم والمجاملة تقضي بان
يكون هو الغالب الا جعفر فقد كان يسابق الرشيد في الكرة ويلاعبها والرشيد يجامله
فاذا اخطأها ضحك وصاح بجعفر ومازحه وجعفر يتعاجز عن غلبه

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب ورأسه من الذهب الخالص
وصولجان جعفر من الخيزران بلا تطويق وكراتهم كتل من مشاقفة الحرير معبأة في
اكياس من الحرير المتين وقد شدت باطواق من الاوتار المرنة . فلا يلبث الفارس ان

يلتقف الكرة من الارض بطرف صولجانها الاعقف حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون
افراسهم في اترها وعيونهم شائعة نحوها وصوالجتهم مشرعة في ايديهم يبغون ملاقاتها
وافراسهم قد حاجها الاستكداد حتى تصيب العرق عنها واحتلط الزبد المتحلب من
افواها بما أزيد من العرق المتقطر من اعناقها وصدورها وهي لا تشكو تعباً لانهم أعدوها
لمثل ذلك اليوم وكان الرشيد شديد الولع بهذه اللعبة ^(١) ورجال الدولة يتقربون اليه
باتقانها والعب بين يديه بها

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قاق على اثر مشاهدته ولديه اذ جاء بهما اليه
رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس فقباهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة فثارت
عواطفه واصابه ما اصاب امهما تلك الليلة من استيقاظ الخنو الابوي على ولدين كأنهما
الفرقدان مع ما ذكرناه من جاهلما ولطفهما وقد قضت ارادة الخليفة بابعادهما عن حجر
والديهما خوفاً من الموت

فبات جعفر تلك الليلة وهو يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين
جنبها من عوامل الخنو يخالطها خوف الفراق ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس
والمخاوف . فمعظم عليه الامر وهجره النوم وقد كان على موعد الذهاب الى الميدان للاعبة
الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته وهو يظهر الارتياح
لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة . على انه كان مطمئن الخاطر من قبيل الرشيد
واتقياً بحسن ظنه به لا يخاف حسد الحاسدين ولا وشاية الواشين . وقد فاته ما يجول في
خاطر الرشيد من امره وما يدسه الوشاة اليه ويهيجون نغمته عليه بما يرضون به من اتساع
حال البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الاموال مما لم يكن عند الرشيد مثله .
فضلاً عن استبداد جعفر بشؤون الدولة . على انهم لم يكونوا يؤانسون من الرشيد
اصفاة ولم يسمعوا منه غير اطرائه والتناء عليه وقد اطلق يده في اموره العامة والخاصة
حتى اباح له الدخول على دوره بلا استئذان وسلم اليه خزائن بيت المال واطلق يد ابيه يحيى
في دوره وقصوره وجعل النظر فيها وفي حريمه اليه حتى كان يفتق ابواب القصر وينصرف
بالمفاتيح ^(٢) . ولم يكن الرشيد بصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك الى ما تقدم من
عقدة له على اخته العباسة بحيث يحل له انظر اليها فلا يخلو مجلسه منهما فافضى ذلك الى
الى ما علمته من زواجهما سرّاً

على ان جعفر لم يكن يعدّ زواجه بالعباسة الاً شرعياً وانما عمد الى التستر خوفاً من غضب الرشيد ولم يخطر له انكشاف ذلك السر لاحد وكان اقبال الزمان غره فاعمى بصيرته عمّن يمدق به من الحاسدين • ولعل له عذراً على غروره بما كان يعاينه من نزاهتهم اليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه • ولا نظنه كان غافلاً الى هذا الحد ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد له واجلال مقامه وما كان يبديه من اكرامه والرجوع بالامور اليه

الفصل السابع عشر

قصر العباسة

اما عتبة فجعات تنفوس باللاعين حتى عرفت مكان جعفر وهو بعيد عنها ودون الوصول اليه رجال وجبال فوقفت وهي تعمل فكرتها في طريقة لا يصل البطاقة اليه بغير ان يشعر بها احد • فوقع بصرها وهي في تلك الحيرة على رجل من غلمان جعفر كان يأتي قصر العباسة ببعض المهام الخصوصية ولها به ثقة فاستغفلت رفاقه و اشارت اليه فجاء نحوها على انفراد فنادته « حمدان » وكان حمدان هذا من اقدم غلمان جعفر نشأ في منزل ابيه يحيى منذ طفولته وقد ربي جعفر على ذراعيه وكان يحبه حباً يقرب من العبادة وقد بلغ التحسين من عمره ولا يزال نشيطاً وهو فارسي الاصل خراساني الموطن وكان مقدماً عند جعفر يدخل عليه متى شاء ويعامله جعفر معاملة الاقرباء — فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وادرك انها متكررة لغرض هام فقال لها « ما وراك ؟ »

قالت « جئت برسالة الى الوزير فكيف اوصلها اليه ؟ »

قال « انهم لا يلبثون ان يفرغوا من اللعب ويعود الوزير الى فسطاطه للراحة فيهون اذاركه • • اعطني الرسالة فاوصلها اليه »

فسرت عتبة لذلك ودفعت اليه البطاقة نجباًها في ثيابه وقال لها « اذهبي واطمئني فاني موصلها اليه حالا »

فمادت عتبة الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد فرغ صبرها فقضت عليها ما كان

وجلسنا على مثل الجمر تنتظران محبي جعفر

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد) وكان لقصر العباسة شرفة مطلة على دجلة وأخرى تطل على طريق يؤدي إلى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبة تجلست العباسة في هذه الشرفة واطلت من وراء حجاب فلم تر في الطريق أحداً . وطال انتظارها وعيناها شاخصتان نحو الأفق إذا رأته شجعاً ظننته وزير أخيهما أو هو حبيبها وزوجها ونحط آمالها . حتى إذا مالت الشمس إلى المغرب واستطالت اظلال المآذن على اسطحة قصور بغداد وعلت اصوات المؤذنين انزعجت العباسة لصوت الاذان على غير المعتاد لأنها كانت تستانس به وتطرب لسماعه اما الآن فقد أزعجها انه أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام بينها وبين الأفق . وكانت عتبة واقفة إلى جانبها لا تقل قلقاً عنها فلما سمعت اصوات المؤذنين ولحقت تدمر مولاتها ابتدرتها قائلة « اخننه تأخر إلى الليل عنوة »

قالت « ولماذا ؟ »

قالت « حتى يأتيك خلصة فلا يشعر به أمير المؤمنين او غيره »

قالت « واي متى كان اخي يراقب ذهابه وتجيئه وهو غير متهم عنده ومفاتيح القصور في يديه . . . ولكنني اخاف ان يكون لتاخره سبب مزعج وقد اصيحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بانع الجزار تلى سرنا اعدت حياتي في خطر . . » قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت عتبة « لا يزعجك هذا الهم بامولاتي فاني لست تلى يقين من اطلاع ابي العتاهية على سرنا وانما اتهمته فاحببت القبض عليه من باب الاحتياط وهي انه اطلع هو عليه فهل يجسر ان يذكره لامير المؤمنين ؟ »

فلما تصورت العباسة ذلك اقشعر بدننها خوفاً من غضب اخيها لعلها انه اذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه . . . وهي تعلم ايضاً انه ما من احد يجسر على ذكر شيء من ذلك بين يديه ولكنها قالت « اذا كنت لا اخاف ان ينطق ابو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي اخي الا اخاف ان يروح به لحساد جعفر فيخذلونه وسيلة للابقاع به . . على اني لا اخاف احداً خوفي من تلك المرأة . . »

فادركت عتبة انها تشير إلى زبيدة امرأة اخيها لعلها بما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة وبنت حماتها لا سيما وان الرشيد كان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر على

بعدها وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمي لانها حفيذة المنصور وابنة عم الرشيد . وكان الرشيد يحبها ايضاً ويحترمها ولا يرد لها طلباً فلم يرضها ذلك حتى غارت من حبه اخته . ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد اسباب غيرتها وخصوصاً بعد ان علمت بما بين العباسية وجعفر من تبادل العلائق . فلم يكن ذلك كله يحنى على عتبة بل كانت هي اعلم به من مولاتها لان « الخبر يصل الى اذن صاحبه ويقف » ولا سيما في ذلك العصر والناس ينقربون الى اهل المراتب بالاطراء والارضاء ويحتنون ابلاغهم ما يسوهم ذكره . وربما ارتكب المرء جنابة ظن نفسه مبالغاً في كتمانها والناس يتحدثون بها في مجالسهم وانديتهم وهو يحسبهم غافلين ولا يحسر احد منهم ان يطلعه على ذلك . فلما سمعت عتبة نصريح العباسية بخوفها من زبيدة قالت « لا ارى مسوغاً لما تخوفين منه الآن »

قالت « وكيف لا ترين مسوغاً وانت تعلمين بما في نفس زبيدة مني فكيف اذا اطلمت تلى هذا السر ؟ »

فابتسمت عتبة وقالت « هل تظنين زبيدة لم تعلم ذلك الى الآن ؟ »

فاجفلت العباسية وقالت « وهل علمت ؟ ومن اطلمها عليه ؟ »

قالت « انت عاقلة حكيمة ومثلك لا تاخذ ظواهر الامور . . . كيف يختر لك ان يبقى هذا الامر مكتوماً عن الناس ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب ولا حساب ؟ . . »

فقطعت العباسية كلامها وقالت « وهل اهل القصر يعلمون ذلك ايضاً ؟ »

تخافت عتبة على مولاتها فقالت « كلاً ولكنني اظن زبيدة علمت به لما تعلمينه من تجسسها بواسطة الجوارى والاعوان لما يهيمها من امرك . على ان اطلعها على ذلك لا يقضي ان تبوح به لزوجها فان امير المؤمنين لا يحسر احد ان يذكر له شيئاً مثل هذا ان لم يكن خوفاً منه تخوفاً من سيدي الوزير وهو صاحب العقد والحل في الدولة فمن يحسر ان يتعرض لغضبه ؟ »

وكان الظلام قد تكاثف وهما جالستان في تلك الشرفة على العتمة وسائر القصر مشتع بالانوار والشموع واهله لاهون عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنه ضميرها ولم يكن احد ممن في قصرها من الجوارى والخصيان وغيرهم يجالسها او يعلم ما في قلبها الا عتبة لانها صحبتها من طفوليتها وهي في قصر ابيها المهدي ووثقت بها . وكانت العباسية

تباحث عتبة في ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان عن الافق وان كان مظلماً . على ان بصرها كان يتحول رغم ارادتها الى الانوار المتألقة في قصر الخلد الى يمينها ودار القرار الى يسارها وفي كل منها رقيب تخافه . فلما استبطأت جعفر اشتغل خاطرها وتحفرت النهوض وهي تقول « هلم بنا الى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك . . » واذا هما يجنق نعال في الدهليز المؤدي الى ذلك المكان فلما سمعت العباسة ذلك الصوت خفت قلبها لانه يشبه وقع خطوات جعفر فامرعت وهي تقول « اظنه جاء » فمشت عتبة بين يديها وقالت لها « اذهبي يا مولاتي الى غرفتك البعيدة حتى آتي به اليك فلا يكون عليك رقيب . . . ولا انا » فاطاعتها العباسة وتحوت الى تلك الغرفة . اما عتبة فاقبلت على الدهليز وفي جدرانها الشموع فرأت جعفر داخلاً وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة وهما لباس العباسيين الرسمي فنقدمت اليه وقبلت يده فابتدرها قائلاً « اين مولاتك ؟ » قال « هي في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات »

فمشى وحده ومشت عتبة في اثره ريثما يصل الى باب الغرفة فتساعده على خلع نعاله ثم تعود الى مكان بعيد على جاري العادة . وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره وهو طلق المحيا ظاهر البشر جميل الطلعة ربع القامة كستنائي لون الشعر خفيف اللحية والشاربين لم يخالط شعره الشيب الا قليلاً . وفي ميسمه حلاوة وفي عينيه ذكاء وكان قد ارسل القلنسوة الى الوراء فبان يياض جبينه وظهرت على محياة امارات الاهتمام — ومن كان دقيق الشعور قوي العاطفة ظهرت عواطفه في وجهه فلا يقوى على الكظم ولا يبصر على الضيم وهذا الفرق راجع الى طبيعة الامزجة ففي الناس حاد المزاج سريع الغضب وطويل الناة واسع الصدر وما بين ذلك درجات كثيرة اما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على المتأمل خلافاً للفضل بن الربيع كما تقدم

الفصل الثامن عشر

المقابلة

وكانت العباسة واقفة في غرفتها وركبتها ترتعدان من شدة التأثير تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء وكانت تلك الغرفة على سمعها وبما فيها من اسباب الزينة

من المنائر المنصوبة والصور المعالقة والطنافس المفروشة أضيقت في عينها من صندوق صغير
ورأت الانظار تلك الاحظة اطول من انتظارها معظم ذلك النهار . ثم ما لبثت ان سمعت
خفق نعاله بالباب وسمعت حركة خلج النعال وكانت عتبة تساعد على ذلك فلما دخلها
وضمتها على رقبته معدت لمنها هناك وعادت

اما العباسة فتقدمت نحوه وهي في ثوب بسيط تعودت ان تلبسه عند مقابله وكان
شعرها محلولاً وقد ضفرته صغيرة واحدة جمعها في اعلى رأسها بدبوس مرصع واتممت
فوق الرداء بمطرف من الحرير المزركش بأشعار طرزت على حواسيه بالقصب . وقد رسم
القلق في اسرتها عبوساً زادها هيبه وجمالاً . ولم تنالك عند وقوع نظرها على جعفر عن
الابتسام وقد نسبت ما اعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تراحم فيها من
اسباب الخاوف واحست بازدياد تعودته في ساعة اللقاء — شأن الحب الصادق فانه غالب
على اسباب الشقاء في كل حال فالحب مهما اتنابه من المشاق او اعترضه من العقبات اذا
رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء . والحب سعادة حقيقية لا يزيد
الشقاء الا تمكناً كالذهب لا تزيد اثار الا صفاء ورونقاً

وكان جعفر مع ما يراه من استهلاك العباسة في حبه وتفانيها في راحته لا ينسى انها
من دم اجمع اهل ذلك الزمان على انه اشرف من دمه لانها عربية هاشمية بنت خليفة
واخت خليفة وهو فارسي اعجمي لا يسؤه مع ما بلغ اليه من السيادة ونفوذ الكلمة ان
يعد في حجة الموالي على جاري اصطلاحهم في ذلك العهد . ولم يجسر على الطمع بمنال ما ناله
جعفر احد من الاعاجم مهما بلغ من سطوتهم وعلوم مرتبتهم حتى الملوك والسلاطين من ظهور
الاسلام الى اواسط القرن الخامس للهجرة . واول من اقدم على ذلك السلطان طغرليك
السلجوقي فاراد ان يتزوج ابنة الخليفة القائم بامر الله العباسي فانزعج الخليفة لطلبه ولم
يمقد له عليها الا مضطراً سنة ٤٥٤ هـ والحلفاء العباسيون يومئذ في دور الانحطاط فكيف
في ايام الرشيد وهو عصرهم الذهبي — فاذا اعتبرت ذلك هان عليك نخوف جعفر من
انكشاف امره واطلاع الرشيد على تزوجه بالعباسة زيجة حقيقية وهو انما عقد له عليها
لتحل له رؤيتها وقد حسب ذلك منة كبرى على وزيره وصديقه والقائم بدولته . فجعفر لم
يقدم على ذلك الخطر ولا اقدمت العباسة عليه الا لتغلب سلطان الحب عليهما

فلما التقى الحيدبان نسي كل منهما الغرض من ذلك الاجتماع لحظة على حد قول

الشاعر الجنون

فيالبي كم من حاجة لي مهمة اذا جئتم في الليل لا ادري ما هيا
ثم انتهت العباسة لما يهددها من الخطر فافتتحت الحديث وغلب عليها الدلال فبدأت
بالتاب وهو فاتحة حديث المحيين او هو حجة يتطرقون بها الى التشاكي وما التشاكي الا
جلاء القلوب بالاحتمالك فيزداد مجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها — فقالت « لم يرق لجعفر
ان يحيب طلب العباسة الا الآن ؟ »

فاجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الوهوان « ان طلب العباسة امر لا مرد له ولكن
الاحوال قضت باطائي خوفاً من اعين الرقباء وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامي
بالجواد ينتظرنى لاعدو عليه « فادركت السبب في عدم رؤيتها اياه من الشرفة ساعة مجيئه .
فقعدت على وسادة من الحرير المطرز وهي ممسكة يده تدعوه الى الجلوس بجانبها
فاحسّ ببرد تلك اليد وارتعاشها وقعدت على وسادة اخرى بجانبها وهو يجاذر ان ينتقل
نظره عن نظرها وابت ينتظر ما يبدو منها . فاذا هي تقول وصوتها يرتجف « الى متى
هذه المحاذرة يا جعفر ؟ قد آن لنا ان نعيش او نموت »

فظنها تعرض بما يتخوفانه من امر الرشيد فتهد وقال « ان الافدار حكمت علينا بهذه
المخاوف لانها جعلت بيني وبينك حجاباً من شرف النسب فجعلتلك من سادات بني هاشم
وجعلتني من الموالي »

فقالت وهي تنظر اليه عابية « انه حجاب من الوهم الباطل فانت اسمى نفساً من
السادة وارفع في عيني من كل بني هاشم ولكن . . . » وسكنت

فقال « لقد دعوتني على عجل فجئت فهل حدث شي جديد ؟ »
قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء وعادت اليها مخاوفها واسرعت الدموع الى ما فيها
« نعم . . . فيبني ان نموت او نعيش اذ لا طاقة لي بما نقاسيه من المخاوف »
فاجفل وقال « ما الذي حدث مما نخافه الى هذا الحد . . . ؟ اما الموت فاني
استسهله في سبيل راحتك »

قالت وصوتها يرتجف « لقد انكشف امرنا ولا يلبث ان يطلع اخي على سرنا »
واحتق صوتها

قال وقد بفت « واي سر ومن اطلع عليه ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ »
قالت « قد انكشف سرنا بالامس وانا في دار فتحاس مع ولدينا اقبلهما وأنودع من

رؤيتهما . . . »

قال « ومن اطلع عليه . . . من تجراً على ذلك ؟ . . . »

قالت « ابو العتاهية اللعين »

فاجفل وصاح « ابو العتاهية ؟ يجب ان يقتل حالاً »

قالت « وقد أردت قتله فبعثت شرذمة من الجند للقبض عليه في صباح هذا اليوم

وهو لا يزال في تلك الدار فتمكن من الفرار »

قال « وكيف بفرّ من ايدي الجند ؟ تباً لهم »

قالت « اتما نجاه عدوك الخبيث »

قال « واي اعدائي تعين فانهم غير واحد »

قالت « صدقت انهم كثيرون ولكنني أعني اشدّهم حسداً منك واكثرهم سبياً في

اذبتك ووشاية فيك . . . لم تعلم من هو ؟ »

قال « اظنك تعين الفضل بن الربيع »

قالت « اياه اعني » واجهشت للبكاء

فحمني غضب جعفر لبكائها وكاد يمزق ثوبه غضباً وكيداً وقال « الفضل بن الربيع !

قبحه الله من وغد زعيم . . . لم يخف سطوتي ؟ لم يرهب حد سيفي ؟ ما الذي جرأه

على هذه الوقاحة ؟ »

فقالت « جرأه انه مقرب من محمد بن زبيدة وانت تعلم نفوذ كلمتها عند اخي . . .

واتفق وجوده في دار الرقيق لابتياح بعض الجواري انغنيات لذلك الغلام الخليل وبينما

هو خارج رأى جنودنا يشتغلون بالقبض على ابي العتاهية فاستنجدوه وقد رأته جاريتي عتبة

يشير اليه بعينيه كأنه يمدده بكشف سرّهم فأنقذوه واستعان على ذلك برجاله وهدّد

رجالنا فتركوا ابا العتاهية وعادوا فقصوا على الخبر فكادت اقد بنياني ولم اعد ادري

ما اعمل فاشارت عليّ تلك الجارية الامينة ان اطلعك على الواقع وذهبت هي اليك بتلك

البطاقة وانت تلعب بالكرة والصولجان فعهدت بها الى غلامك حمدان الذي تعودت

انفاذه اليّ وهو اوصلها اليك . . . وقد قضيت في انتظارك ساعات هي اطول عليّ من الدهر

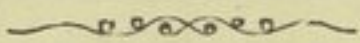
حتى جئت الآن وهذا هو خبري فما رأيك ؟ . . . قد أصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ويخيل لي

ان احمجار بغداد ومياه دجلة عالمة بسري وكان خدمني وجواريّ جنوداً يهيمون بالقبض

عليّ . . . ولو كان الخطر عليّ وحدي لمان مصابي لكنتني اخاف عليك من غضب اخي

وشدة بطشه » قالت ذلك واستخرجت مندبها تمسح بعينيها وقد اغرقت في البكاء

وكان جعفر يسمع حدِيثها وعيناه شاخضتان اليها وقلبه يخفق بغتة ولحيته ترقص غضباً .
فلما فرغت من كلامها حاجت عواطفه وحي غضبه فلم يتالك ان وقف بغتة وقال
« لا تخافي يا حبيبتى انهم لا ينالون منك شعرة قبل ان تزهدق ارواحهم جميعاً . . »
فامسكت بطرف سواده واجلسته وهي تقول « لا تجعل للغضب سلطة عليك فان
الامر يحتاج الى الروية والتبصر لان غريمك الخليفة امير المؤمنين وبنو هاشم وسائر العرب
واحزابهم واجنادهم ولك حساد يتوقعون منك كبوة يعملونها عليك حجة فاحاف اذا
أخذت الامر مصادرة ان تعرض نفسك للخطر »



الفصل التاسع عشر

الرأي الصواب

فابتسم جعفر والغضب ظاهر في شفتيه وعينه « لا نظني محبك يرسل الكلام جزافاً
فاني قد اعددت لكل نازلة دواء . . . ان من اشترت اليهم من سادات بني هاشم وسائر رجال
الدولة ليس منهم مع الرشيد احدٌ لاني غمرتهم بعطاياي وملكتم باحسابي . وانا لم اكثر
الجوائز عبثاً ولا بالغت بالكرم والسخاء اعتباطاً ولكنني جعلت ذلك ثمناً لما ارجوه في مثل
هذا المشكل واعظم منه . واما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقدون على اخيك لمبالغته في
مطاردة العلويين وعندني في خراسان الوف من صناديد الرجال باقرون بامري وكلهم
ناقدون على بني العباس منذ فتك جدك ابو جعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته ابي مسلم
الخراساني . . . اعذرني اذا حرصت لك بذلك وان كنت لم اصرح به لاحد سواك بعد
ولا يفضبك ان سمعي ما سمعته عن جدك واخيك وانما احوجتني الى التصريح بما
رأيت من تخوفك . . »

فلما سمعت مشروعه اعظمت الاقدام عليه واطرقت ولم تجب فابتدراها قائلاً « كافي
بك لتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين علي مناهضة الخليفة وهو اخوك اخبريني »
فرفعت بصرها اليه وقد بدا الاهتمام واعمال الفكرة في عينها وقالت « اني لا استحيي
ان اصرح لك بما في خاطري بعد ما سمعته من تصريحك فاعلم انه لا يهمني في هذه الدنيا

احد سواك وكل عدو لك فهو عدو لي . . . لا استثني احداً . . . ولكنني اخاف اقدامك على امر يمكننا الجحوح عنه الى امر آخر اقل خطراً منه . . . اعلم يا حبيبي اني لا مطمع لي في هذه الدنيا الا بان اكون بجانبك ومعنا ولدانا وثمره قلوبنا (وبلعت ربقها تجنبا للبكاء) ولا يهمني ان يكون ذلك الاجتماع في قصر او كوخ فقد عافت نفسي القصور وما يحف بها من اسباب المخاوف . . . فانظر في سبيل نجبو به من هذه المدينة الى مكان لا تخاف فيه باساً ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فانها مخوفة بالمسكاره والمره مما طال عمره او اتسع سلطانه لا يبقى له مما يملكه الا قيد باع يوارونه فيه . . . واخذت في البكاء ويداها بالتمديد على عينيها

فلما سمع كلامها وراها تبكي على هذه الصورة كاد يبكي معها لولم يتجدد ولكنه تأثر مما ذكرته عن ولديها فاطرق وهو يزيع القلنسوة عن جبينه ثم تشاغل بالقبض على لحيته واعمل فكرته في ما قد يجرّه اليه تسرعه باظهار العدوان ورجع الى صوابه ورأى قولها اقرب الى السلامة فقال لها وهو يرد بدورها عن عينيها « لا تبكي يا فؤادي اني فاعل ما تريد . . . صدقت ان التوادة اولى باهل الحزم . . . وها اني عارض عليك رأياً اظنك توافقيني عليه . . . »

فابتسمت والدمع لا يزال في ماقيها وقد ذبلت عيناها من البكاء ونكسرت اهدابها ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عن مراده . فابتسم هو وقال « ان خوفك من بلوغ خبر الطفلين الى اخيك بعيد اذ ليس بين رجال الدولة لا الفضل ولا غيره من يجسر على ذكرك بين يديه او التعريض بما تخافينه وانا اعلم الناس بذلك . فلا خوف علينا من هذا القبيل الا بعد زمن بعيد ندر في اثنايه وسيلة نتعد بها عن بغداد ونكون في ما من . . . »

فتناولت نحوه بعنقها وقالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « قلت لك ان خراسان معي واهلها طوع ارادتي فاذا كنت فيها لا يستطيع اخوك ولا غيره ان يناوئني . . . ناهيك باحزاب الشيعة العلوية فانهم يحاربون بين يدي الى آخر نسمة من حياتهم . . . اليس كذلك ؟ »

قالت « بلى »

قال « وانا ساع من زمن بعيد في التخلص من الوزارة وابداها بولاية خراسان وقد لا وعدني اخوك بها ولو اردت الحصول عليها في الغد لاجابني »

قالت العباسة « احق ما نقول ؟ اخاف ان يكون وعده على دخل فانه لا يؤمن على وعدي مثل هذا »

قال جعفر « قد وعدني واكد الوعد والوشاة من حسادي يساعدوني على ذلك ليعدونني عن بلاط الخليفة وبتعنوا بانفوذ دوني ولا احتاج في تحقيق هذه الامنية الى اكثر من كلمة واحدة »

فابرقت اسرتها وبان البشر في وجهها وقالت « بالله الا امرعت في تحقيقها فاني لا ارى لنا خيراً منها . . فاذا كنت انت في خراسان سرت انا اليك على عجل واستقدمنا ولدنا وعشنا معاً في رغد وهناء وانا واثقة ان الرشيد لا يطمع بنا هناك لانه يحاف على ملكه » قال « فاذا كوني مطمئنة فان الامر لا يحتاج الى صبر طويل »

فقالت « قد شعرت منذ الان بذهاب القلق لاني اعتقد كما قلت انهم لا يجسرون على ذكر خبر الطفلين بين يدي اخي لما يعلمونه من غيرته على العرض وانا على يقين انه قاتل كل من عرف اطلاعه على هذا السر . . » قال « اذا انت مطمئنة لهذا الرأي ؟ »

قالت « نعم . نعم الرأي هو . . . آه هل نتحقق هذه الامنية واعيش معك وابنانا معنا وتكون انت بعلي على رؤوس الاشهاد كما اني اعتقد انك كذلك ولو كره الحاسدون او انكره اخي علينا ؟ » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال وهو يتحفز للقيام « كم احب ان ابقى هنا ولا افارقك يا حبيبتى ولكن لا بد من ذهابي على عجل لاني جئت خلسة . . . واذ قد سمعنا على التستر فينبغي لي ان امضي سريعاً لئلا نجعل سبيلاً الى الوشاية »

فامسكت يده واقعدته وهي تقول « لا . . لا تذهب فاني . . » وغصت بريقها

فقال « اراك قد عدت الى المخاوف . . لا تخافي فاننا سنجتمع قريباً باذن الله »

فقالت « لا بد من ذلك لاننا لم نرتكب اثماً وزواجنا شرعي وانما اراد اخي ان يستبد برأيه فمنعنا مما حمله الله . . الم يكن هو الذي عقد لك علي ؟ »

قال وهو يهز رأسه استخفافاً « بلى . . ولكنه لا يرى لغيره حقاً ان يتمتع بذلك » ونهض فنهضت هي معه فامسك يدها للوداع ونفسه لا تطاوعه عليه فوقف هنيهة وهو ينظر اليها وهي تنظر اليه والعيون تنفام بما تقصر الالسنه عن مثله ثم اصاح فلنسوته يده الاخرى ومشي وهي تطاوعه حتى وصل الى الباب فلبس نعاله وودعها وهو يضغط

على يدها ويقول امكثي مطمئنة حتى يا تيك مني رسول الخير «
فاجابته ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده « سر يا سيدي بحراسة المولى وفقك الله
الى ما تريد »

فتراجع ونظر اليها نظر العاتب وقال لا تقولي يا سيدي فانما انا مولاك وانت سيدي
بمقضى شرعهم وعرفهم . . ابن انا من اخت امير المؤمنين ؟ «
فلما قال ذلك جذبت يدها من يده ونظرت اليه شذراً وقالت بلحن الدلال والعتاب
« دعنا من شرعهم وعرفهم فانك سيدي بشرع الله وعرف المنصفين . . »
فضحك واسرع الى يدها فامسكها وهو يقول « استودعك الله حتى نلتقي وارجو ان يكون
لقاؤنا نهائياً لا فراق بعده . . والافضل على ما ارى ان انصرف عن زيارتك في هذه الايام
ربنا ادبر الحيلة للاجتماع في ما من »

فقال « يشق عليّ انقطاعك ولكنني اتمله طمعاً بما ذكرت »
ثم صفت صفة تعودت ان تعني بها عتبة فجاءت مسرعة فقالت لها « امشي بين يدي
مولاك حتى يخرج من القصر ولا يشعر به احد »
فاشارت اشارة الطاعة ومشت بين يديه في الدهليز وقد طفئت شموعه وسار هو في
اثرها حتى خرج من القصر وبلغ الى مكان ترك فيها جواده مع غلامه حمدان فركب
وسار الى منزله

اما العباسة فلما خلت بنفسها مكثت حيناً وهي واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى
توارى وانقطع صوت وقعها فمادت الى هواجسها واحست باحتياجها الى عتبة . حتى اذا
عادت اليها قصت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر واسرت اليها غرضه فوافقتها على
ذلك الرأي ثم ذهبت العباسة الى فراشها

الفصل العشرون

قصر الامين

اما الفضل بن الربيع فقد تركناه عائداً بمحاشيته من دار الرقيق ومعه ابو العتادية

وكان ابو العتاهية قد امتلأ غيظاً من عتبه وسيدتها • ولولم تتعمداً أذته على هذه الصورة ربما قام من نفسه ما يوجب على افشاء ذلك السر مع ما يطمع به من الكسب الممالي بافشائه • اذ قد تأخذ الشفقة على الغلامين او الحياء من العباسة او الخوف من جعفر او الرشيد او ربما توقف عن الافشاء حيناً من الزمن ربنا يجد سبيلاً يتقدم به الى الفضل او غيره بالقاء ذلك السر اليه فجاءت تلك الاساءة مسوغاً له على الافشاء وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على تلك المعاملة فلما ركب الفضل ورجاله امرابي العتاهية بدابة بركبها وقد تاقت نفسه لاستطلاع سر الامر فركب ابو العتاهية وهو اكثر ميلاً منه الى اطلاعه عليه

سار الركب على خيولهم رأساً الى قصر الامين فلم يكن لهم بدٌ من المرور على جسر بغداد فبعد ان تجاوزوا شارع دار الرقيق مروا بالبيدان من شماله ورأوا اهل الدولة يتوافدون لحضور لعب الكرة والوصولان فتحولوا من وراء الاصطبل في الشارع المؤدي الى الجسر • وكانت الشمس قد تكبدت الدماء وتزاحت الاقدام على ذلك الجسر وهو مصنوع من السفن متحازية منلازة وقد شدت من جوانبها بعضها الى بعض بامراس او سلاسل من حديد والقيت فوقها الواح الخشب يمرُّ فوقها الناس والدواب • وعلم الفضل ان الجسر لا يخلو من حرس سرّي يراقب حركات المارين من اهل الدولة والناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض من كل سبيل • فقبل مغادرته دار الرقيق تأنم وتأنم بعض الخائصة من اتباعه فرثوا على الجسر شمالاً الى الرصافة وخرجوا من هناك نحو الجنوب الشرقي الى المحرّم وجعلوا اكثر طريقهم قرب الشاطي حتى اتوا القصر

وكان الغرض من تبكير الفضل الى دار الرقيق في ذلك الصباح التعميل في تلك المهمة والرجوع الى الامين حوالى الضحى حتى لا يفوته الصبح وكان الامين قد وعد نفسه بسماع غناء الجوّاري البيض في ذلك اليوم والفضل وعده به حرصاً على رضاه وتقرباً اليه بكل ما يسره لعله انه ولي العهد وهو لا يرجو لنفسه سيباً في قهر البرامكة الاّ به لان الامين يكره الفرس لانهم من غير العرب ويكره البرامكة على الخصوص وجعفر الوزير على الاخص لانه ساعد اخاه المأمون على ولاية العهد مع كون أمه جارية وأم الامين هاشمية هي زبيدة الشهيرة

فالفضل لم يكن يرى في نفسه القدرة على سبق البرامكة في ادارة شؤون الدولة اذ في سياسة الاعمال وتسهيل استيفاء الخراج او ارضاء الرشيد فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر

واطلق بده فيها فعمد الفضل الى الحيلة وهو ذو دهاء وصبر فرأى الامين بكره الفرس
 الاسباب التي قدمناها فانحاز اليه وجعل ينقرب منه بكل وسيلة برضاها وان كانت ليس
 من شأنه فضاؤها حتى مسألة الجوارى فقد كان الفضل في غنى عن الذهاب بنفسه الى دار
 الرقيق لكنه اراد ان يبرهن الامين انه يحبّه ويتفانى في خدمته . على ان اشتغاله بشاهدة
 اصناف الرقيق ثم ما اعاقه من امر ابي العتاهية والقبض عليه اخره عن الوقت الممين فوصل
 القصر وقد مات الشمس عن خط الهاجرة ومع ذلك فقد رأى ان يطلع على سر ابي العتاهية
 قبل والدخول على الامين — وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع في الاستطلاع لانه كما
 قدمنا من اهل المزاج الصفراوي الذين يصبرون على الامور ولا يقلقون من موعده او
 يتعجلون في استطلاع سرّ بخلاف اهل المزاج العصبي فانك اذا وعدت احدهم بسرّ تطلعه
 عليه او خبر ستلقيه اليه لا يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ ذلك الوعد . ولذلك فاهل
 هذا المزاج لا يصلحون للدهاء السيامي او الاقدام على المشروعات الشاقة المشوشة التي تنفر
 الى سعي وكظم ومطاوله

فالفضل بن الربيع لم يكن يتعجل في استطلاع السرّ رغبة في معرفة الاطلاع ولكنه
 توهم من وراء ذلك سبباً يساعده على مرامه . فلما اطل على قصر الامين امر رجاله ان يتحولوا
 بافراسهم الى اماكنهم حتى خلا بابي العتاهية قترجلا في شارع عريض تظلمه الاشجار الملتفة
 من الجانبين ينتهي بساحة كبيرة في صدرها باب القصر — وما هو باب القصر على الحقيقة
 وانما هو باب الحدبة والقصر في بعض جوانبها من جهة دجلة له سور خاص به . وكانت
 عادتهم في بناء هذه القصور ان يجعلوا اسوارها الخارجية متينة عالية اشبه باسوار الحصون
 وربما جعلوا في اعلى السور مراحي للنبال او نوافذ لحجارة المجانيق لمسا كانوا يتوقعونه من
 نقلاب الاحوال وانتقال السلطة بغتة من حزب الى حزب . وباب الحدبة كبير متين يقفل
 ويوصد حتى لا يستطيع فتحه الا بقوة الرجال . وكان الحرس لا يبرحون المكان وقوفاً والباب
 مقفل فاذا قدم احد فتحه له . فاذا كان فارساً ترجل خارجاً وترك دابته وسائرها او خادمه
 يراعيها او يذهب بها الى الاصطبل بجانب ذلك السور وفيه المرائب تشد اليها الدواب وهي
 كثيرة وخصوصاً بواب ولي العهد والناس يومئذ يتزافون اليه ويكثر من التردد عليه
 تمهيداً لما يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد ان تفضي امور الدولة اليه

فلما ترجل الفضل وابو العتاهية نفيها الى جانب الطريق واخذ الفضل يستطلع الخبر
 وابو العتاهية يقصه عليه والفضل مستغرب حتى شك في صدقه ولكنه ما لبث ان جاء على

آخر الحديث حتى ترجمت صحته عنده ولكنه اعظمه ولبث مطرفاً لا يجير جواباً ثم نظر الى ابي العنابية واراد ان يغالطه فقال « احذر ان تكون قد اختلقت هذا الخبر فاني لا اصدقك وربما كنت مخدوعاً فيه لأن مولانا العباسة من ابعد الناس عن مثل هذه الشبهة فاحذر ان تذكر ذلك لاحدٍ لئلا نفع في شراعمالك »

فادرك ابو العنابية غرض الفضل من هذه المغالطة فطاوعه وقال « اني اجل مولانا عن هذا ولكنني قصصت ما رأيت به ولم اكن لابوح به لك لو لم ينفق ما اتفق من نجاتي على يدك ولا ادري مع ذلك اذا كانت عيناك قد خدعتاني فانهما كثيراً ما يتخدعان البصير فيقع في حفرة لا يقع فيها الا العمى . . . » وهز كنفيه وهو مطرق كأنه يقول « وماذا يعنيني من ذلك كله . . . »

الفصل الحادي والعشرون

جعفر بن المهدي

ولم يكن الفضل يجهل استهلاك ابي العنابية في سبيل المال ولم يشك مطلقاً انه لم ينقل ذلك الخبر الا وهو يتوقع جائزة كبيرة فاحب استرضاءه لعله يحتاج اليه في مثل هذه المهمة مرة اخرى فمد يده الى جيبه واستخرج صرةً دفعها اليه وهو يقول « انك شاعرٌ وقد تعود الشعراء ان لا يقولوا قولاً الا اجيزوا عليه وان لم يكن شعراً . . . نخذ هذه الجائزة الصغيرة وستنال اضعاها من مولانا الامين فانه سيأخذ الطرب لنجاحنا في ابتياع هؤلاء الجوارى البيض فلا يبالي من اجاز وسأخبره انك كنت لنا عوناً في الحصول عليهن . . . » قال ذلك وضحك ضحكة لها صوت ولبس لها شكل كأنه ينضحك وجعل يده على كتف ابي العنابية وهو يقول « بارك الله فيك » ومشى فاحس ابو العنابية انه يريد الذهاب وحده فودعه وقبل يده وتحول فقال له الفضل « احذر ان تمضي الى مكان يعرفه ذلك الوزير فانهم يقبضون عليك ويزدونك والافضل ان تمكث في هذا القصر مع بعض رجالي او اذهب الى منزلي اقم هناك وانت في مامن وفي كل حال لا تبعد عني كثيراً » فطاطا رأسه وتحول اما الفضل فانه مشى وقد ازاح اللثام عن وجهه لانه اصبح في امان حتى اقبل على الساحة بين يدي الخديجة فرأى الباب مفتوحاً فتحاً كاملاً والحرس متشغلون بمحادثون جماعة

من الغرباء عرف الفضل من مجمل حالهم انهم من اهل البصرة واكثرهم من الخدم او السياس
لعضهم يتحادثون والبعض الآخر يشغلون بسياسة الخيول يربطونها او يعلقونها او يصلحون
شؤونها . فمالبث ان ارسل نظره الى داخل الخديفة حتى علم انهم رجال جعفر بن موسى
الهادي لانه شاهده يتمشى مع الامين في بعض جوانب البستان . اما الفضل فلم يكذب بقرب
من الباب حتى عرفه الحراس فتسابقوا الى خدمته والتوسعة له

وجعفر بن موسى هو ابن الخليفة . موسى الهادي اخي الرشيد وكان الهادي قد تولى
الخلافة قبل اخيه الرشيد ولم يطل تربيته في دستها لاسباب سيأتي بيانها . وكان ابوها
المهدي قد اوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادي وهارون الرشيد على ان يتولى
الهادي اولاً وبعده الرشيد . فلما توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه
ان يخلع اخاه الرشيد ويبيع لابنه جعفر هذا ليقى الحكم في اعقابها . فاعان فكره لخاصته
فوافقوه وخلعوا الرشيد وبيعوا الجعفر ولم يسع الرشيد الا القبول لقصر يده عن المقاومة
ورجال الدولة كاهم مع الخليفة وقد سايروه الا يحيى بن خالد البرمكي فانه جاء الى
الرشيد وشدد قلبه وضمن له الخلافة واحتمل الخطر على حياته رغبة في استبقاء ولاية
العهد للرشيد وخلع جعفر بن الهادي منها . فنضب عليه الهادي وجسه وهدده بالقتل ثم
استطاع بتعقله ودهائه وقوة حجته من اقناعه ان يقر أخاه الرشيد في الولاية ريثما يكبر
جعفر فيخلع الرشيد ويبيع الجعفر ولم تمض مدة على هذه القرار حتى مرض الهادي ومات
بغته ولم يحلم الا سنة وثلاثة اشهر وشاع يومئذ ان أمه الخيزران عجلت موته غيظاً منه
لانه أحب اغلال يديها عن التصرف في شؤون الدولة وغيرة على اخيه الرشيد . وذهب
يحيى البرمكي في الليل الى الرشيد وبشراه بالخلافة واقراه على سريرها . ولذلك فالرشيد
حفظ له هذا الجميل واطلق يديه في أمور الدولة ولم يكن يقدم على امر عظيم الا بمشورته
وجمل ولده جعفر وزيراً اباح له التصرف في كل شيء كما قد علمت

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة ابيه غلاماً فام يقدم على عمل ولم يسه الا السكوت
وفي نفسه من يحيى وأولاده حزازات وهو يعتقد ان الرشيد اغتصب الخلافة اغتصاباً وانه
تواطأ هو ويحيى والخيزران على قتل ابيه وكنتم ذلك في نفسه اعواماً . وكان بقيم في
البصرة وقد اقطعه الرشيد ارضاً واسعة وخصص له الرواتب الكبيرة مثل سائر بني هاشم .
فقد كانت السياسة تقضي في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الثرور فالخليفة اذا
تسم ذروة الخلافة علم ان العيون مفتحة عليه وان اكثر الناس حسداً له وغيرة

منه اهله فاذا كان حكيماً وسع لهم اسباب الرزق واكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف لعدوه انها تشغلهم عن الاهتمام بالخلافة وتضعف عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليه . ولذلك رأيت بني هاشم من عهد الرشيد وما يليه من اكثر الناس انغماساً في الترف والقصف لا شاغل لهم الا انتقاء المغنين والتمتع بلماً كل والمشراب في الحدائق والبساتين واقتناء الجوارى على اختلاف الطبقات للغناء والتسري والخدمة واكثر ما يكون مقامهم في قصورهم بالبصرة ولاياتون بغداد الا لقبض مرتباتهم او لابتياح الجوارى او بعض الآنية ونحوها ولكن الغالب ان يرسل الرشيد رواتبهم اليهم وهم قعود في قصورهم

وكان جعفر بن الهادي من جملة الهاشميين اهل الرواتب وكان مقبياً في البصرة . لكنه لم يكن يشغله الترف والقصف عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد او على يحيى البرمكي واولاده وقد زاده تقدم جعفر البرمكي في مصالح الدولة حسداً ونقمة . وكان مع ذلك يعمل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد فلما رآه بايع لابنيه الامين والمأمون بعده بتحقيق فشله وعزم على الانتقام ولا سبيل له اليه وليس من يناصره عليه . حتى اذا ظفر بالفضل بن الربيع وتكاشفا وهما متفقان في كره جعفر البرمكي وعدم الرضاء بالهياة الحاكمة على الاجال . فجملايتساندان في قلب تلك الحكومة ويتواعدان على التعاون . وكان هم ابن الهادي في الدرجة الاولى ان يسقط جعفر البرمكي من الوزارة فاذا سقط سقطت ولاية العهد عن المأمون لانه هو الذي دبرها له فلا يبقى بينه وبين الخلافة الا الامين وهو يعلم ضعفه وتهتكه فتقرب منه وعوّل في نيل بغيته على نفس السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له باطلاق اسباب البذخ والترف لبني هاشم واشتغالهم بالجوارى والغناء عن طلبها . فلما رأى ابن الهادي ميل محمد الامين الى الترف والقصف فبدلاً من ان ينصحه في العدول عنهما جعل يسهل له اسبابهما وينشطه في طلبهما ولو بعنه ذلك الى اظهار الخلاعة أو التهلك في بعض الاحيان والامين غافل عن ذلك لاه عن يحدق به من اهل الدسائس وارباب المطامع . وكان ابن الهادي قد جاء بغداد منذ بضعة ايام يظهر انه جاء لقبض راتبه ونزل على الامين فاخلى له قصرأ خاصاً بجانب قصره يقيم فيه بحاشيته واعوانه ويقضيان معظم النهار معاً في اللهو والقصف من الصباح الى المساء . وكان هو الذي نيه الى اقتناء الجوارى البيض المغنيات وحرص الفضل بن الربيع على المبادرة الي ابتياحهن منذ الفجر على ان يعود بهن قبل انقضاء وقت الصبح فيتمتعون بالراح على رخص اصواتهن

الفصل الثماني والعشرون

محمد الامين

فلما ابطل الفضل قلق الامين فانصرف الى شرفة في قصره تطل على دجلة وجلس وعيناه شائعتان لعله يجد الفضل عائداً في القارب . فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد ملء الامين الانتظار فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي يتفرجان بما فيها من الاقفاص الكبيرة كأنها البيوت وفيها اصناف الطير الملون المجلوب من بلاد الهند واواسط افريقيا والاقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ في بعضها اسود وفي الآخر فيلذة او نمور . ولما فرغا من التفرج والنفل لم يأت امر الامين صاحب كباش المناطحة ان يأتي بها للمناطحة بين يديه ومضى الى تجلس في وسط الحديقة بظلمة عريش عال . وهو بهم بالدخول اليه مع ابن عمه اذ جاءه بعض الخدم ان النفل قادم فامر باسندامه الى العريش وهو يظن الجواري معه .

اما الفضل فدخل البستان ماشياً وقد شاهد الامين وابن عمه يتحولان الى العريش وهما بلباس المنادمة . والبستان مقسوم الى مغارس بينها طرفقات مفروشة بالحصباء الملونة يتخللها اغراس من الاشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ومنها المولدي في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان وما بين ذلك من اصناف الرياحين وازهارها البديعة الالوان وكها في مغارسها على احسن هندام يتعهدا البستاني بالمقراض يقلد بها اشكال الحيوانات فيجعل بعضها بشكل الطاووس او غيره من الطيور الجميلة والبعض الآخر بشكل الحيتان او بعض الوحوش الكاسرة كالاسد والنمر . فيمرُّ الرجل وحواليه الاشجار والانجم والاعشاب من كل صنف ولون ورائحة وهو يحسب بعضها اسوداً اربضة او طيوراً دارجة مما يسحر الالباب . وبين تلك المغارس احواض يرسل اليها الماء يجار مستنرة وفيها من الاسماك اجملها لوناً والظفها شكلاً يتعهدا البستاني بفتات الخبز او بقايا الاطعمة مما يكثر في مطابخ الامراء في ايام الرغد والرخاء . ناهيك بما رسموه في طرق الحديقة من اشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف الوانها فيصورون بذلك زهوراً بالوانها واسوداً او فيلذة باشكالها على نحو ما يفعلون بالفسيفساء . وكانوا يقيمون لكل من هذه الفنون صناعات من الفرس او الروم او الهند ممن اتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في اساليب الهندام

على ان روائح الازهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئاً بذكر بالنفاز الى ما
تضوَع من اثواب ولي العهد من رائحة الاطياب ولاسيما المسك . وكانت عادتهم اذا عزموا
على تجلس شراب او غناء ان يخضعوا ثوبهم الرسمي ولبسوا ثوباً ملوناً بالحمرة او الصفرة
او الخضرة يسمونه ثوب المنادمة وهو في الغالب غلالة رقيقة وملاءة مصقولة . وكان الامين
يومئذ لابساً غلالة حمراء فوقها ملاءة صفراء مصقولة صقلاً شديداً حتى تقوم قياماً من شدة
الصقل . وجعل على رأسه بدل العمامة او القلنسوة اكليلاً من ريحان وازهار صفرة له البستاني
صفراً جميلاً حتى يشبه القلنسوة . ولبس برجليه خفين سنديين . وكان رفيقه ابن الهادي في
مثل ذلك ولكن ملاءته كانت خضراء وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشي الثمين .
وقد سوى شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر اي انه حذّفه على جبينه وقصره دون
جبهته وسواه مع حاجبيه ودوّره الى اذنيه واسدله الى صدغيه ^(١)

وكان الامين ورفيقه قد جلسا في العريش ينتظران قدوم صاحب الكباش والامين
اكثر رغبة في مقابلة الفضل اذا كانت الجوازي معه . واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى
بقرب العريش فصاح فيه « ما وراءك يا فضل ؟ »

فاجاب وهو داخل « ما ورائي الا كل خير يا مولاي »

قال « واين الجارية او الجوازي المغنيات ؟ »

قال « هن آتيات عن قريب . . . » ولما اطل الفضل على الامين ورأى
لباسه وحاله ابتسم رغم ارادته فابتدره الامين قائلاً « كيف تراني بهذا الاكليل وهذه
الثياب ؟ »

قال « ارى انك ملاك بصورة انسان » وكان الامين يومئذ في السابعة عشرة من
عمره وقد نبت عارضاه وظهور عذاراه وتجلي مائه الشبية في عيابه . وهو جميل الصورة
طويل القامة ابيض اللون صغير العينين اتقى الانف سبط الشعر وقد انحسر شعره عن
جانبي جبهته ^(٢) وكان قوي العضل حتى يلقي الاسد فلا يبالى به ^(٣) وفيه بطش
وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة . فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره . واحبه ولكنه كان
سيء الرأي كثير التبذير ارعن ^(٤) جعل همه اللهو والقصف باقتناء الجوازي والغلمان
ولعله سيق الى الافراط في ذلك بما اراده اهل الاغراض من تضييع الملك على بدو او رغبة

(١) نفع الطيب ج ٢ (٢) ابو الفداء ج ٢ (٣) المسعودي ج ٢

(٣) فوات الوفيات ج ٢

منهم في استرضائه التماساً لسخائه . اما ابن الهادي فكان رفيق البدن جميل الصورة قصير
القامة خفيف العارضين حاد العينين وكان اكبر من الامين سنًا واحسن منه رأياً وانما
سايره في قصفه ولهوه لغرض في نفسه كما تقدم

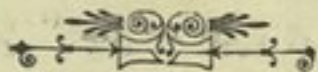
ولما دخل الفضل صاح فيه الامين « عليك بشباب المنادمة واخلع هذا الثوب فان
ابطائك الى هذه الساعة لا ينبغي ان يفسد علينا ما دبرناه من اسباب السرور وان كان
الصباح قد انقضى فنقضي بقية النهار في الطرب والانس » ثم صفق فاته غلام تركي
جميل الصورة لم يبد عذاره بعد وعليه دراعة حمراء اللون تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من
حرير موشاة بالقصب وارسل شعره صغيرة طويلة وراء ظهره وعلى رأسه شبه طاقية هرمية
الشكل مزركشة بالقصب منحرفة الى جانب واحد في قمتها هلال من فضة اثقل راسها
فتدلى فاصبح الغلام اشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله . ولو سمعته يتكلم لثبت عندك انه
فتاة لبعده عن خشونة اصوات الرجال لانه خصي . وكان في قصر الامين كثير من امثاله
عني في استجلابهم من اقصى بلاد الترك والجر كس جعلهم طوائف لخدمته ولجالس اسمه
فلما جاء الغلام وقف متادباً فقال له الامين « من ترى في بابنا من الشعراء ؟ »

قال « الحسن بن هانيء (ابو نواس) وابو العتاهية و . . . »

فقطع الامين خطابه قائلاً « ما لنا ولا لابي العتاهية وهو من اهل الزهد فلا يتفنعنا
زهده في مجلسنا هذا . واما الحسن بن هاني فانه ابن يمجدها وهو شاعر ظريف » قال
ذلك وضحك ثم التفت الى الغلام وقال « اصرف الشعراء الا ابن هانيء وقل لصاحب
الشراب ان يعد لنا مجلساً كاملاً . . . »

فقال الفضل « وابو العتاهية لا باس به بامولاي فانه شاعر ظريف ولا يهملك ما
يقولون عن زهده »

فصاح بالغلام « وابو العتاهية ايضاً . » فمضى الخصي لاعداد ما يلزم



الفصل الثالث والعشرون

مناطحة الكباش

اما الامين فاستبطاً صاحب الكباش فصفق بجأه غلام آخر فصاح به « واين صاحب الكباش فاني احب ان يرى ابن عمي كبشين يتناطحان ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في سائر العراق مثلها »

فقال « انهما معدان للنطاح منذ ساعة ولم يات بهما الى هنا ضناً بما في ارض هذا العريش من الفسيفساء فان الكباش ثقلها باظلافها في اثناء النطاح وهي لا تملك قوتها فوق الحصى فاذا شاء مولاي ان ينتقل الى موقفها وراء هذا العريش رآها »

قال « حسناً . » ونهض فمشى ومشى ابن الهادي والفضل في أثره وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولي عهد المسلمين من الالعب الصبانية وقد قال كل منهما في نفسه « كيف ثبت ملك هذا ولي عهده ؟ ايستطيع من كان في حاله ان يحكم مملكة اولها في بحر الهند وآخرها على شواطئ بحر الظلمات وفيها من اصناف البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة ما لم يجتمع في مملكة واحدة ؟ ناهيك بالاحزاب السياسية ومطامع اهل النفوذ » على انهما سارا وهو يتقدمها بلباسه الملون المصقول وقلنسوته المصنوعة من الازهار والرباحين حتى وصلوا الى بقعة من البستان مسنديرة وجدوا في وسطها رجلاً كبير الحية عريضاً عليه قلنسوة التجار ويظهر من ملامحه انه هندي الجنس وبين يديه كبشان كبيران ايضاً وقد نقش عليهما بالالوان صوراً واشكالاً وعلق في عنق كل منهما عقداً من العقيق وصيغ قرني احدها بالخضرة وقرني الآخر بالحمرة . فلما اقبل الامين عليه وقف الرجل وتقدم لتقبيل يده فمنعه وقال « ايها كبشي ؟ »

فاشار الرجل الى صاحب القرنين الاحمرين وقال « هذا هو يا مولاي » فقال وهو ينظر الى الفضل « فالآخر اذا كبشك . . فليتناطحا ومن غلب صاحبه علقنا في عنقه عقداً آخر يشتره له صاحب الكباش المغلوب » فلم يسع الفضل الا اظهار الامتنان من هذا الانعام وقال « وارجوان يغلب كبش

مولاي واذا غاب كبشي فانه ينجلني «
فضحك الامين حتى كاد يسألني وقال « وانا اطلب الى الله ان لا يغلب كبشك ليس
لانه لك ولكن .. » وضحك
فلم يفهم الفضل قصده والنتى الى ابن الهادي فرآه يتسم فاستفهمه بعينه فقال وهو
يخضض صوته « لان اسمه برمك »

فادرك الفضل ان الامين يتفاهل بذلك فاذا غاب الكباش « برمك » فكانه غاب
جعفر البرمكي . ولم يسم كبشه « جعفر » توفيراً لابن عمه جعفر بن الهادي . واخذ الكباشان
في المناطحة وراعيهما يعلم رغبة الامين في ان يغلب كبشه فكان يبذل جهده في هذا السبيل
حتى تم ما اراده الامين وكان كبشه الغالب فضحك ومرّ وامر لصاحب الكباش بجائزة ثم
جاءه الغلام وهو يقول « ان صاحب الاديك قادم بامولاي فهل تاذن ان تشاهد
مهارشتها ؟ »

قال « ارجعه فقد كفانا الآن ما شاهدناه من مناطحة الكباش وان لنا الدخول الى
المنادمة » قال ذلك ومشى نحو القصر على الحصبة في طرق الحديقة . وكان قصر الامين
قائماً على شاطئ دجلة اليسرى وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على النهر . وفي
جملتها بهو كبير اشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون بظلالها سقف عليه نقوش ملونة
مذهبة من صنع مصوري الفرس او هي صناعة مزوجة من فنون الفرس والروم . والسقف
قائم على اساطين من الرخام محلاة بالذهب ولولا سور القصر الخارجي الكبير لكان
الجالس على المصطبة يرى السفن في دجلة ذاهبة جائية . على انهم جعلوا في السور باباً يمكن
الزول منه الى الشاطيء على مسافة ترسو عندها الحراقات والزلاجات . وكان للامين ولع
في اقتناء السفن والفتن في اشكالها وصورها . فاصطنعوا له حراقات على صور الاسد والفيل
والعقاب والحية والفرس ارسالها في مياه دجلة وقد انفق في اصطناعها مالا عظيماً (١)

واما من جهة البستان فللقصر باب كبير هو بابه الاصلي يدخل منه الزوار قائم في
جدار على شكل قوس مقعرة نحو نصف دائرة والباب في منتصف القوس يصعد اليه بضع
درجات . والى جانبي الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط في استدارته .
وقد نقش على اعلى الباب بالحرف الكوفي الجميل « محمد الامين بن هرون الرشيد »
والقصر بجملته محاط بسور كبير عال على عاذهم في تعمية الاسوار

وكان الامين وهو ماش في الحديقة يتناثر الخدم والحصيان بين يديه يتسارعون في نقل خبر مجيئه . فلما اقبل على القصر وقف الحجاب احتراماً له وهو لا يبالي . فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجمعفر في اثره فرثوا في دهليز ينتهي الى باحة مستديرة في صدرها باب يستطرق الى دهليز آخر ينتهي الى دار النساء وهي قصر قائم بنفسه يستطرق من بعض قاعاته الى المصطبة التي تقدم وصفها . وفي يمين الباحة المستديرة التي ذكرناها باب يستطرق الى دهليز ينتهي ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والاعوان والعبيد ونحوهم والى يسار الباحة باب آخر يتصل منه الى دار الاضياف وهي غرف كثيرة ومطابخ وموائد كأنها بلد صغير

الفصل الرابع والعشرون

دار النساء

فلما وصل الامين الى تلك الباحة تقدم كبير الحصيان السود بين يديه فوسع له ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدي الى دار النساء فدخل ومشى في الدهليز ودعا الفضل وجمعفر فتبعاه وخطواتهم لا يسمع لها وقع لانهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان . فلما انتهوا من الدهليز الثاني اشرفوا على حديقة فيها الازهار والرياحين ووراءها دار النساء (الحریم) يصعد اليها بست درجات من الرخام الاحمر وعلى بابها ستارة ثمينة من الديباج سماوية اللون عليها كتابة بطراز القصب هذا نصها — وهي من شعر حاتم الطائي :

وما انا بالساعي بفضل زمامها لنشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما انا بالطاوي حقيية رحلها لابعثها خفاً وارك صاحبها
اذا كنت رباً للقلوص فلا تدع رفيقك يمضى خلفها غير راكب
انجها فاردفه فان حملتكما فذاك وان كان العقاب فعاقب

وهي تشير الى رغبة صاحب هذا المنزل بالسخاء وكان الامين كثير السخاء . وكان رئيس الحصيان ماشياً بين يديهم فلما اقبلوا على ذلك الباب تقدم ووسع الستارة بيده فدخل الامين ورفيقاه الى قاعة كبيرة اشبه شي . بقاعة الاستقبال الى كل من جانبها باب

يستطرق احدهما الى مساكن النساء والباب الآخر يؤدي الى مجالس خصوصية هي قاعات لكل قاعة منها فرش خاص بلون خاص . ولم يكن غرض الامين الذهاب اليها وانما اراد الخروج الى المصطبة وراء تلك الدار . وكان الفضل وابن الهادي حالما دخلا تلك القاعة سمعا ضرب العيذان على غير نظام كأن اصحابها يسوئونها وهم وراء الجدران ولكنهما لبنا ينتظران ما يفعله الامين . والقاعة المشار اليها مفروشة بالارمني من الحرير المزركش وفي جدرانها صور بعض ملوك الفرس والروم على افراسهم وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر وقد صنع كثير من هذه الصور تنزيلاً بالذهب او بالعاج على اللواح من خشب الابنوس وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب . وعلى ابواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير من الفضة ضخمة وفي ارضها بساط واحد ربما بلغت مساحته عشرين ذراعاً في عشرين وحوالها مما يلي الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغطاة بالابر يسلم الموشى . وفي زواياها مناور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة في الليل

فلما وصل الامين الى هذه القاعة وسمع طنطنة العيذان وراءها جلس على سرير من الابنوس المنزل فيه العاج كان قائماً هناك وأشار الى رفيقيه مجلساً . ثم اوما الى قيم الحصيان باشارة فهمها فحنى راسه وخرج والفضل في قلق ليعلم هل وصلت قرنفلة ورفيقتاها . وابن الهادي ينظر الى الامين ويتسم وفي نفسه امور عظام لو تفلسها وخرجت زفيراً لاحرقت تلك القاعة بما فيها ولكنه كان كظوماً صبوراً . ثم ما عتم ان سمعوا ضرب العيذان ضرباً كثيراً على توقيع واحد ونغم واحد واذا باب من ابواب القاعة فتح وخرج سرب من الجوارى في ايديهن العيذان فررن في القاعة عشراً عشراً بضربن على العيذان ضرباً رخبياً وبنين بصوت واحد فاذا فرغ العشر انصرفن من الباب الآخر وجاءت عشر اخر وفي ايديهن عيذان آخر وهن يغنين غناء آخر على نغم آخر فلما انصرفن جاء عشر آخر وهكذا حتى تمت عشرة افواج . فلم يكن شيء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر لانهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد . وانما ادعتهما ما جاء بعد الجوارى من اسراب الغلمان الحصيان وغيرهم وعليهم الالبسة الثمينة الباهرة مما لم يسبقه الى مثله احد في الاسلام على هذه الصورة . فانه كان يغالي في اقتناء الحصيان ويطلبهم من اقاصي البلاد ويتفق في استجلابهم الاموال وزاد ذلك فيه بعد خلاقته فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وسماهم الجرادية وفرض لهم فرضاً خاصاً واصطنع

اجواقاً آخر من الفلمان الجبشان سبهم الغرابية وفرض لهم الاموال وانتقد عليه
الناس ذلك ونظموا فيه الاشعار^(١) اما في اثناء ولاية العهد فكان لا يزال في اول رغبته
في هذا الطرب الدخيل

فكان الفلمان يدخلون افواجاً وشعورهم مسترلة جدائل مفردة ومزدوجة وفي
ايديهم الدفوف او المزاهر او العيدان يدقون ويغنون والامين يطرب لكل صوت ويقهقه
ولا يطلب شراباً لانه ينوي الشرب في المصطبة

الفصل الخامس والعشرون

مجلس طرب في المصطبة

فلما مرّ الجميع اشار الى القيم اشارة اخرى و اشار الى رفيقه فهضا وسار بين
يديهما وقد فتح لهما القيم باباً في صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات الى دهليز
في جانبه ابواب مغلقة تستطرق الى غرف وقاعات عديدة وفي منتهى الدهليز وصلوا
الى المصطبة وكانهم خرجوا من الحباء الى الحلاء • فوجدوا المكان على سعته قد فرش
بالخمارق والطنافس وفي صدره فرش عالية فوق سرير من الابسوس المنزل بالذهب لارتقى
اليه الآ بكرمي وبين يديه عدة كراسي ووسائد فوق الطنافس وحوالي الاساطين او
الجدران • وقد نصبوا في وسط المصطبة سباطاً هو بساط من جلد جميل الصنعة فوقه
ملاحة من الحرير وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة علوها شبر
واتوا بالاباريق البلور او الفضة وفيها الاشربة والابنذة وبينها الاقداح على اختلاف
اشكالها والوانها ويتخلل ذلك اطباق الفاكة واللحوم الباردة ومزاهر الازهار ونحوها
وقد فاحت رائحة المكان بالاطيباب العطرية • فصعد الامين الى سريره و اشار الى ابن
عمه فجلس ثم التفت الى الفضل وقال « اراك لا تزال بشياك فاخلعها والبس ثياب
المنادمة » ف اشار مطيعاً فصاح الامين « يا غلام هات ثياب المنادمة »
فجاؤوه بشوب معصفر واصر الامين الا ان يجعل على راسه اكليلاً من الزهر مثله

فاطاع ثم صنف الامين فدخل القيم فقال « اليتا بالمغنيات . . هل اتانا من الجوارى احد جديد؟ »
فقال « كلاً يا مولاي ولكن عندنا من المغنيات غير واحدة ممن ليس في بغداد احسن
منهن حتى ولا في دار امير المؤمنين . . فهل آتي بهن؟ »
قال « هات الوصائف بالمرواح اولاً ثم اختر لنا احسن المغنيات لتعمل بهن ربنا
ياتي اولئك »

فخرج وبعد هنيهة اقبلت جارية تفتن الناظرين يظهر من ملامحها انها كرجية الاصل
دخلت المصطبة نافرة كأنها الغزال انفلتت من شبكة الصياد عليها قميص اسكندراني شفاف
يشف عن اثوابها جميعاً وفوقه قرطبي مفروج او هو القباه المفرد . وقد اشرق يياضها اشراقاً
باهراً وجعلت شعرها طرة اسبلتها على جبينها وتعصبت بعصابة قد نقش عليها بصفائح
الذهب هذا البيت :

مالي رميت فلم تصبك سهامي ورميته فاصبته يارامي
وقد ادارت صدغيها ونقوس حاجباها ولها عينان قد ملثتا سحراً وانف كانه قصبه در
وفم كانه جرح يقطر دماً . ويدها مروحة عريضة من ريش النعام مغطاة بالحرير المزركش
وقد طرز عليها بالذهب هذه الايات :

بي طاب العيش في الصبي ف وبني طاب السرور
ممسكي بنفي اذى الحمر اذا اشتد الحرور
الندي والجود في وجب ه امين الله نور
ملك اسمه الشيب ه واخلاه النظر (١)

وقد قبضت على المروحة بانامل منقوشة بالحناء فيها الخواتم وفي معصمها الاساور
والدمالج اذا حركت يدها لتزويج سمع لها خشخشة . وعلى صدرها هلال من ذهب مرصع
بالجوهر وقد نقش عليه هذا البيت :

اقلت من حور الجنان وخالقت فتنه من يراني
فلما دخلت افنتن جعفر والفضل برويتها ولكنهما تهيبا لعلهما انها وصيفة الامين
الخصوصية جاءت لتروح له . ثمشت وهي تنتقل على رؤوس اصابعها ولتأيل حتى دنت من
الامين فوسع لها الفضل فصعدت على دكة بجانب سرير الامين واخذت تروح بالمروحة
وفي يدها الاخرى منديل اذا تندى جبينه بالعرق مسحته له

ثم دخلت جارية اخرى يظهر من مجمل منظرها انها رومية الجنس عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الاحمر وقد وضعت على رأسها ضفائر شعر مسدلة كأنها العناقيد لتدلى الى اسفل ظهرها . وفوق الشعر تاج مرصع وفي عنقها عقد ثمين تعلق فيه صليب من الذهب المرصع وعلى التاج بيتان من نظم الحسن بن هاني (ابي نواس) وهما :

ياراميا ليس بدري ما الذي فعلا عليك عقلي فان السهم قد قنلا
اجربته في تجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا
ومتنطقت بمنطقة شدت زبار وعلقت المروحة بها وعلى المروحة هذا البيت :

اتهمون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

فلما دخلت هذه الوصيفة اشار الامين اليها فوقفت بجانب ابن عمه جعفر واخذت تروح له . ثم دخلت جارية ثالثة تختلف في شكل دندامها عن صاحبتيها وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التي تنسب الى سكينه بنت الحسين لانها اول من اصطنعها في المدينة منذ قرن وبعض القرن ولم تشد فوقها عصابة ولكنها كتبت فوق جبينها بالغالية هذين البيتين :

يا هلالاً من القصور تجلي صام طرفي لمقلتيك وصللي
لست ادري اطال ليلى ام لا كيف يدري بذاك من ينقللي
وقد لبست درعاً من القטיפه ايض اللون كتب على جانبه الامين بالتطريز :

كتب الطرف في فؤادي كتاباً هو بالشوق والهوى مخنوم

وعلى الجانب الايسر :

كان طرفي على فؤادي بلاه ان طرفي على فؤادي مشوم

فلما دخلت علم الفضل انها سنقف بجانبه تروح له فمشت وهي تلاحظ ما يبدو من الامين فاذا هو يشير اليها ان تذهب الى الفضل فوقفت الى جانبه واخذت تروح له



الفصل السادس والعشرون

المغنيات وابونواس

ثم دخل جماعة من الغلمان يحملون آنية الشراب وهم في ثياب مصبغة بالوان قوس السماء على احدهم ثوب احمر وعلى الاخر ثوب اسفر والآخر اخضر وعلى الآخر احمر واصفر معاً او من عدة الوان مما يهر النظر وكاهم في عنفوان الصبا بغاية الجمال مع نقاوة البشرة واكثرهم لا يعرفون العربية واذا تكلموها ظهر للسامع انها ليست لغتهم لان بعضهم من الصقالبة والبعض الآخر من الكرج او الترك او الروم ومعظمهم حديثو الاقامة في بغداد واكثرهم خصيان — وقد تفتن قيم الغلمان في تزويجهم كما تفتن قيمة الجواري في تزوين الوصائف اللواتي ذكرناهن . فكان على بعضهم قبالة كتب على عاتقه الايمن هذا البيت :

بدر على غصن نضير شرق التراب بالعبير

وعلى عاتقه الايسر :

خطات صفيحة خذته من صنحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بباريق الشراب الابريق في يد احدهم والكأس بيده الاخرى والكؤوس من البلور بعضها احمر اللون او ازرق او اخضر وبعضها من خالص الذهب وعليه نقوش كناية اكثرها اشعار في مدح الخمر ووصفها من امثلتها :

اشرب على منظر اتيق وامزج بريق الحبيب ريتي

واحلل وشاح الكعاب رفقا واحذر على خصرها الرقيق

وقل لمن لام في التصابي اليك خلي عن الطريق

وجلس الامين وصاحبه في انتظار المغنيات فاذا هم يسمعون ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية صفراء ليست من الجمال في شيء لانهم لم يكونوا يعلمون الجواري البيض الغناء بعد . ومشت وهي تضرب ضرباً مسكراً وتغني بصوت رخيم حتى اقبلت وفي اثرها اربع جوار يحملن العيدان يرقصن على توقيعها . فما سمع الامين الغناء حتى صاح « الي بصاحب الشراب » فجاء رجل هو رئيس السقاة فاخذ يدبر امر الساقين وارسل بعض الغلمان الى الامين بقدر دفعه اليه فشربه

وأمر للفضل وجعفر فسقاها • فتناولوا القدرين ولم يشربا وإنما اظهرا الشرب مسابرة للامين
اما الجوارى فجلسن على دكة من الوسائد معدة لهن في بعض جوانب المصطبة وبعد ان
دارت الكؤوس وطرب الامين قال « ابن الحسن بن هاني ••• ابن ابو نواس؟ »

فقال رئيس الخصيان « هو في دار الاضياف يا مولاي »

فقال « اليّ به الآن »

فذهب لاستدعائه فاسترجعه الامين قائلاً « احذر ان يدخل عليّ بغير ثياب المنادمة »
فاشار مطيعاً باخاء الراس وخرج وما عم ان عاد وهو يقول « ان ابا نواس في

الباب »

فقال وقد اخذته هزة الطرب « يدخل »

فدخل ابو نواس وكان جميل الصورة ومع انه تجاوز الاربعين من عمره فكان الجمال
لا يزال ظاهراً في محياه • وغلبت عليه ملامح الاهوازيين لان أمه منهم • وارخى حليته
وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلاً • وكان ازرق العينين تنجلي فيهما الدعابة والذكاء
معاً • وعلى رأسه بدل القلنسوة او العمامة قبة (طاقية) حمراء اللون وقد تزل بشوب
من ثياب المنادمة شديد الصفرة يكاد يتقياً الزعفران • فلما اقبل صاح الامين به « اهلاً
بشاعرنا ان هذا المجلس لا يحلو بلا شاعر ••• والشعراء زينة مجالس الفناء »

فانحنى ابو نواس ووقف فاشار اليه ان يجلس بجانب الجوارى المغنيات وأشار الى
بعض الغلمان فقدم له وسادة جلس عليها • فتذكر الفضل ابا العتاهية وان هذا وقته وكان
قد اسرّ اليه امراً لما فارقه وخاف ان يكون قد نسيه فاخذ يفكر فيه وهو يتشاغل بما يراه
ويسمعه من اسباب الالهو ويظهر التهيّب في مجلس ولي العهد وفي نفسه امور دفعه اليها جاره
جعفر بن الهادي • واغتم جعفر اشتغال الامين بسماع الفناء وسأل الفضل عن الجوارى
اللاتي ابتاعهن ووقى يسمان فأجابه بضم انامله جميعاً وهي اشارة الاستمهال كأنه يقول
له « انهن يصلن قريباً • ثم التفت الى ابي نواس وقال له « ألا تلقي من أقوالك شيئاً
يغنيته فيطرب ولي العهد؟ »

فلما سمع الامين قوله قال وقد لمبت الحمر في رأسه « لا لا يقول شيئاً قبل ان
يشرب رطلاً » وأشار الى الساقى فلأ رطلاً ودفعه الى ابي نواس فتناوله وشربه دفعة
واحدة وارجمه الى الساقى وأشار برأسه ان « هات ايضاً »

الفصل السابع والعشرون

الطرب بالطعن

فأعجب الامين برغبته في الشرب وضحك حتى استلقى وفي يده تفاحة يأكلها وقال له وفي فمه قطعة منها « اطربنا يا ابن الاهوازية »

فاجبه والمجون ظاهر في سحته « اريد مولاي ان اطربه بالمدح او الطعن »
فابتدره الفضل بن الربيع قائلاً « ألا تكف عن مزاحك ؟ كيف يسأل الامير هذا السؤال ؟ وهل يطرب احد بالطعن ؟ وهو انما سألك ان تلقي على هؤلاء القيان اياتاً يطرب لها مولانا »

فنظر ابونواس الى الفضل شزراً وهو يظهر الجون ايضاً وقال « وما ادراك ماذا يطرب الامير اريد ان تحترف صناعة المنادمة فضلاً عن الوزارة . . . ؟ اني اخاطب سيدي وهو يفهم مرادي »

فاستغرب الفضل جسارته واراد ان يجيبه فسمع الامين يقول « لقد فهمت مرادة » ثم التفت الى ابي نواس وقال « اطربنا بالطعن ليري الفضل ان الطعن قديطرب ما لا يطربه المدح . . . الق على الجارية بيتاً او بيتين من هذا القبيل »

فاصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم وحامت ابصارهم حول ابي نواس فاذا هو قد ادنى رأسه من الجارية التي بيدها العود واسر إليها اياتاً فسوت العود والكل سكوت حتى الامين ثم اخذت تغني :

عجبت هارون الامام وما الذي بودّ ويرجو فيك يا خليفة السلق^(١)
ارى جعفرأ يزداد بخلاً ودقة اذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعوه الناس الأ على حق^(٢)

وكانت الجارية تغني وتحميد في غنائها والامين يهتف طرباً عند كل مقطع . وتفتن الفضل لمر ذلك منذ بدأت الجارية في غناء البيت الاول فأدرك ان ابانواس يعرض بجمعفر ابن يحيى البرمكي عدوه فكان طربه أكثر من طرب الامين . وكان اطربهما جميعاً جمعفر بن الهادي فلم يتالك ان صاح في ابي نواس « لله درك ولافوض فوك » وكان في يده عقد من

الجوهر يتلاعب به بين انامله هم ان يرميه اليه فتذكر انه في حضرة ولي العهد ولا يستحسن ان يسبقه الى اجازة الشاعر فالتفت الى الامين واستأذنه بالاشارة فاذن له فرمى بالعقد الى ابي نواس فوقع في حجره فتناوله ونظر الى الامين كأنه يستشير في امره فضحك الامين وقال « اراك تبحث عن مكان تضع فيه هذا العقد ... ضعه هنا » وأشار الى الجارية الواقفة على راس الفضل وقال « فانها لك ايضاً ... ولكن بعد انقضاء هذا المجلس واذا زدتنا زدناك »

فوقف ابو النواس ليشكر ذلك الصنيع فأوماً اليه الامين ان يجلس ويعود الى ما كان فيه وأشار الى الساقى فأدار الافداح وهو يبدل الوان الانبذة من نبيذ التفاح فنبيذ التمر فنبيذ العنب وهي تتلألأ في الافداح بين الصفرة والحمرة والشهبة والصهبة . وأشار الامين الى صاحب الشراب اشارة فهم مراده منها فأمر احد الخصيان ان يقدم القدح الى ابي نواس بيده وكان الغلام جيللاً عبلاً جمعد الشعر وقد صففه على جبينه بشكل بديع فاخذت ابا نواس سورة الخمر فنظر الى الغلام ثم الى الامين فابتدره الامين قائلاً « صفه وهو لك » فتناول ابو نواس القدح من يده وقال :

يسعى بها خنت في خلقه دمئ	يستأثر العين في مستدرج الرائي
قد كسر الشعر واوات ونضده	فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
عيناه تفت داء في محاجر	وربما نفعت في صولة الداء
اني لاشرب من عينيه صافية	صرفاً واشرب اخرى مع ندائني

فلما سمع الامين شعره صاح فيه « ويلك ... كفى . هو لك »

اما الفضل فلما رأى الخمر دارت في راس الامين اراد ان يتنم الفرصة فقال له « هل نسي مولاي القيان البيض ؟ »

فقال « ويحك وكيف انساهن هل اتين ؟ » ونظر الى قيم الدار مستفهماً فقال « نعم يا مولاي قد جئن منذ ساعة »

فقال « اليّ بهن الساعة »

فخرج وما عثم ان عاد مهراً ولا مذعوراً وفي اثره رجل قصير قد اكتسى جلد فرد وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل في قمتها جلاجل وهو بفقهة فبقهة القردة ووثب حتى توسط المصطبة وأخذ في الرقص ففقه الامين وأغرق في الضحك حتى استلقى على ظهره ولم يبق احد لم يضحك وعلا الضجيج فقال الامين « أليس هذا ابا الحسين الخليل ؟ »

فانقبه القيم وقال « بلى يا مولاي هو بعينه فبجه الله انه ذهب بعقلي . . »

فقال الامين « دعه وامض الى الجوارى »

فعاد وتشاغل الحضور بالضحك ريثما عاد الرجل بالمغنية قرنفلثة ويدها العود تضرب عليه ضرباً رخيماً وقد تكحلت وتبرجت وارخت شعرها على كنفها . ودخلت الجاريتان الاخريان في اثرها ويدها كل منهما عود فوفقت بين يدي الامين وهي تضرب على عودها نغماً لم يسمع مثله من قبل فاولماً اليها الامين فجلست واخذت تغني هذين البيتين :

لم تلده امسة تعسرف في السوق اتجارا

لا ولا حرّاً ولا خا ن ولا في الخزي جارا

وكان الفضل في اثناء ذلك يراقب حركات الامين فاذا هو يرفس الارض برجليه طرباً ويصيح « صدقت صدقت فبجك الله »

ولم يستغرب الفضل ذلك بل كان يتوقعه منه لانه هو الذي اوعز الى ابي العتاهية ان يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الامين على اخيه المأمون لما فيها من التعريض به اشارة الى ان الرشيد حدثه في جارية وجدته معها (١)

الفصل الثامن والعشرون

اسماعيل بن يحيى

وعلاضبيج الضحك وتعال الضوضاء وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل . فقطع ضبيجهم نباح كلاب كان الامين قد جعلها على شاطىء دجلة وراء تلك المصطبة اذا رأت غريباً نبح نباحاً شديداً . فلما سمعوا نباحها أمر الامين بعض غلمانه ان يستطلع السبب فيخرج من باب مري يستطرق الى الشاطىء ثم عاد مسرعاً وهو يقول « أرى سفينة تدنو من الشاطىء اظنها حراقة اسماعيل بن يحيى الهاشمي »

فلما سمعوا ذلك الامم أسقط في ايديهم واقشعرت ابدانهم كأنك صببت عليهم ماء حاراً ولا سيما جعفر بن الهادي فامتقع لونه وظهت البغته على وجهه وأشار الامين الى المغنيات فسكنن وتحولت تلك الضوضاء الى دهشة واستولى السكوت على ذلك الجمع هنيهة

سمعوا في أثنائها ربان السفينة بنادي بجارته ان يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطي .
فوجم الامين وتجلد وقد ذهب سكره وتذكر حاله فنزع ذلك الاكليل عن رأسه كأنه يريد
ان يخفي مجونه وتهتكه واقتدى به غيره . ولكن أفتاً لم ان يخفوا مجونهم والافداح متناثرة
بين ايديهم والابريق مملوءة والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من اسباب
الخلاعة واللهو

علي ان الامين تجلد ونهض من تجلسه وصاح بغلامه ان يسأل اهل الحرافة عن
صاحبها فعاد وهو يقول « ان اسماعيل بن يحيى يستأذن بالدخول »
فقال « يدخل . . اهلاً به ومرحباً . . »

ولفظ الحضور رغبة الامين في اخفاء تهتكهم فاخرجوا الخليل وأمرؤا الجوارى بالسكوت
وجلسوا ينتظرون وصول اسماعيل وكان على رؤوسهم الطير . وما عثم ان رجع الغلام وفي اثره
شبح جليل المنظر وسيم الطلعة طويل القامة عليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة
حولها عمامة من خزّ وهو لباس العباسيين الرسمي

وكان اسماعيل بن يحيى من جملة بني هاشم رهن الخليفة . وكان من اهل التعقل
والحزم وزادته الشيفوخة وقاراً وهو عالي الجبين عريض المنكبين مسترسل اللحية وقد
اشتعل رأسه شيباً ولم يتعاط الخضاب ترفعاً عن بهارج الدنيا لانه كان حكيماً نير البصيرة
يرى الامور كما هي وبقدر الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم لا بحسب انسابهم وظواهرهم .
فمع كونه هاشمياً من اعمام الخليفة لم يكن يرى في النسب الهاشمي فضلاً على سواه الا اذا
قرن بالنقوى والصالحات . وكان مطلعاً على دخائل الدولة عالماً بما تنطوي عليه
شؤون اهلها . ولم يكن يحب الرشيد لانه هاشمي ولا يكره جعفر البرهكي لانه فارسي وانما
كان ينظر الى الامور من حيث هي . وغرضه الاول سلامة الدولة العباسية من العلل
وخلوصها من اسباب الفشل ولا يهسه على بد من تكون سلامتها

فكان ينظر الى ما يجري من الدسائس بين الرشيد ووزيره او بين الامين واخيه او بين
غيرهما من الاحزاب المتناقضة نظر الحكيم الناقد يشرف على اهواء الناس من سماء تعقله
وفلسفته ويسمى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفسد ذوي المطامع الدنيوية
وارباب الاهواء النفسانية . فلم يكن يهمه ان تفضي الخلافة اليه بقدر ما يهيمه صلاحها
وتوطد دعائمها وطول بقائها . وكان اعلم الناس بمواضع الضعف من الرشيد ووزيره
وبمواضع القوة منهما وله الدالة على كليهما والكلمة التساندة عندهما ولا سيما الرشيد

فقد كان يحمله ويحترمه ويعظم شأنه لما تحققه من كبر نفسه ونزاهته وسلامة نيته فضلاً عن
ذكائه وسداد رأيه . وطبيعي في من كان هذا شأنه ان يهابه الناس ويحترمونه حتى الملوك
فانهم معهما بلغ من صلتهم وكبرياتهم لا يحقرون رجلاً لا يجتمعون به الا لنصيحة يتحققون
بالاختبار انها صادرة عن محض الاخلاص . ولا يتباحثون معه الا انسوا منه تعقلاً
فوق تعقلهم . فكيف اذا اضيف الى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشجوخة . فلا
غرو اذا نال اسماعيل هذه المنزلة عند الرشيد او رجال دولته لاشتهاره بالغيرة على سلامة
الدولة والنفاي في سبيل مصلحتها . على انه لم يكن يقدم على نصيحة او مشورة الا اذا راي
النصح نافعاً والقول نافذاً ولا يقول الا صريحاً فاذا افترق الى تلون اورياه تباعد وتحاشى
ولذلك فلم يكن يعجبه الامين ولا يرى نصحه نافعاً فكان يتبعد عنه ويحاذر ان يحضر مجالسه

الفصل التاسع والعشرون

الدهشة

اما عجيبه في ذلك اليوم فسببه انه كان رقيباً على ابن الهادي من عند نفسه لعله بما
يكنتمه من الحقد على الرشيد والبرامكة وبلغه انه يجالس الامين ويعاشره فلم يعجبه ذلك
منه . وكان اسماعيل وجعفر بقيان في البصرة مثل اكثر بني هاشم المتقاعدین الذين يعيشون
برواتب الخليفة وحياته من الاموال والضياع فينغمسون بالترف والقصف ويقضون ايامهم
بين تجالس الانس والغناء والخلفاء يسهلون لهم هذه الاسباب ليضعفوا عزائمهم عن
النهوض لمنازعتهم على الخلافة ويشغلهم عن الدسائس السياسية بالجوارى والقيان ومعاطاة
الكاس والطاس

اما اسماعيل بن يحيى فقد كان عفيفاً حازماً يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفتهم وعلم
ان النصح لا ينفعهم فكف عن نصيحهم الا جعفر بن الهادي فانه كفته من صغره مذمات
ابوه فشب جعفر لا يشرب مسكراً ولا يميل الى اللهو وانما كان يعاشر الامين ويفريه على
زيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفي على اسماعيل . وكان اسماعيل يخاف بقاءه
على عزمه لانه لا يرى فيه صلاحاً للدولة بل هو يخاف عليها منه . وكثيراً ما نصحه في الرجوع

عن ذلك وهو بعده ويختلف . وعلم منذ ايام وهما في البصرة ان جعفر أتى بغداد فظنه جاءها لترويح النفس او لقضاء بعض المصالح او ليقبض عطاءه فلما ابطأ خاف عاقبة ابطائه فاحق به وهو يظهر انه آت لغرض له . فلما وصل بغداد واستطلع اخباره علم انه نازل في قصر الامين لا يخرج منه . فلم يربدًا من مقابلته هناك وكانت له سفينة في دجلة اذا جاء بغداد ركب فيها فامتطأها في ذلك اليوم وقصد قصر الامين فوجده على تلك الحال

فلما دخل اسماعيل على مجلس الامين تهيب كل من كان فيه حتى الامين مع سكره وتهتكه فتجلد ووقف للملافة ذلك الشيخ الجليل ولم يكن يحلم ان يراه على هذه الصورة . وأما جعفر فوقف منزويًا وقد ارتج عليه . ولم يبق ثابت الجاش متجلدًا الا الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلًا عن دهائه . فانه تقدم الى اسماعيل وتبسم له ورحب به واظهر رغبته في تقبيل يده وهو يقول « مرحبًا بولاي » وقدم له كرسيًا وكان الامين قد نزل عن سريره ورحب به ايضًا

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجواري والعمان والعيدان والاباريق والاقداح وغير ذلك من اسباب الانس والطرب فعلم انه اذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم فتظاهر انه لم يكن يقصد الزيارة في تلك الساعة ولكنه توهم انه سمع صوت جعفر هناك — قال ذلك وهو يتجاهل انه رآه

فظهرت الوجع على وجه جعفر واقبل متأدبًا وهو يتجلد وعلم ان اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال « قد كنت عازمًا على الخروج من الصباح فامسكني ولي العهد في هذا المجلس لسمعني غناء الجواري البيض والبسني ثياب المنادمة . فاذا احب سيدي ان انطلق في خدمته فعلت »

فاظهر اسماعيل انه مسرور ببقياه وقال « لا بأس يا ولدي فاني مشتاق الى رؤيتك فاذا احببت الانصراف انزل معي الى السفينة ودع القوم في مجلسهم فان مقامي لا يتفهم » قال ذلك وتحوّل ومشى فاستاذن جعفر في تبديل ثيابه ثم بلحق به الى السفينة

خرج اسماعيل واهل المجلس سكوت تهيبًا وقد سرّ الامين بذهابه . اما جعفر فامرغ الى غرفته فلبس قلنسوته وسواده ونزل الى السفينة فوجد اسماعيل تشبى على ظهرها وقد ارسل قلنسوته الى الوراء وظهر الاهتمام في جبينه وعينه . فلما اقبل عليه ترامي على يده ليقبلها فغذبتها منه وقال « ما هذا المجلس يا جعفر ؟ أمثلك يتعل ذلك ؟ »

فتراجع واظرق ولم يجب وامر اسماعيل ربان السفينة ان يمضي بهم الى مرمى بعيد عن القصر

وامسك جعفر بيده وسار به الى مقعد في مؤخر السفينة بشرف على الماء واجلسه الى جانبه
ولما جلسا قال اسماعيل « لم يكن عهدي بك بمجالسة هذا الغلام في مثل هذا المجلس فهل
طاب لك اللهو والتهتك ؟ »

قال « هل ترى في أثر الشرب ؟ اني والله لم اذق الخمر . . . »
قال « لا اقول انك تسكر ولكنني اعهد فيك التعقل والزّانة وكنت احسبك اذا
لقيت الامين في مثل هذه الحال انبته ووبخته لا ان تجلس معه وتسايره . . . »

الفصل الثلاثون

مقتل الهادي

فتنهذ جعفر وحوّل بصره الى مقدم السفينة بتشاكل بما يراه من سبر النوتية قاع النهر
بالعمد ليسيروا بالسفينة الى مأمن . فلما رأى اسماعيل سكوته وتشاغله ادرك ما يضمه وقال
« يخيل لي انك لا تزال على سوء نيتك في هؤلاء . وكانك لا تزال طامعاً . . . »
فلم يتالك جعفر عن قطع الحديث قائلاً « لا نقل طامعاً ياسيدي فاني غير طامع وانما
انا اطلب حقى . . . »

قال « واي حق تعني ؟ »
قال « اعني . . . » وخفض صوته وهو يتلفت مخافة ان يسمعه احد ثم قال « اعني
ان هؤلاء الموالي سلبوني حقى بعد ما قتلوا والدي واخرجوا الخلافة من بدى وأنت تعلم اني
اولى الناس بها . . . »

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال « لا اجادلك في ماتدعيه من الحق ولكنني لا أرى
علاقة بين ما تطلبه وما تفعله . . . ما هي العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس
وقد طالما دافعتني بمثل هذا المقال فاخبرني ما هو حقك ومن تطلبه ؟ »

فقال جعفر وقد تجلّى الغضب بين حاجبيه « اسمح لي ان اصرح بما في نفسي . . . اني
اتهبب من ذلك بين يدك »

قال « قل . . . لا تخف فاني اذا رأيت طلبك صواباً اعتنتك عليه والا فاني انصحك
واكتم أمرك »

قال « انت تعرف والدي الهادي رحمه الله وتعلم انه تولى الخلافة بوصية جدى المهدي وان والدي اوصى لي بالخلافة بعده »

قال « اظنك تطمع بتنفيذ وصيته وانت تعلم انه ارتكب بهذه الوصية شططاً لان المهدي رحمه الله انما اوصى بالخلافة لايك ثم لعمك الرشيد بعده فلما تم له الامر اراد اخراج الخلافة من الرشيد ومبايعتك بها فهل تعد هذا حقاً ؟ »

قال « لا انكر عليك انه خرج بذلك عن وصية المهدي ولكنهم راجعوه فرجع واعاد البيعة الى الرشيد على ان تكون لي الخلافة بعده — ألا تذكر ذلك ؟ »
قال « بلى اذكره »

قال « فما بالهم فتكوا على اثر ذلك بوالدي وقتلوه ولم يجلس على عرش الخلافة الا سنة وبعض السنة ؟ »

فقال وهو يظهر الاستغراب « قتلوه ؟ ومن قتله ؟ لا اعلم انه مات مقتولاً وانما توفي من مرض ولوزعت ان امه الخيزران ساعدت على قتله لرأيت مسوغاً لهذا الزعم واما غيره فلا .. »

فتضحك جعفر وقال « لا يبعد ان تكون الخيزران ارتكبت هذا الجرم كما يقولون لان والدي اغضبها بكف يدها عن التداخل في شؤون الدولة ولكنها فعلت ذلك مدفوعة باغراء ذلك الفارسي ... » قال ذلك وحرق اسنانه
فقال اسماعيل « اظنك تعني يحيى بن خالد »

قال « اياه اعني . نعم اياه اعني والدليل على ذلك انه هو الذي وقف في سبيل والدي وعارضه في امر البيعة وكان الرشيد قد اذعن للخلع ورضي بتحويل البيعة اليه ولكن يحيى هذا حرض الرشيد على رفض هذه البيعة وما زال حتى وافقه والدي ان يرجع البيعة اليه على ان اكون انا الخليفة بعده . فلما وافقه على ذلك اسرع الى الغدر به ولم تمض ليال قليلة حتى قيل ان الهادي مات وزعموا ان جدتي الخيزران قتله ولكنني اعتقد انها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائه الا تذكر انه كان اول العارفين بالوفاة فهول ليلاً الى الرشيد وبشره بذلك ؟ » وقد عرف الرشيد فضله والقي مقابليد الحكومة اليه كما تعلم . ثم افضت الامور الى ابنه جعفر الوزير الحالي وهو في ما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح ان يقال انه هو الخليفة وليس الرشيد »

الفصل الحادى والثلاثون

البرامكة والدولة

وكان جعفر يتكلم والعرق يتصبب عن جبينه واسماعيل مصغ الى قوله وربما كان رأيه في هذا الامر مثل رأيه ولكنه لم يكن يرى ان يشجعه عليه لاعتقاده مخالفة ذلك لمصلحة الدولة مخافة ان يأول الانقسام الى فسادها فعمد الى المدافعة فقال « اراك سيىء الظن بالبرامكة كأنك تجاري اعداءهم في الطعن باعمالهم وانت تعلم ان للبرامكة فضلاً على هذه الدولة لا يضارعه فضل . وانا هاشمى كما تعلم والخليفة من الحمي ودمي يسوءني ما يسوءه ويسوءني ما يسوءه . ولكنني أراكم ظلمتم هؤلاء الموالي ونسبتم آثارهم في تنظيم هذه الدولة من عهد جدكم خالد - ألم يكن خالد من اكبر اعوان ابي مسلم في نقل هذه الدولة من الامويين الينا . فلما قتل ابو جعفر المنصور اباسلم وثار الفرس والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يديه لو لم ينجده خالد . ويضمن له التغلب عليهم بالرأي دون الجنود . ناهيك بما كان من تدبير شؤون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر - ان البرامكة يا ولدي هم جمال هذه الدولة وقوام اهلها وهذه بغداد كيفما تلفت رابت آثار تدبيرهم في معاهدها . فقد اقاموا فيها المكاتب والحلقات ومنازل الجند وما وى المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة . وان ما تراه من رواج العلم والفلسفة ونهايت اهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس انما اصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء . اليس يحيى بن خالد اول من عني بتقل المجسطى من اليونانية الى العربية ؟ وهل تنكرانه هو الذي سمى في جمع الكتب من الهند وغيرها . . . ؟ اليس البرامكة هم الذين استقدموا اطباء الهند لترويج صناعة الطب بهم . ان هؤلاء الاطباء بين ظهرائنا الآن وخصوصاً منك الهندي الذي اشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه حتى كدنا نأمن من حياته فعالجه وشفاه . اليس هم الذين رغبوا الرشيد في انشاء المارستان وولوا عليه طبيباً هندياً من هؤلاء وانشأوا مارستاناً لانفسهم واولوا ادارته الطبيب الهندي ابن دهن ؟ . وهل خفي عليك ما للفضل بن يحيى من الاثر الجميل في استخدام الكاغد فاني لا انسى تضابق اصحاب الدواوين من استعمال الجلود والرقوق للدقار والدروج

والسجلات حتى اشار الفضل المذكور بالكاغد فانشأنا له المعامل في بغداد كما ترى . واراني لو اردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاثيان على آخرها وانت تعلم عصيبي في هاشم وغيرتي على هذه الدولة ورغبتني في سلامتها (قال ذلك وتهدي) فلا يعقل ان اقول ذلك عن نهوش او غرض وانما اقول الحق الصراح . فلا يفرّك ما تراه من نعمة ابن الربيع وامثاله عليهم وطعنهم فيهم فانهم يفعلون ذلك عن حسد لتقصيرهم عن مجاراتهم « وكان جعفر في اثناء تلك الخطبة مطرفاً ينظر في حركة الماء الملامس لجدار السفينة وهي سائرة الهويناء وكأنه استغرق في هواجسه فلم يفهم كل ما سمعه . فلما فرغ اسماعيل من كلامه اتبته جعفر وقد ضاقت نفسه من سماع الاطراء بالبرامكة وهو بكرهم كرهاً شديداً . ولا يرى سبيلاً لدفع أدلة اسماعيل فلم يبرّ اختياراً من استئناف الكلام عنهم فقال « هب انهم ملائكة نزلوا من عليين لم يقللوا والذي ويخرجوا الحكم من يدي ؟ »

قال « ان دعواك عليهم منقوضة او هي غير ثابتة على الاقل اذ لم يقل احد ان يجي ابن خالد قتل والدك او سعى في قتله لاجراخ الامر من يدك »

قال « اما انه قتله فلا ريب عندي فيه وان خفي على الاكثرين . واما انه فعل ذلك لاجراخ الحكم من يدي بذلك عليه انه بعد ان وافقه والذي على ان يبايع للرشيد قبلي عجل قتله قبل تمكين البيعة لي ولما تم الامر للرشيد فبدلاً من ان يبايع لي يبايع لابنه هذا المنتهك واضنه كان عازماً ان يجعل الخلافة لي بعد الامين فاغراه وزيره البرمكي على مبايعة ابنه الآخر المأمون فاصبحت صفر اليدين ووالله لو » وتململ

فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلاً « اني لا عجب من تباين اعمالك وتناقض اقوالك كيف تكون ناقماً على هذا الغلام وتجالس في مجلس المدام وتعاشره في احوال الغرام ؟ ثم اني لا افهم معنى هذه النعمة ولا كيف يمكن لك نيل بعيتك وهذا الرشيد على كرسي الخلافة وحوله الجند والاعوان وبنو هاشم يتصرفونه ويؤيدونه وقد بايع بالخلافة لولديه الواحد بعد الآخر وهم سيتولون الخلافة بعده فلا ارى لنقمتك محلاً ولا الى غرضك سبيلاً .

فاقلع عما يجول في خاطرك من الافكار الصبائية وانت تعلم غضب الرشيد اذا اطلع على شيء مما في نفسك فان لحملك يتناثر نفاً بين السماء والارض . ولكنني كنت امرك واكتمه لاني ارجو صلاحك ورجوعك واما اذا تحققت بقاءك على عزمك فخرصي على سلامة الدولة يبعثني على التفريط بك . . . الا اذا رأيت في اعمالك سداداً — فاخبرني كيف ترجو الوصول الى الخلافة ؟ »

وكان لتهديد اسماعيل وقع شديد على جعفر وهو يحترمه ويخافه فضاقت نفسه وانخبست عواطفه وكاد يخنق لو لم ينفرج بدمعتين تعلقنا بين المآقي واطرق خجلاً من ظهورها . وظهرت الحيرة في وجهه لكنه لم يتالك عن الجواب فقال « اراك مستحقاً لي وباعمالى وتحسب انى اخبط في اقوالى فاعلم يا عماء انى لا اجهل قصر باعى عن مناوأة الرشيد وهو في جنده واعوانه ولا انا ظامع في ذلك وانما اطمع بنيل الخلافة بعده وهذا حين اذا سقط وزيره البرمكي — اسمع كلامي الى آخره — إن الرشيد متى مات فاخلافة تنضي اولاً الى الامين هذا وهو لا يصلح لها ولا اراه يزداد الا انغماساً في القصف والترف والخلاعة واللهو ولا اظن اهل الدولة الا خالعيه فيبقى اخوه المامون وهو والحق يقال ذو عقل وحزم ولكنني لا ارى احداً من الهاشميين يحبه لانه ينتمي الى اخواله الفرس . ولا اظنك تجهل ان جعفر البرمكي هذا هو الذي سعى في مبايعته بالخلافة لغرض في نفسه لا بقل عن اخراج الدولة من ايدينا — ارجو الاصفاء الى آخر كلامي — فالعقبة الوحيدة في سبيل استرجاع حقي في الخلافة وجود هذا الفارسي وهو يستحق القتل اذا لم يكن انقماماً لي عن فعل ايه بابي فلانه استاثر باموال المملكة لنفسه ولاهله . وانت ترى ان دخلهم من ضياعهم ربما ضارع دخل بيت المال . فقد اخبرني سهل بن هرون وهو اعلم الناس بذلك ان مبلغ جباية هؤلاء الموالي ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(١) في السنة من ضياعهم ومرافقهم ولا يخفى عليك يا عماء ان مجموع جباية المملكة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب لا يزيد عن هذا القدر كثيراً فقد علمت من صاحب بيت المال ان مجموع جباية الدولة نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٢) أو ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالالف والعشرة آلاف كاننا نستعطي — ناهيك باسباب الابهة التي استاثروا بها حتى لقد ترى الخيول الواقفة يباب جعفر هذا اضعاف ما يقف يباب الرشيد . فما ادرانا ما يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذامات الرشيد وتولى الامين وهو لاه كما تراه الا تذهب الدولة من ايدينا ؟ اما المامون فاني اعترف بحزمه ولكنني لا اراه غيراً على استبقاء الخلافة في اهل بيته ولعل ذلك من اتصال نسبه بالفرس من أمه او لانصياعه الى مشورة مريه جعفر . . . »

الفصل الثاني والثلاثون

العالية بنت الرشيد

فأعجب اسماعيل بتدبير جعفر ولعله زاي قوله صواباً ولكنه لم يكن يعتقد حسن عائدة ذلك على الدولة فأخذ يدافع فقال « اما ثروة البرامكة فلا انكر عليك ضخامتها ولكن ما يدخل من ريعها انما ينفقه البرامكة على الناس بالسخاء او الاحسان او الرواتب فمن مناً لا يستولي على راتب او هدية من جعفر او غيره ؟ . وقد علمت عن ثقة من صاحب بيت مالهم ان ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار من هذه الجباية اي اكثر من نصفها يجعل بدرأ عليها صكوك مخنومة وعلى كل بدرة اسم صاحبها من اهل الدولة او غيرهم على سبيل الهدية . فالملل راجع الى الدولة واهلها ولا اظن الخليفة يفعل اكثر من ذلك . ثم ان مقتل هذا الرجل خطر على الخلافة — حتى الرشيد نفسه لو اراد قتله لم يستطع اليه سبيلاً لان اكثر رجال الدولة من مرديبه وقد غمروهم بالعطاء والمعروف . . . فاقلع عن هذا وذاك واصغ لنصحي فاني ضنين بشبابك حربص على حياتك والرأي عندي ان تنقرب من الرشيد فذلك خير لك وابقى وانا اضمن ما تبغيه من القربى بل انا اسعى في ذلك بنفسي »

فلما رأى اصراره على مقاومته تظاهر بالقبول مخافة ان يفشي أمره اذا اغضبه فقال « وما هي وسائل القربى ؟ »

فأنس اسماعيل قرب رضائه فسر لزوال تلك العقبة من طريق الدولة فقال « ما هو اقصى ما يطمع به الناس في التقرب من الخلفاء ؟ . غير ان يتزوجوا بناتهم ؟ فاعدك ان الرشيد يزوجك ابنته العالية . فاقولك ؟ »

ف رأى جعفر ان ذلك الزواج اذا تم لا يقف في سبيل بغيته بل هو قد يساعده على تنفيذها فآظهر الاستحسان ولكنه قال « انها قربى عزيزة ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » وضحك

فقال « لا تكن سيئ الرأي بالرشيد الى هذا الحد فانه اقوى عزيمة وأشد بأساً مما تظن . وانا اضمن لك ذلك في كل حال انما اقدم اليك ان ترجع الى البصرة ربنا اوفيك بالخبر » قال « سأذهب حسب امرك ولكنني لا ارى ضرراً من بقائي هنا حتى تنقضي

هذه المهمة . »

قال « حسنًا فاذهب انت الآن الى قصري وانا أمضي غدًا الى الرشيد في هذا الشأن »
فقال « ولكن ألا تأذن لي أن أعود الى الامين فاودعه وآتي ببعض الامتعة التي
تركتها عنده فأبيت الليلة هناك ؟ »
قال « اذهب بحراسة الله »

وكانت الشمس قد دنت من المغرب فطلب جعفر الى اسماعيل ان يأذن بانزاله من
السفينة ليركب زورقًا يعود به الى قصر الامين »

فامر اسماعيل بايقاف الحرافة بجانب الشاطيء ورأى جعفر هناك زورقًا ركب فيه حتى
عاد الى قصر الامين وقد اقبل العشاء واضلم الليل فوقف عند المصطبة فنجحت الكلاب
وكانت كبيرة هائلة تخاف اذاها ولبت واقفاً عن بعد يتردد بين النزول من هناك او الدخول
من الباب الآخر وراء البستان . ولاحظ في اثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس اذ لم
يسمع فيها غناء ولا راي نوراً فعزم على المسير في الزورق الى الباب الآخر والطريق اليه بعيد
وهو يفكر في ذلك اذ راي نوراً يظهر في المصطبة ويدنو من السور ثم سمع لفظاً خفيفاً
واذا بيد امتدت فوق الحائط والمصباح في قبضتها فلما رات الكلاب المصباح سكنت ثم اطل
رجلٌ عرف جعفر من قيافته انه قيم الغلمان فناده فقال الرجل « سيدي جعفر ؟ »
قال « نعم . . هل ادخل من هنا ؟ »

قال بصوت ضعيف « تمهل قليلاً ريثما اعود اليك » وتركه وعاد بمصباحه وجعفر واقف
في الزورق ينتظر رجوعه ويفكر في سبب هذا التسرُّر وبعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيم
يقول « تفضل على مهل »

فاستغرب جعفر هذا التخوف وتحول من الزورق ومشى حتى دنا من الباب السري فقابله
الرجل بالمصباح وقال « تفضل يا مولاي ادخل »

فدخل الرجل يمشي بين يديه بالمصباح فمرًا بالمصطبة فرأى آثار الشراب والطعام لا
تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد . فتعجب في أمره وحدثه نفسه ان يستفهم
عن سبب ذلك التغيير ثم امسك والرجل يسير امامه حتى تجاوزا الدهليز الى القاعة الوسطى
في دار النساء فرأى المنائر في زواياها وجدرانها قد اضيئت شموعها وليس هناك احد فلم
يتألك ان سأل الرجل « اي هو مولانا ولي العهد ؟ »

قال « انا ذاهبان اليه يا سيدي تعال معي ولا تفجر »

الفصل الثالث والثلاثون

خبر جديد

فمشى جعفر في اثر القيم وهو يدخل من قاعة الى قاعة وكلها مضيئة بالشموع على المنائر وفيها الرياش الفاخر يختلف في كل قاعة لوناً وشكلاً عما في القاعات الاخر حتى وصل الى باب مقفل وقف القيم عنده ونقر عليه نقرًا خفيفاً فسمع جعفر حركة ثم فتح الباب واطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال بثوب المنادمة كما فارقه وامسك يده وادخله وهو صامت فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الامين جالساً على طنفسة وهو ايضاً بلباس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف فعرف انها جارية ورأى على وجهها آثار الاهتمام فحيام ووقف فامر الامين بالجلوس قائلاً « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب » فجلس وجلس الفضل الى جانبه فقال الامين « قد جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا . انها من جوارينا وقد اقتناها رسداً لنا على ذلك الوزير فاسمع ما جاءتنا به عن حياتها »

فاستبشر جعفر بما سمعه وتطاول بعنقه نحو الجارية ولبت صامتاً فاذا هي توجه كلامها للامين وتقول « انت تعلم يا مولاي ان يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج على الدولة في الديلم واجتمع حوله جماعة الشيعة وكلهم ناقم على بني العباس يريدون اخراج الخلافة من ايديهم على ما يزعمون . وبعث امير المؤمنين الرشيد لحرهم غير واحد وهم بزدادون تمرداً حتى انفسد اليهم الفضل بن يحيى اخا الوزير جعفر فلما وصل بجنده الى الطالقان وعلم ان الرجل ممتنع في حبال الديلم احتال في استزاله واستقدمه ووعدته خيراً . فوثق يحيى بمواعيده لانه من الشيعة مثله فجاءه قتلطف في معاملته وطلب اليه ان يصحبه الى بغداد ويسلم نفسه لامير المؤمنين فاني فاستجنته على الذهاب على ان يشترط ما اراده ويكتب له الرشيد بذلك خطه . فتم الوفاق بينهما على عهد امان كتبه الفضل وبعثه الى مولانا الرشيد فامضاه فجاء الرجل كما تعلمون حتى اتى بغداد فاستقبله امير المؤمنين احسن استقبال واجرى له ارزاقاً سنوية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين ان الرجل لا يزال عاجزاً على الخروج »

فقطع الامين كلامها وقال وهو يهز رأسه « نعم انه ما زال على سوء قصده وهل تصفو قلوب أولئك العلويين لنا بعد ان بلغ العداة بيننا وبينهم الى هذا الحد . ؟ ولا قلوبنا تصفو لهم »

فقال جعفر « ومن ادرانا ان الفضل لم يتواطع صاحبه بجي العلوي سرّاً على أمور تقضي بالتربص حيناً ريثما يخرجون جميعاً علينا ؟ . . . »
فقال الفضل « وهذا الذي خامر فكر امير المؤمنين على ما يظهر لانه بعد ان اعطاه العهد عاد فافسده كما ستسمعون . . . »

فانت الحبارية كلامها وهي تنظر الى الامين « نعم ان مولانا الرشيد افسد ذلك العهد لا ادري لاي سبب ولكنني علمت ان آل الزبير وشوا بذلك العلوي فامر امير المؤمنين بالقبض عليه وحجسه وانتم تعتقدون الآن انه في الحبس »

فاستغرب الامين قولها وقال « لا بد من ان يكون هناك »
قالت وهي تبسم « كلاً يا مولاي انه الآن في طريقه الى اهله »
فصاح الامين « ماذا تقولين ؟ ومن اطلقه ؟ »

قالت « اطلقه الوزير جعفر . . . »

فقال « وكيف ذلك . . . ما هذه الجسارة ؟ »

قالت « دعني اقص عليك ما رأيته رأي العين في غروب هذا النهار »

فتناولوا السماع حديثها فقالت « كان الوزير جالساً عصاري هذا النهار في غرفته الخاصة من قصره والخدم والجواري مشغولون بشؤونهم الا انا فقد كنت حريصة على مراقبة من يدخل او يخرج فرأيت بجي بن عبدالله العلوي المذكور داخلاً وحده دخول المتلصقين ولبس معه احد من الحاشية فعلمت انه جاء خلسة فراقبت طريقه فرأيت دخل على الوزير وجلسا في الغرفة وليس معهما ناك فعلمت انهما لا امر ما احتلها هناك فدرت من ناحية أخرى الى غرفة بينها وبين هذه باب مقفل يمكن الاطلاع من بعض ثقبه على من فيها . فوقفت هناك فرأيت العلوي لمسا دخل وقف له الوزير ورحب به وأجلسه بجانبه وبش له وامر الخادم ان يقفل الباب عليهما فلما استقر بهما الجلوس سأله الوزير عن حاله في الحبس فبكى وشكى الى ان قال « اتق الله يا جعفر في امري ولا تعرض ان يكون خصمك جدتي محمد (صام) فوالله ما احدثت حدثاً يوجب ذلك » فصارغ العلوي من قوله حتى رأيت الوزير بلاطفه ويخفف عنه

بكلام لم افهمه ولكنني فهمت اخيراً قوله « اذهب حيث شئت من البلاد »
 فلما قالت الجارية ذلك بدت الدهشة في وجه الامين وقال « تبحه الله على هذه
 الجسارة بل هذه الحيانة كيف يطلق اسيراً امر والذي يجسه ؟ وبعد ذلك ماذا فعل ؟ »
 قالت « فاجابه الرجل : كيف اذهب وانا اخاف ان أوخذ قارداً »
 قال الفضل « صدق والله . . . »
 فقال ابن الهادي « وكيف اطلقه اذاً ؟ »
 قالت « انه طمأنه وبعث معه رجلاً من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه وقد رأته خارجاً
 وهو يثني على الوزير والوزير يشجعه ويطمئنه . . . »
 فصاح الامين « فقد نجا العلوي اذاً . . . ! »
 قالت « نعم يا مولاي فعزمت من تلك الساعة ان اسرع اليك لاقص هذا الخبر عليك
 فلم استطع الخروج قبل الآن »
 فنظر الامين الى ابن الهادي كأنه يستطلع رأيه في ذلك فأوماً اليه ان يصرف الجارية
 فادرك انه يجنب الكلام بحضورها ف اشار اليها ان تمضي الى قبة الجواري وهي تقوم
 بمكافأتهما فهضت وقلت طرف ثوب الامين وخرجت
 فلما خلا جعفر بالامين والفضل اخذ في تعظيم ما سمعوه ليغريهما على الفتك بالبرمكي
 فقال « ان الصبر على هذا التطاول ضعف » ولبث ينتظر ما يبدو من الامين فاذا هو
 يضحك ويقهقه فاستغرب ضحكه فقال « وما الذي يضحك مولاي اظنه يريد ان شر
 البلية ما يضحك »
 قال « كلا ولكنني اضحك لما اتوقعه من استغرابك اذا سمعت ما قصته علي الفضل قبل
 مجيئك » والتفت الى الفضل كأنه بأمره بقص الخبر
 فالتفت جعفر الى الفضل فرآه يقول للامين « اخن مولاي يعني خبر مولاي العباسة »
 فأوماً برأسه ان « نعم »
 فازداد جعفر شوقاً لسماع الخبر فاخذ الفضل يقص عليه ما جرى له في فجر ذلك اليوم
 في دار الرقيق وما قصه عليه ابو العتاهية من تلصصه وما رآه وسمعه وجعفر مضغ وقد
 تولته الدهشة فلما فرغ الفضل من حديثه لم يثالك ان وقف وصاح « بالخيانة ! كيف تصبرون
 على ذلك ؟ لماذا لا يعلم امير المؤمنين بهذه الخيانة ؟ »
 فقال الفضل « اما خبر العباسة فلا يجسر احد على نقله الى الرشيد مالم يعرض حياته

لخطر لما نتوقعه من غضبه والعياذ بالله .
 فقال جعفر « كيف نطالع على هذه الخيانة ونكتسبها ؟ ان كتبنا خيانة أخرى »
 قال « لا بد من الاحتيال في ابلاغه ذلك على يد معنيه بالاشارة او التلميح
 او التعريض اما خبر فرار العلوي فيسهل نقله . . . »

فاقتنع جعفر بذلك لعلمه ان خبر العلوي وحده يكفي للفكك بجعفر وهذا ما يتمناه
 ويرضيه فأخذ يحسن له الاسراع في نقله ثم التفت الى الفضل وكأنه تفتن لامر هام
 وقال « واين ذهب الطفلاق ابنا العباسة ارجوان لا يكون قد فاتكم ادراكهما والقبض
 عليهما والاحتفاظ بهما لحين الحاجة لان نقل الخبر اذا لم يكن مؤيداً بوجودهما فيالشقاء
 ناقله وقصر عمره . . . »

فقال الفضل « لا استجباني الى هذا الحد . . . فاني حالما سمعت القصة انفذت جماعة
 من رجالي واما العتاهية معهم للقبض على الغلامين ولم يرجعوا اليّ بالخبر بعد . . . على اني
 لا اخاف ان يفوتهم القبض عليها . . . »

وهم في ما تقدم من الحديث سمعوا وقع اقدام في الغرفة المحاذية ثم قرع الباب فرعاً تعود
 الامين سماعه من غلامه اذا جاء لمسارته في شان فنهض الفضل لفتح الباب فاطل الغلام
 وظل واقفاً بالباب ففهم الامين انه يريد مسارته وفهم جعفر والفضل ذلك فاستأذنا بالخروج
 فاذن لهما ودخل الغلام فقال « ان بعض رجال الشاكرية جاءنا الآن » فعلم انه رسول من
 عند والدته زبيدة لانها اول من اتخذ الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب في جهاتها
 ويذهبون في حواشجها برسائلها وكتبها^(١) فقال « وماذا يريد »

قال « جاء يدعوك الى مولانا السيدة زبيدة لانها تحب ان تراك في صباح الغد
 لامر هام »

فقال « قل له اني مصبح اليها باكرًا ان شاء الله »
 فخرج الغلام وكان الليل قد سدل نقابه فذهب كل الى فراشه

الفصل الرابع والثلاثون

زبيدة بنت جعفر

في زبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور وابنة عم الرشيد اخي ابيه تزوجها سنة ١٦٥ هـ وهي تفاخر بنسبها الهاشمي سائر نساء الرشيد لانهن من امهات الاولاد ولذلك كانت عنده في المنزلة الاولى وكانت جميلة الصورة واسمها الاصلي امة العزبز فلقبها جدتها المنصور زبيدة لبضاختها ونضارتها^(١) وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها ولما في الاسلام ما أثر لم يسبقها اليها احد . مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمسائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل حتى اخرجتها مسافة اثني عشر ميلاً الى مكة فبلغ ما انفقته في ذلك ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار فضلاً عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما انفقت الالوف عليه . غير ما كانت تنفقه في اهل الفانقة من المعروف والخصب وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن حتى كان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة

وهي اول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلمة بالجواهر وصنع لها الوشي الرفيع حتى بلغ ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها ٥٠,٠٠٠ دينار . وهي اول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري واول من اصطنع القباب من الفضة والآنوس والصندل وكلايهما من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وانواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر واضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب وقد تشبه الناس بسائر احوالهم بها^(٢)

وكان لها قصر في بغداد على شاطيء دجلة الغربي يسمى قصر زبيدة وبلقب « دار القرار » واقع جنوبي قصر الخلد شرقي مدينة المنصور وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه في تلك الحضارة الزاهرة

وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم وفي صدرها حزازات على البرامكة وخصوصاً جعفر بن يحيى الوزير لانه كان يحط من قدر ابنها الامين ويرفع من شأن اخيه المامون

مع ان امه جارية ^{١٧٥} واخر ما زاد نغمتها عليه انه حمل الرشيد على ان يبائع للمامون بولاية العهد مع ابنها الامين وكانت تحب ان تكون البيعة له وحده . وزد على ذلك ان الرشيد سار سنة ١٨٦ هـ الى الكعبة حاجاً ومعه ابناؤه ووزرواؤه وقواده وقضاته وفي جملةهم ابناه الامين والمامون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر البرمكي ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوها في الكعبة وحلف كل منهما على الثبات وكانت زيدة حاضرة فلما حلف الامين واراد الخروج من الكعبة رده جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذلك الله » وطلب منه ان يحلف على ذلك ثلاث مرات ففعل فاضطغت زيدة عليه وما برحت من ذلك الحين تترقب الفرص للايقاع به وربما كانت اكثر اعداء البرامكة شدة عليهم لا تذخر وسعاً في استطلاع اخبارهم لعلها تجد فرصة تمكن بها منهم . وكانت عالمة بتردد جعفر على العباسية ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفيلين ولو علمت ما نقاعدت عن كشف امرها لزوجها لانها لم تكن تتهيب منه لما تعلمه من منزلتها عنده

فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ما حدث من الغوغاه عند دار الرقيق اطلع على خبر الطفيلين بعض جواسيسها عند العباسية فنقل الخبر اليها فرأت ان تغتنم اول فرصة لاطلاع الرشيد عليه ولكنها احبت ان تناوض ابنها الامين في ذلك فارسلت في طلبه كما تقدم وبكر الامين في صباح اليوم التالي الى دار القرار اجابة لطلب والدته فركب جواده والغلمان يسرون بركابه ينقدمهم فارس يحمل الخربة بين يديه على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين ^(١) فسار الموكب تحاذياً الشاطيء الشرقي وعلى الامين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السنلي فقطعه وسار بعده على الشاطيء الغربي حتى اطل على دار القرار والناس يقفون له في الطرق يحبونهم ويدعون بطول بقائه ولا سيما العرب ومن يرى رأيتهم في العصبية العربية فيرد تحياتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك

وكانت زيدة تنتظر قدومه وقد استبطأته مع علمها بطول المسافة بين قصرها وقصره ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت . وكانت قد اعدت له كل اسباب الراحة والانس والترحاب لشدة تعلقها به لانه وحيدها وقد جمعت كل آمالها فيه فامرت جواريتها ففرشن طرقات الحديقة بالازهار والرباحين واعدت له مجالساً فاحت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر في غرفة من قصرها سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل

ومكسوة بالوشى والسمور وأنواع الحرير بالوانه الزاهية وقد اسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب ابياتاً من الشعر او حكماً ماثورة وعلقوها في مواضعها بكلايب من الذهب . وفي ارض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم بعض ملوك الفرس بصطاد السباع توهم الناظر من الثقان صنعها انه يرى منظراً حقيقياً . وعلى حواشي البساط ابيات من الشعر مطرزة بالذهب . وفي وسطه صورة طاووس الوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهر النظر وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص وفرش هذه الغرفة من الطرز المعروف بالارمني في ذلك العصر من صنع ارمينية وهو عشر مصليات بخادها ومساندها ومطارجها وبساطها كما وصفناه . فمثل هذا الفرش لا يقوم باقل من ٥٠٠٠ دينار^(١) غير البساط وغير ما يكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش وغير ما في جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من اثنى ما يكون ولم يستخدمه احد قبلها الى ذلك العهد

الفصل الخامس والثلاثون

دار القرار والجواري المقدودات

فوصل الامين الى باب الحديقة فاستقبله جماعة من الخدم الشاكرية اعانوه في التحول عن جواده وقد منحول صاحب الحربة قبله ومشى بين يديه بالحربة حتى وصلا الى مفرش الازهار وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الاطياب . فتحنى صاحب الحربة ومشى الامين وحده حتى وصل الى باب القصر فرأى والدته واقفة هناك في انتظاره فلما دنا منها همت به فضمته الى صدرها وقبلته قبلة الوالدة المشتاقة فقبل يدها فاحس بفضاضتها . وكانت زبيدة مشرقة الوجه بضاءه عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال وكانت سوداء العينين كبيرتهما مع ذكاه وحدة وقد استدار خذاها وانبسطا من عيش الترف والرغد . وكان فيها صغيراً باسماء يعلوه اتف فيه شمع وذقن قليل البروز ليس بينه وبين الترفوة

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

غور ولاثنية وقد استدار عنقها واشتد يياضه وليس فيه بروز
 وكانت طويلة القائمة الى الربة مع سمن قليل اذا اسرعت في مشيتها ارنج كنفهاها
 ووركاها ارنجاج الدلال والرخاء وقد تزلت برداء من الحرير ارجواني اللون يستر كل
 اثوابها وتنطقت فوقه بمنطقة مذهبة شدت طرفها بعروة مرصعة بالجواهر . وقد ارسلت
 شعرها ضفيرة واحدة على كتفها وعصبت حول رأسها عصابة ليس عليها شيء من
 الجواهر — والعصائب كانت لا تزال حديثة العهد لم تبلغ الى نساء العامة بل كانت محصورة
 في بيوت الخلفاء والامراء شأن ما يحدث من الازياء في كل عصر . فان الزي الجديد
 (المودة) تبدأ به عادة بمض الوجيهات فيقلدها اربابها ثم يشيع بين العامة — والعصائب
 استنبطتها عليّة أخت الرشيد لتستر بها عيباً في جبينها فاصطنعها مرصعة بالجواهر كما تقدم
 فاستحسن الناس ذلك فقلدوه . اما زبيدة فكانت لفرط اعجابها بمنزلتها عند الرشيد حسباً
 وجمالاً وتعقلاً تستنكف ان تقلد سواها وخصوصاً بعض بيت احمائها . فانخذت عصابة
 بسيطة لا جواهر عليها ترفعاً عن التقليد ولم تضع في عنقها عقداً ولا في اصابعها خاتماً ولا في
 معصمها سواراً تنزهاً عما يستطيع سواها تقليدها به . فلم يتالك الامين عند مشاهدة
 تلك العصابة عن الابتسام وقال « اراك تقليدين عمي عليّة ان هذه العصائب جميلة يا أماء . . .
 لكنني لا أرى على عصابتك شيئاً من الجواهر »

فابتسمت وشارت بسبابتها الى قدميها فنظر فاذا هي قد رصعت خفيها بالجواهر فاعجب
 بترفها وبذخها وهي اول من لبس الخفاف المرصعة

وكان الامين يمشي بجانب والدته لا يدري الى اين سير به فقطعت الدهليز وبلغت
 الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها حتى استطارت من دهليز آخر الى القاعة التي
 ذكرناها . فلم يهره ما هنالك من الفرش الثمين ولكنه استغرب شيئاً آخر لم يكن رآه من
 قبل — ذلك انه لما اطل على القاعة تزايدت رائحة المسك وراى عند مدخلها صفيين من الجواري
 الحسان على رؤوسهن العمام وقد سوين شعورهن باشكال الطرر والاصداغ والاقفية
 ولبسن الاقوية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة فبانت قدودهن وبرزت صدورهن
 على شكل غريب وفي ايدي بعضهن جامات المسك وفي ايدي البعض الآخر قوارير الطيب
 فلم يتالك الامين عند مشاهدة ذلك المنظر عن الدهشة والاعجاب وأمه تماسك عن
 الضحك فالتفت اليها فضحكت فقال « ما هذه الملابس يا أماء . . ؟ اراك قد جعلت هؤلاء
 الجواري غلماناً »

فقلت « فعلت ذلك تشبهاً بك باولاده ٠٠٠ رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت في تزيينهم كأنهم من الجوارى الحسان فاتخذت هؤلاء الجوارى اقلد بهن الغلمان كما ترى وقد سميتهن الجوارى المقدودات^(١) وسابعت بهن هدية اليك »

فسر الامين بتلك الهدية وكانا قد وصلا الى مجلس معدّ لهما على سرير من الابنوس في صدر القاعة محلياً بالذهب . فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الخبز المزركش محشوة بريش النعام واجلست الامين الى جانبها وهي تنظر اليه ولا ترتوي من رؤيته . ثم اشارت الى من كان هناك من الجوارى والغلمان فانصرفوا

الفصل السادس والثلاثون

المشورة والحيلة

فلما خلت به تغيرت سمعتها من الابتسام والانس الى الهيبة والجلال وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء وحدة الذهن والجدت فقالت « كيف قضيت نهارك البارحة يا محمد ؟ »

قال « قضيت كما تحبين يا سيدتي من الانس والطرب »

قالت « وفي الليل ٠٠٠ لماذا كنت مستتراً في خلوة ؟ »

قال « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت « اخبرني به الشاكري الذي بعثته اليك فما هي هذه الخلوة ؟ »

قال « هي خلوة يحلوك سماع خبرها وقد كنت عازماً على الخي اليك لاطلعتك على سر

اكتشفته يسرك الاطلاع عليه . وانت ما الذي بعثت الي من اجله »

وكانت متكئة على كتفه وبداها على خده تلاعب باناملها شعرات في عذاره وتنظر اليه

نظر الخنو والانعطاف . فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت « وعندي ايضاً خبر يهدك الاطلاع

عليه وارجوان تخلص به من ذلك الفارمي »

فعلم انها تشير الى جعفر البرمكي فبغت وقال « وخبري ايضاً بنعاقى به فبجه الله ٠٠٠

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٣

هل تعنين خبره مع العلوي أم مع عمي العباسة ؟
 فاجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت « هل علمت
 بخبر العباسة ايضاً ؟ »
 قال « نعم قد علمت به وكنت اتميز من غيظي ولكن لا اظننا ننتفع بذلك عاجلاً اما
 خبر العلوي فانه اقرب استئثاراً »

فقلت « واي علوي تعني ؟ وما خبره اني لم اسمع بشيء من هذا القبيل »
 فاعتدل في مجلسه وقصّ عليها ما سمعه مساء الامس من الجارية حتى اتى على آخره
 وزبيدة تنظر اليه وعيناها تبرقان استغراباً ودهشة فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت
 « ذلك جزاء من يستهين بسلطة فوضها الله اليه . . ان اباك مع تعقله وحزمه قد استسلم
 لهذا الفارسي حتى اصبحت الخلافة له ولم يبق لايك الا اسمها . . . ولكن سوف يلقى الباغي
 عاقبة بغيه »

فقال « لا انكر عليك اطلاق والذي يد هذا الوزير في امور الدولة ولكن ألا تظنين
 ذلك لازماً لتمشية الاحكام . . ؟ وهل يستطيع امير المؤمنين ان يتولى كل الاعمال بنفسه ؟ »
 فقالت والجدّ ظاهر في عينيها « ان اطلاق يده في الاحكام قد يكون له فيه عذر ولكن
 ما هو عذره في ادخاله على حريمه بلا اذن ولا حرج ؟ ان جدك المهدي رحمه الله مع
 استخدام البرامكة ووثوقه بهم لم يبلغ هذا الحد من اطلاق ايديهم ولا عمك الهادي فعل
 شيئاً من ذلك ولا اظن احداً يفعل ما فعله ابوك . . » قالت ذلك وقد بان الغضب
 في وجهها فزادها هيبه

قال « وما ذا تعنين يا امامه بدخوله على الحريم ؟ »

قالت « اعني ان اباك حفظه الله امر ان يدخل جعفر على دور النساء في السفر والحضر
 وبرز اليه جواريه واخوانه وبناته لزعمه ان بينهما رضاعاً يحل ذلك فهو يدخل الى قصور
 نساء الخليفة وبناته واخوانه بلا حرج فلا عجب اذا ظهر ما ظهر من جراته . . » وتنهدت
 وقد اخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً وكان في يدها جام فيه مسك تتشاغل بفتنته في اثناء
 الحديث فلما غلب عليها الغضب ارتعشت اناملها فوقع الجلام من يدها وانتثر فتات المسك
 على البساط فهمّ الامين بالنقاطه وهو يقول « وهل بلغ من اطلاق يده في دور النساء ان
 يدخل الى قصرك ويراك ؟ » وقد بان الغيرة في وجهه

فصاحت « كلاً . . وهل يجسر هذا المولى ان يرفع بصره الي . . ؟ انه لم يظأ ارض قصري

هذا ولا كلفته بحاجة بقضيتها لي ولا اكلفه ٠٠٠» (١)

وكان الامين قد فرغ من النقاط المسك فاعاده الى الجلام ودفعه الى امه وهو يقول
« وما هو الرأي الآن ؟ ان هذا الرجل لا ينبغي ان نسترفعله والا ذهب الامر من ابدينا
واكتسبنا العار الذي لا يحى لما ارتكبه هذا الخائن بعمتي ٠٠ »

فقطعت كلامه وقالت « ان امر عمك يا بني اكثر اللوم فيه على ابيك كما قدمت لك
لانه اباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وفضاء حوائجها وهو شاب حسن الخلقة
نظيف الثوب طيب الرائحة وهي لم تر رجلاً غيره — ذلك جزاء من جمع بين النار
والحطب . على ان هذا لا يبرئه من الخيانة ٠٠ » وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهي
تنظر الى البساط لتفرض في الطاووس المنقوش في وسطه والامين قد انقبضت نفسه
وضاق صدره لانه مع طول الحديث لم يصل الى الغرض المطلوب ولا تجاسر ان يفتاحها
بطلب قتله او الوشاية به . فلما ضاق ذرعاً اطرق وبانت الخيرة في وجهه ولحظت امه ذلك فيه
فامرعت الى تطيب خاطره فقالت « اخذك ترهد ان تعرف رأبي في هذا الرجل »

فلم ينالك محمد ان صاح « نعم يا اماء لقد ضاق صدري »

فقالت « وهل ترى ان نبليغ اباك خبر اخته العباسة ؟ »

قال « لا ادري ٠٠ وانما ارهد ان يقتل هذا الرجل والسلام »

فضحكت وادارت ذراعها حول عنقه وقبلته ودموع الحسان تكاد لتناثر من عينيهما لولا
عظم الامر الذي ادخلت نفسها فيه وقالت « قد كنت عازمة ان اظلمه على خبر اخته
ولكن مباغثة الرشيد بذلك لا تحلو من الخطر على الناقل فيكفي الآن ان نبليغه خبر
العنوي ٠٠٠ » ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فاستخرجت بطاقة دفعتها اليه وهي
تقول « لا تظنني غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى ٠٠٠ اني لا انسى تشديده عليك
بالخلف على كتاب العهد بالكعبة في العام الماضي فقد بلغ من قبحه وسوء ادبه ان يستهين بك
امامي ٠٠ وقد اعدت اياتاً من الشعر بمعنى ما نحن فيه على ان اوصلها الى ابيك سرراً
من حيث لا يعلم فتكون قد ابلغناه الخطر الذي يهدد الدولة من هذا الرجل فاذا لم يستيقظ
الرشيد من ذلك عمدنا الى ما هو ابلغ »

فتناول الامين البطاقة وقرأها فاذا فيها: (٢)

قل لامين الله في ارضه ومن اليه الحل والعقد

هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً مثلك ما بينكما حد
 امرك مردود الى امره وامره ليس له رد
 وقد بنى الدار التي ما بنى السفسر لها مثلاً ولا الهند
 الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والنس
 ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحد
 ولن يهاجي العبد اربابه الا اذا ما بطر العبد
 فلما فرغ من قراءتها احس بارتياح وقال « اظننا نقله لا محالة وهل انت عازمة على
 ايصالها وكيف ؟ »

قالت « لا يهيك ذلك فاني اكانت احداً من جواسيسنا هناك بلقيها عند معلى
 ايك فاذا رآها قرأها واظننا نبي بالغرض المطلوب والا فالدواء الناجع عدي . » قالت
 ذلك ووقفت فوق الامين وقد علم انها تنوي الخروج من تلك القاعة فمشيا معاً وهي تقول له
 « اظنك جائعاً وقد اعدت المائدة فهل بنا اليها . . »

قال « صدقت اني جائع . . . وهل اعود بعد الطعام الى قصري ؟ »

قالت « اني مشتاقة اليك يا محمد فنقضي هذا اليوم معاً »

وذهبوا الى غرفة المائدة — فلنتركهم على الطعام ولنعد الى ما كان من اسماعيل بن يحيى
 ومهمته الى الرشيد

الفصل السابع والثلاثون

قصر الخلد

تركنا اسماعيل بعد مفارقة جعفر في مساء الامس وهو عازم على زيارة الرشيد في
 الغد لمخاطبته بشأن ابن الهادي والعالية فلما أصبح لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد
 وقضى مسافة الطريق وهو يفكر في الرشيد ويهيج الاسلوب الذي يتطرق به الى مخاطبته
 في امر ابن عمه لعله بشدة الرشيد اذا غضب وربما سبق الى ذهنه سوء الظن فتعود العائدة
 وبالأعلى عليه . لكنه لم يطل على ذلك القصر حتى رأى الناس يتسارعون في الاسواق نحو
 الشارع الاعظم المؤدي من القصر الى الجسر فأمر أحد الغلامين السائرين في ركابه ان

يستفهم عن سبب ذلك المهرج فعاد وهو يقول « ان امير المؤمنين خارج الى الشامية لحضور حلبة السباق » فتشاءم اسماعيل من هذا الاتفاق وسبق الى اعتقاده فشل مهمته لانه لم يتوقف في عزمه ذلك الصباح ولا هو يرجوان يقابل الرشيد في المساء لان الشامية في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار. فترجل وتغنى جانباً بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد. فما عثم ان رأى الناس يتهاربون بدفع بعضهم بعضاً كأنهم يساقون سوقاً ثم رأى خدماً صغاراً يركضون مشاة وفي أيديهم قسي البندق يرمون بها العامة الذين يعارضون الموكب في الطريق -- وهم فرقة من لخدم يسمونهم النمل^(١) ووراءهم رجال مشاة على الاقدام عليهم شارة الدولة وفي أيدي بعضهم السيوف المرهفة وفي ابدي الآخرين الاعمدة ووراءهم رجال^(٢) في أيديهم القسي المتوردة.^(٣) وهم يمشون بوقار وسكون. ووافي الخليفة بعدهم على جواد مخضوب بالحناء عليه مبرج مذهب وقد تغطى سائر الجواد بالديباج المغوص بالذهب والرشيد جالس فوقه وعلى رأسه فلنسوة كثيرة الطول ليس حولها عامة -- لان الخلفاء كانوا اذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة^(٤) فكيف اذا ركب وهم مشاة. ورأى سواده مسترسلاً حتى يغطي بعض ظهر الجواد

وكان الرشيد يومئذ في الحادية والاربعين من عمره وقد أشرق وجهه بياضاً وابتقت عيناه ذكاً وكانتا كبيرتين ولحيته خفيفة كستنائية اللون وشارباه مستطيلان دقيقان وفي فمه ابتسامة. وفي يده اليمنى قضيب من الابنوس طرفه مصنوع من الذهب. وكان الجواد يمشي الهويناً ويتجتر بشيته كأنه عالم بمن يعاوه ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظل الخليفة من الشمس. ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب الا جعفر الوزير فانه لم يكن معهم. وبلي ذلك افراس الحلبة عليها سروج خفيفة والسياس يقودونها بالارسان وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركي له مهارة في تربية الخيل. واخيراً فرقة اخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الورا

وظل اسماعيل واقفاً ينظر الى ذلك الموكب نظر الفياسوف المعبر وهو يعجب لغرور الانسان واشتغاله بالظواهر المبهرجة عن الحقائق الدامغة. ونظر في من يحف بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين وهو يعلم ما في نفوسهم ومنهم من يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت ومنهم من يحبه ويستهلك في خدمته والمرجع العام فيهم جميعاً الى

(١) الاغاني ٩٤ ج ٢٠ (٢) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٣) البيان والتبيين ٨٤ ج ٢

حب الذات • ثم فكر في نفسه وفي ما كان قادماً من اجله وتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة في سلامتها واسف لفشل مهمته في ذلك الصباح فركب وعاد الى منزله آسفاً— على ان يعود في صباح الغد لاتمام ذلك الامر

وفي صباح اليوم التالي ركب كالامس وغلاماه في ركابه وعليه السواد والقانسوة وما زال حتى اقبل على قصر الخلد • وللقصر اربعة اشوار الواحد داخل الآخر فلا يستطيع احد الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور في اربعة ابواب^(١) وعند كل منها حرس من الشاكرية وقوف بالاسلحة • فدخل الباب الاول وهو راكب فوق الحرس اكراماً له ولم يعترضوه لعلمهم انه من كبار بني هاشم فضلاً عن منزلته عند الرشيد • ودخل الباب الثاني فالتك والحرس يقومون له ويحيونه حتى اذا وصل الى الباب الرابع تمحول فتناول الفرس احد الفلامين ومشي اسماعيل في طريق واسع يؤدي الى دار العامة وغلمان القصر يسرون بين يديه وهو بمشي الهويناء مع جلال ووقار حتى اقبل على تلك الدار وهي التي يجلس فيها الخليفة للعامة وبجانها غرف يقف فيها الشعراء والادباء والتدماة او يجلسون ريثما يؤذن لهم او يطلب الرشيد احدهم • فعلم اسماعيل من جلبتهم وغوغائهم وخلو المكان من الحرس (الشاكرية) ان الرشيد ليس هناك فاستغرب ذلك واحب ان يستفهم عنه فاذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعاً وسيفه يخبط على جانب نخذه لشدة سرعته فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته وهو فرغاني الاصل واكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فاجتذبا منه وسأله عن امير المؤمنين

فقال « هو في دار الخاصة يا مولاي »

قال « وكيف ذلك واليوم موعد جلوسه في دار العامة »

فقال « قد كان عازماً اليها فجاءه وفد من ملك الهند فاحب ان يجلس لهم في دار

الخاصة لأن ذلك اقرب للرهبة والمظمة »

الفصل الثامن والثلاثون

وفد ملك الهند

فتحول اسماعيل نحو تلك الدار وقبل الوصول اليها رأي صفيين من جند الخليفة الاتراك قد وقفوا بانتظام ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم غير الحديد فقال لمسرور « ما بال هؤلاء .. وما الذي بعث على وقوفهم بالحديد كأنهم في ساحة الحرب ؟ »
قال « لما علم امير المؤمنين بقدم الوفد من ملك الهند احب ان يوقع الرعب في قلوبهم ليلغوا ملكهم ماشاهدوه من قوة الاسلام فامر بوقوف هؤلاء كما ترى »^(١)
فانبسطت نفس اسماعيل لما عاينه من رغبة الرشيد في ابهة الدولة ولكنه مالم يث ان تذكر ما يخافه عليها من اهل الدسائس حتى انقبض صدره . على انه تمالك ومشى نحو الدار بين الصفيين حتى دنا من بابها وكان مرتفعاً يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الابيض يتخللها قطع من البلاط الاخضر والساكرية وقوف الى الجانبين وفي ايديهم السيوف . فدخل مسرور امامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بقدمه يستأذن له بالدخول

فصعد اسماعيل في اثره وهو يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له فاعتم ان جاء الآذن يدعوه للدخول فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط احمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب والآذن يسير بين يديه فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الابدان كأنها اسد وقد اوثقت من اعناقها بسلاسل الحديد وامسك السلاسل ثلاثة رجال عرف من قياقتهم والوانهم انهم من اهل الهند وهم مكشوفو الرؤوس فاشتغل خاطرهم بتلك الكلاب وتهدب من توقد ابصارها وكبر ابدانها . ولكنه تجلد وجاوز عدة مقاصير واروقة ودهاليز والخدم يقفون له حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة بالسط التمينية فوقها جنود النمر والسباع وفي جوانبها قضب المتاور عليها الشموع الملوثة . فوقف اسماعيل هناك وهو يتشاغل بقراءة ما نقش على الجدران من ابيات الشعر او الحكم لعله يحتاج الى اذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة فرأى الآذن قد عاد وهو يشير اليه

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ وسراج الملوك

ان يتقدم لان مثله لا يحتاج الى اذن ثان
فتقدم نحو باب عليه ستر من الديباج الخوص بالذهب اماله الاذن يساره وأشار
الى اسماعيل جيمه ان يدخل فدخل على ابوان كبر طوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين قائم
على اساطين من الرخام وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ممثلة بالذهب والفضة
بتخللها ايات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب . وفي ارضه بساط من الديباج الاصفر
كان صانعه قلبه القطيف بساط كسرى — عليه نقوش بالوان زاهية بينها خيوط القصب
تمثل اشجاراً وانهاراً وطيوراً واسما كأتوهم الناظرانه في حديقة يانعة الاغراس جرت
فيها الجداول وتنت عليها الاطيار . وعلى حواشي البساط وشي جميل . وسقف الابوان قبة
عظيمة الانساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة اساطين وعلى سقف القبة
نقوش . وكتابة وفي وسط الابوان ستر من الحرير الصفي معاق عرضاً بين الخاططين يحجب
الخليفة عن مجالسه على عادتهم في مجالسة الخلفاء يومئذ الا من اختار الخليفة تقديمه ورفع
الستر بينه وبينه من اهله وخاصته

ورأى اسماعيل الكرسي المنصوبة خارج الستر لجلوس بني هاشم وليس عليها أحد
منهم — ويسمى الهاشميون في اصطلاح تلك الايام ابناء الملوك أو الاشراف^(١) واما الوسائد
المطروحة بين يدي الكرسي الجلوس الخاصة من الامراء والقواد فرأى على بعضها انساناً
من الهنود عليهم القبعات المزركشة . وانوابهم من نسج الهند عليها صور ملونة تمثل
بعض الحيوانات الكبرى ولاسما النيل . وفي اعناقهم عقود من الجواهر الثمين بينها تعاويد
من الذهب تمثل بعض اصنامهم وقد جلسوا خاشعين متبئين ينتظرون امر الخليفة وبين
ايديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلعية فعلم انهم الوفد القادم
من ملك الهند وان اصحاب الكلاب في الدهليز تابعون لهم

فتقدم صاحب الستارة الى اسماعيل ان يدخل اذا شاء او يجلس على احد الكرسي
ريثا يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود وكان اسماعيل قد سمع الرشيد يتنخخ فعلم انه جالس
هناك على سريره وراء الستارة ففضل الجلوس هناك حتى يفرغ من هؤلاء وهو يخاف ان
يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبة الرشيد ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستارة بواسطة
الترجمان وهو صاحب الستارة لانهم كانوا يختارون اصحاب الستارة من العارفين باللغات
لمثل هذه الحال فقال الرشيد لرئيس الوفد « ما الذي آتيتونا به »

قالوا « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا »

فدعا الرشيد بالصمصامة وهي سيف عمرو بن معدى كرب وامر بعض رجاله الاتراك
فقطع بها تلك السيوف واحداً واحداً وامر ان يروم ذلك السيف فرأوه فاذا هو لافل فيه
فاسقط في ايديهم ونكسوا رؤوسهم ثم قال « وما عندكم غير هذا؟ »

قالوا « اتينا بكلاب لا يلقاها سبع الا عقرتة »

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهييباً من رؤيتها ثم سمع الرشيد يقول « ان عندنا سبعاً فان
عقرته كلابكم فهي كما ذكرتم ٠٠٠ اخرجوها الى السباع في اقصاها وامروا السباع ان
يخرج السبع عليها ونحن نتظر الى مغالبتها من الروشن »

فخرج صاحب الستارة و اشار الى الهنود فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب في الدهليز
فساقوها معهم وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار وقد سبق احدهم الى السباع فامرهم
باخراج اسد عظيم فاخرجه وجاؤا به الى ساحة اطلق فيها الكلاب القلعية ورأى اسماعيل
الاسد يخطر ويزار فما شك انه سيمزق الكلاب ارباً ارباً فاذا هي مزقته ورأى الرشيد ذلك
من الروشن فارسل الى الوفد ان يعودوا الى الايوان كما كانوا فعادوا وعاد اسماعيل وهو
يستغرب ما رآه من الكلاب فلما عادوا قال الرشيد للوفد « من اين لكم هذه الكلاب وما
هو جنسها »

قالوا « هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا لا شبيه لها في الارض »

فقال « هذه احب ان احفظها فتمنوا فيها ما شئتم من طرائف بلدنا »

قالوا « ما نتمنى الا السيف الذي قطعت به سيوفنا »

قال لهم « هذا مالا يجوز في ديننا ان نهادبكم بالسلاح ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم

ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم »

قالوا « ما نتمنى سواه »

قال « لا سبيل اليه » ثم امر لهم بتحف كثيرة واحسن جائزتهم وانصرفوا^(١) وفي

نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة

(١) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

الفصل التاسع والثلاثون

مجلس الرشيد

اما اسماعيل فما صدق ان فرغ الخليفة من ذلك الوفد حتى عاد الى التفكير في ما جاء من اجله واحب مخاطبته على انفراد قبل ان يأتي احد من بني هاشم او سوام فيجول بينه وبين ما يريد وهو يرى الاسراع في مهمته قبل ذهاب الفرصة . فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستارة ودعاه للدخول على الرشيد اذ لا حجاب عليه وقال « لما علم مولانا امير المؤمنين بقدمك امرني ان ادخلك عليه »

قال « واحب ان لا تدخل علينا احداً ربثاً افرغ من خطابي معه » فوسع له الستارة ما بين شطريها فاطل اسماعيل على الرشيد فراه جالساً الاربعاء على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجوهر^(١) فوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من اساطين الايوان مجللتين بالوشي المنسوج بالذهب وقد وقف عند كل منهما وصفاه في ايديهم المذاب او المناديل . ووراء السدة من الجانبين شاكر بان ييد كل منهما سيف مسلول . والسدة عبارة عن ظلة قائمة على عمد من الابنوس المنزل فيه العاج سقفها من الدياتج الاسود المزركش بالذهب برسوم جميلة . وفي حاشيته من الامام والجانبين اهلة من الذهب مدلاة في كل هلال منها اترجة ذهب مسبك يتدلى من كل اترجة درر كبار بينها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق على نظام بديع بهر النظر . والرشيد جالس على السرير في السدة تحت الظلة وعليه ثياب بلبسها عند استقبال قادم من كبار الملوك او نوابهم اذا اراد اربابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وابهة الخلافة . وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندي فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخبز الموشى وبين ثناياها عقود من الجواهر بشكل سبحات تملأ الاخلية بين تعاريج العمامة . وفي مقدمها فوق الجبهة شبه طرة من الذهب المرصع بالجواهر والياقوت والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من اسلاك الذهب وقد نظمت بها لآليها بينها ثلاث لؤلؤات كبيض الحمام عند قاعدة العرف . وكان على الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبي . فهل يسع المقبل على

تلك السدة غير التهييب ؟ اما اسماعيل فكان قد تعود ذلك وهو عاقل حكيم لا تأخذه
المظاهر المبهرجة وكان مع ذلك في شغل من اعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخافه عليها
من التضعع وهو يعلم شدة الرشيد وتسرعه اذا غضب
فلما اطل من بين شطري السترفال باعلى صوته « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته . . . أ أدخل ؟ »

فحرك الرشيد كأنه يتحفظ للقيام اجلالاً لاماعيل وابتسم له وهو يقول « وعليك السلام
يا عمه . . مرحباً بك »

فدخل واسرع في خطوه لينع الخليفة من الوقوف له . اما الرشيد فنفض عن مقعده
نهوضاً قليلاً ومد يده وصاح اسماعيل وقال « اقد اتيت اهلاً يا عمه . امثلك يستأذن
بالدخول ؟ » ثم اوماً الى الوصفاء فقد مواله كرسياً وضعوه بجانب السرير و اشار الرشيد اليه
بالجلوس وهو يتنسم ترحاباً واستئناساً . فجلس واثني على ما لاقاه من الرعاية والحفاوة ودعا
للرشيد وليث ساكتاً على عادة جلاس الخلفاء فانهم لا يبدؤون الخليفة بكلام . فاستحسن
الرشيد تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال « لقد اتيتنا خير ان شاء الله . فانك منقطع عنا
منذ ايام ولا تأتينا الاً لتصيحة او مهمة ونحن نرجو لقاءك كل يوم »

قال « اني يا امير المؤمنين اقيم في البصرة وقمنا آتي بغداد ولو علمت لدخولي على الخليفة
نفعاً لقصيت سحابة عمري بين يديه . واما الان فقد اتيت اتمس منه فضلاً نضمه الى منته
المتوالية وانعامه السابعة . . »

قال « قل طلبتلك فانك صاحب الامر معنا »

فاكبر اسماعيل تلك الجمالة وحنى رأسه امتناناً ويده مملومتان في حجره وقال « ان
الامر لمولاي جعله الله له وحده لا ينازعه فيه احد . وهو ينعم بما يشاء من فضله . فاذا
سمع مولاي بكلمة فاني استأذنه في الخلوة »

فاوماً الرشيد فخرج الوصفاء والشاكر يان واقبل هو بكليته على اسماعيل وقد ابرقت
عيناه اهتماماً وتقرساً لعلمه ان اسماعيل لا يطلب الخلوة الاً لامر ذي بال
فنظر اسماعيل الى الرشيد وقال « أ تكلم ؟ »

قال « تكلم اطلب ما تشاء »

قال « لا يخفى على مولاي ان جعفر ابن اخيه الهادي من خيرة بني اعمامنا . . »
فلما سمع الرشيد اسم جعفر اوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات لا يروق له تنفيذها

ولكنه اظهر الملاطفة وقال « نعم انه ابن اخي فهل هو في حاجة الى عطاء »
قال « كلاً باسيدي لأن نعم امير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى على سائر بني هاشم
ولكنه يود الزيادة في شرفه »

فادرك الرشيد بفراسنه ان اسماعيل انما جاء خاطباً فتجاهل وقال « ان قرابة الرسول
أعظم اسباب الشرف له ولنا »
قال « نعم .. هو كذلك ولكنه يحب التقرب من عمه امير المؤمنين وخليفته سيد
المرسلين »

فلم يبق عند الرشيد شك في انه جاء يخاطب ابنته لجعفر فابتدره قائلاً « كل ما تقترحه
يا عماء نافذ الا خطبة العالية ... »
فاستغرب اسماعيل تلك المفاجأة وقال « وانا لم آت لاطلب سواها .. فاذا كان ذلك
ممنوعاً فالامر لامير المؤمنين ونحن مطيعون لارادته ندعو بطول بقائه .. على ان ماخولتنيه
من الدالة يجزئي على سؤال ارجو ان لا يثقل على مولاي »
قال « قل فان لك رعاية وحقاً »

قال « ألعلى امير المؤمنين لا يرى ابن اخيه كفواً لمولاتنا العالية ؟ ومن ياترى
اكثر كفاءة لها من ابن عمها اخي ابيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل (يريد المنصور) »
فقال الرشيد وهو يعث بقضيب الخلافة بين انامله « اما الكفاءة فلا يتازعه احد فيها
كما ذكرت .. ولكن سبق السيف العزل .. فان العالية مخطوبة .. »

فاستبعد اسماعيل ان تخاطب بنت الخليفة ولا يعلم هو بمخاطبتها وظن الرشيد بقول
ذلك ليدفع طلبه فقال « العالية مخطوبة ؟ اني لم اعلم ذلك ولو علمته ما اقدمت على طلبها
ولم اكن اظن احداً ينال ذلك غير ابن عمها .. »
فتحرك الرشيد في مجلسه ونظره على البساط وقال وهو يحاول اخفاء ما كاد يظهر في وجهه
من الاتفعال « نعم ولكن وزيرنا جعفر بن يحيى طلبها لابراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا
فلم نرد طلبه .. »

فلما سمع اسماعيل قوله أطرق وتشاغل ببلع ريقه وقد عظم عليه فشله . ولكن غضبه
من نفوذ جعفر الى هذا الحد كان اعظم عليه من ذلك النشل على انه تماسك مخافة ان يظهر
غضبه فيؤول الى النقمة عليه وظل مطرقاً والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو منه وهو يود
الاكتفاء بما تقدم . فلما طال سكوت اسماعيل قال الرشيد « انه ليسوه في ان ارد طلبك لولا

ما قدمته من وقوع الخطبة وأنت تعلم ان الرجوع عن ذلك لا يليق . . . فاطلب لابن اخينا
منة اخرى »

الفصل الرابعون

الفصل

فرغ اسماعيل بصره واغتمت رغبة الرشيد في التعويض عن فشله وقال « صدق مولاي
ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه وأنا اعلم ذلك لنقل ما افاسيه من رجوعي بخفي
حين بعد ان وعدت ابن اخيه بهذا الشرف . وقد تسرعت بوعدتي ولكنني لم ارتكب
ذلك الا رغبة في صيانة الدولة لما بعلمه مولاي من غيرتي على سلامتها . . . »

فادرك الرشيد ما يعرض به من الرغبة في ارضاء ابن اخيه الهادي ليشغله عن طلب
الخلافة او الوقوف في سبيلها . وقد تعود الرشيد ان يسمع من اسماعيل ما هو اكثر صراحة
من ذلك مما لا يتجرأ سواه على عشر معشاره ومع ذلك فان هذا التعريض اثار غضبه لان
الخلفاء العباسيين لم يكونوا يعضبون لشيء مثل غضبهم لما يشتم منه رائحة التعريض للملك
ولو تليحاً . ولكنه تمالك وكظم وتجاهل وقال « انك شهير بغيرتك على دولتنا وهي انما
تتأيد بآراء امثالك من شيوخ الحكمة وارباب الرأي المدبدين وهم قليلون . واما ابن اخي
فانه من لحمي ودمي واحب له ما يرضيه فهل من شيء تطلبه له غير العالية ؟ »

قال « اطال الله بقاء امير المؤمنين فاني اراه يبالغ في مجاملتي ولكن يسرفني انه عالم
بالغاية التي ارمي اليها . . . فانقدم اليه ان يولي ابن اخيه عملاً يشغل به . . . ونظراً
لقربته من الخليفة فاطلب له ولاية مصر او خراسان . . . »

فوجم الرشيد عند سماعه ذلك وبدت البغته في عيذه وهز رأسه استغراباً لذلك
الاتفاق وقال « وهذا لا سبيل اليه باعماه فاني وعدت وزير يري في صباح الامس بولاية مصر
لابراهيم المذكور واما خراسان فقد وعدته بهالذات منذ ابام وقد كتمت ذلك ولم اخبر
احداً به ولولا انك اسماعيل ما بحث به لك »

فضاق اسماعيل ذرعاً من توالي الفشل على هذه الصورة وعاد الى الاطراق واعمال
الفكرة ولم يربداً من التصريح بفرضه من تلك الاقتراحات فعاد الى ما فطر عليه من حرية

القول ونسي موقفه وما يعلمه من سوء العقبي اذا غضب الرشيد فقال « يا اذن لي امير المؤمنين ان ابوح له بما في ضميري فاخاطبه باعتبار انه هرون بن محمد وانا ابن عمه اسماعيل بن يحيى . . . » وتخنخ واعتدل في قعوده والرشيد يتجلد في سماع قوله وهو يكاد يلتقفه بعينيه من شدة التفرس

فقال « انت تعلم غيرتي على سلامة هذه الدولة وشدة محافظتي على بقاء هذا الخاتم بيد هرون وهذه البردة على كتفيه وتعلم ايضاً ما قد يجول في خاطر ابن اخيك . . وانا اعلم فصر باعه عن نيله ولكن المصلحة وحسن السياسة يقضيان علينا بملافاة اسباب الفتن لثلاً يرى اعداؤنا غرة منا فيغتاونا وهم كثيرون يكفي منهم الروم في القسطنطينية والامويون في الاندلس — وانا اعتقد عجزهم عن الفوز ولكن الحكمة تستدعي التكتاف وجمع الكلمة . . . وهذا هين على الرشيد اذا استخدم ذكاه ودهاه فيشغل اهل المطامع من اهله بخدمة دولته بدلاً من ان يتفرغوا لافلاق راحته . . . »

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفاً من استرساله في الحديث حتى يصرح باكثر من ذلك فيغلب الغضب عليه ولا يقوى على التالك فقال « قد كان بودنا ان نولي ابن اخينا مصر لولا ما قدمته من الوعد بها لاراهيم . . . فهل ترى لي حيلة اخرى ؟ »
فامرع اسماعيل بالجواب قائلاً وقد غلبت عليه الانفة والاسنقلال بالرأي « لي حيلة واحدة . . »

قال « وما هي ؟ »

قال وكفناه على ركبته كأنه يتحفز للقيام « نبايع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الامين والمأمون) — افعل ذلك ولوعلى سبيل الترضية . . . »

فلما سمع الرشيد قوله القى القضيبي من يده على السرير ونهض بغثة ونزل الى البساط بسرعة حتى انخرقت البردة عن كتفيه وكادت تسقط وقد نسي موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ثم أصلح البردة وجعل يخطر في الابوان فنهض اسماعيل وادرك ان بقاءه هناك اصبح خطراً ولا فائدة منه وأجل التصريح بما في نفسه لفرصة اخرى . فراجع من موقفه وقد رأى بنهوض الخليفة مسوعاً لخروجه من حضرته لان ذلك من علامات الصرف عند الخلفاء ولكنه لم يشأ الخروج على تلك الصورة لثلاً يستغشه الرشيد او يسي الظن به فقال « اظن امير المؤمنين ندم على ما اباحه من اطلاق لساني بين يديه واظنني تطاولت في الدالة عليه الى ابعد مما ينبغي فدخلت في مالا يعينني . . . فاعتذر له عن جسارتي . . . »

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على حائط الايوان فلما سمع قوله تحول اليه وتكلف ابتسامة لم تخف غضبه وقال « ان اسماعيل عندنا في المقام الذي تعلمه وله فضل النصح والمشورة على الدولة فلا يرييك ما رأيت من وقوفي بجاة .
وإذا غضبت فان غضبي لك لا منك وكيف اغضب من شيخ بني هاشم وحكيم بني العباس ؟ ولكن ساء في انك لم تطاب امرأً ممكنًا فاجيبك عليه حالاً مع رغبتني في رعايتك واكرامك . . . »

فادرك اسماعيل من خلال قوله ما كان يحاول اخفائه من الغضب ويتكلفه من التلطف في الجواب فقال « اشكر لمولاي تفضله وحسن قصده والظاهر ان سوء طالع ذلك الرجل قد اوجب هذا الاتفاق . . . اذ لكل وقت طالع وكان طالع هذه الساعة لا يوافق حظه . . . فهل ياذن مولاي بانصرافي الآن ونوجل ذلك الى ساعة ابرك من هذو ؟ »
فسر الرشيد لطلبه الانصراف في تلك الحال وقال « لا بأس من انصرافك يا عماء ؟ »
فرجع اسماعيل وهو منحن يمشي القهقري بين يديه على العادة في الخروج من مجالس الخلفاء حتى وصل الى الستارة وخرج والرشيد واقف ينظر اليه وقد قام في نفسه من الغضب ما اقلقه وحبب اليه الخلوقة بنفسه .

الفصل الحادي والاربعون

عبد الملك بن صالح

اما اسماعيل فخرج نواً الى جواده وقد ندم على مجيئه فركب ومشى التسلامان في ركابه وهما غافلان عما ينقد في قلبه من الغضب وما يتردد في ذهنه من الاسف على حال تلك الدولة بما يعلمه من تضارب الاحزاب واختلاف الاغراض . فوصل الى قصره والشمس قد تكبدت السماء فوجد ابن الهادي في انتظاره واستفهمه عما جرى فقص عليه بمض الخبر وابلغه عذر الرشيد في امتناعه عن تزويجه بالعالية وبالغ في الاعتذار عنه لئلا يهيج غضبه ولم يخبره بطلب ولاية مصر ولا ولاية العهد الى ان قال « واني آسف لما اتفق لي من الفشل والرشيد اكثر اسفاً مني على ذلك ولكن لا حيلة لنا في الواقع فاصبر وكن عاقلاً وسنغنم وقتاً ابرك من هذا لامرأه من هذا فان الرشيد حسن الظن بك . . . »

فلم يخف على جعفر غرض اساعيل من تلطيف الخبر ولكنه سابه وقال « اني صادق
 بامرك . . . ولكن هل تعلم السبب الذي بعث على خطبة العالية لابراهيم ؟ »
 قال « كلاً . . . ولكن للوزير دالة على الخليفة ولعبد الملك دالة على الوزير فالظاهر انه
 تقدم اليه ان يتوسط له بخطبتها عند امير المؤمنين وهو ابن عمها وكفى لها فأجاب طلبه »
 قال « لو كان الامر كذلك لمان ولكنتي اقص عليك السبب فتتحقق ما قلته لك من
 استحقاق هؤلاء الموالي بالخليفة واهله — اخبرني جاسوس لي عند جعفر في صباح هذا اليوم
 ان هذا الوزير كان في مجلس انس خلا فيه بندمائه فلبس الحرير وتضعخ بالخلوق وكذلك
 فعل سائر جلساءه وأمر حاجبه ان يحجب عنه كل احد الا عبد الملك بن بجران قهرمانه .
 فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بجران . وكان عبد الملك بن صالح ابن
 عمنا يراقب فرصة يخاطب بها الوزير في بعض حوائجه فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره
 فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك في الباب فظنه ابن بجران فامر بادخاله فدخل وهو
 في سواده وقلنسوته فرأى القوم في لباس المنادمة ولما رآه جعفر اربده وجيهه وانت تعلم ان
 عبد الملك لا يشرب النبيذ فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب المنادمة
 ودخل وسلم وقال اشركونا في امركم وافعلوا بنا مثل فعلكم بانفسكم . فجاء الخادم والبسه ثياب
 المنادمة واستدعى بطعام فاكل ونبيذ فاتوه برطل فشربه ثم قال لجعفر والله ما شرسته
 قبل اليوم . فزاده جعفر من النبيذ واتوه بالخلوق فتضعخ ونادم القوم احسن منادمة فذهب
 عن جعفر خجله . فلما اراد عبد الملك الانصراف قال له جعفر اذكر حوائجك فاني لا
 استطيع مقابلة ما كان منك . فقال ان في قلب امير المؤمنين موجدة علي فتخرجها من قلبه
 وتعيد الي جميل رأيه في . فقال قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عنده منك . فقال
 وعلي اربعة آلاف درهم ديناً . قال نقضى عنك وانها لحاضرة ولكن كوتها من امير
 المؤمنين اشرف بك وادل على حسن ما عنده لك . قال وابراهيم ابني احب ان ارفع
 قدره بصهر من ولد الخلافة . قال قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته . قال واوثر التنبيه
 على موضعه برفع لواء على رأسه قال قد ولاء امير المؤمنين مصر^(١) فانظر الى هذه
 الجسارة التي ليس اغرب منها الا رضاء الرشيد بها وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب
 النبيذ ونحن نلوم ابن عمنا الامين مع صغر سنه على شربه ونعده خليعاً وهذه هي الخلاعة
 ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان الرشيد اطاع جعفر ولم يهنه ما يترتب

على ذلك من ضعف الملك»

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظاً ولكنه اختصر في الجواب واطهر الاستخفاف بالقصة وقال «هكذا ابغتك الجاسوس ولا يخلو بلاغه من غلو ومع ذلك فليس هذا بالامر الهام فانا انقدم اليك ان تكتم ما دار بيننا وتصبر لئلا ما يكون» فسكت جعفر عن احترام لاجن اقتناع فقال اسماعيل «فاذهب الى البصرة وانا موافيك اليها بعد يومين»

قال «سمعاً وطاعة» فودعه واطهر انه يتأهب للسفر فاشتغل اسماعيل عنه فاخفى يوماً ثم اتى الى الفضل بن الربيع في منزله وكان الفضل لا يزال مفكراً في اسلوب يبلغ به خبر العلوي الى الرشيد وقد عاد محمد الامين واخبره بمحدث والدته ام جعفر وما دار بينها وبينه من خبر العلوي وما في نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك فلما جاءه ابن الهادي رحب به فاخبره بما سمعه عن امر عبد الملك بن صالح وزواج العالقة وما يدل عليه ذلك من ضعف الخليفة واستبداد البرامكة وحرصه على ابلاغ خبر العلوي الى الرشيد فقال له الفضل «قد اعدت كل شي ؟»

قال «وهل عينت من يذهب بذلك ؟»

قال «ليس لنا الا ابو العتاهية فانك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة»

قال وكأنه تذكر امراً قد نسيه «وهل عاد من اقتصاص اثر الطفيلين ؟»

قال «عاد وقد قبض عليهما وحبسهما في مكان امين لوقت الحاجة»

فايرقت اميرة جعفر وقال «لقد قتل البرمكي لا تحالة . . والآن دبر ما تراه لا بلاغ الخبر الى الرشيد فاني منصرف من بغداد لان عمي اسماعيل الح علي بالانصراف وانا واثق انك كفى لتام العمل . .»

قال «كن مطمئناً»

فودعه ورجع وهو يتوهم انه اغرى الفضل واستخدمه في مصلحته والفضل يعتقد انه استخدم ابن الهادي لغرضه لانه اذا سقط البرامكة عادت الوزارة له ولم يخف عليه ما في نفس ابن الهادي على الرشيد وانه انما يسعى في مصلحة نفسه لارجاع الخلافة اليه ولذلك كان يوجهه انه ساع في مساعدته على نيل الخلافة وهو انما يشتغل لاسترجاع الوزارة له ولا يهجمه كانت وزارته للرشيد او لسواه . . فكانت النيات مختلفة والوسائل متنوعة والمساعي متضاربة ولكن الغرض متفق فيها كلها وهو اسقاط البرامكة باية وسيلة كانت واذا اراد الله امراً هياً له اسبابه

الفصل الثاني والاربعون

المناجاة

فلندع الفضل في مساعيه ولنعد الى الرشيد فقد تركناه في الايوان وحده فلما خلا بنفسه ساءه خروج اسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلالة قدره فاخذ يفكر في ما دار بينهما ويردد ما قاله له فلم يجد في امكانه ان يفعل غير ما فعله فجعل يخطر في الايوان وقد ذهب وجدانه وتراكت عليه الهواجس فتذكر حاله مع وزيره وما بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى اصبح اكثر وجاهة ونفوذاً من ابناء عمه ثم رجع الى صوابه فرأى انه محمول على ذلك بيواعث الاحوال لان الوزير قابض على مصالح الدولة يدبر شؤونها ويتصرف في اعمالها بحكمة ودراية . وقد اراحه من مشاغلهما وخفف عنه اثقالها فضلاً عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لايه يجي من الفضل عليه وهو الذي اقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمه من ميله الى الشيعة العلوية وما يراه من كثرة الطاعنين به ولكنه كان يحمل طعنهم عليه محمل الحسد منه

وبينا هو يمشي في الغرفة ويفكر على هذه الصورة لاحت منه التفاتة الى السرير فرأى القضيبي الذي كان قد وضعه هناك فتقدم ليتناولوه ويتشاكل به في اثناء هواجسه فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فاذا فيها الايات التي قرأتها ام جعفر زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها — فلما بلغ الى قوله :

ونحن نحشى انه وارث ملك ان غيبك العبد

ولن يباهي العبد اربابه الا اذا ما بطر العبد

توارد الدم الى رأسه وحمي غضبه فاعاد نظره الى البطاقة فقرأها ثانية وهو يعمل الفكرة وقد نسي البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها على ذهنه فعاد الى التفكير في جعفر وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخليفة ويولي الامصار لمن يشاء ويهب الاموال بلا مشورة لا يحشى بأساً ولا يخاف اعتراضاً . فقال في نفسه « لقد آن لك يا هرون ان تستيقظ من رقادك وتنظر في امر هذا المولى وما بلغ من تطاوله فانه لا يلبث ان يمد يده الى اعظم من ذلك والعياذ بالله » ثم وثب من موقفه والقضيبي مشهور بيده كأنه يهاجم عدواً وهو يقول :

ان سهامنا اذا وقعت بقدر ما تعلو بها رتبة
 واذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقد ذنا عطبه^(١)

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيه من النعيم والابهة وتصور انه اذا مات افضى الامر الى جعفر لانه لا يجهل ضعف ابنه الامين ويعرف قوة المأمون وهو ابنه ايضا ولكن ضلعه مع الفرس لانه ربي في حجر جعفر وشب على حب الشيعة فاذا افضى الامر اليه وجعفر حي خرجت الخلافة من بني العباس . فندم على تسليم المأمون الى جعفر واهمال الامر الذي كان ينبغي ان ينظر فيه قبل كل شيء وهو بقاء الدولة لبني العباس . ثم تذكري كيف حرضه جعفر على البيعة للمأمون ولم يكف عنه حتى اطاعه فتوهم ان ذلك انما فعله لينقل الخلافة الى الشيعة بعد ذهابها من يد الامين فحرق اسنانه ندماً ثم عض اظفاله وهز رأسه وقال :

لقد بان وجه الرأي في غير اني عدلت عن الامر الذي كان احزما
 فكيف يرد الدر في الضرع بعد ما توزع حتى صار نهياً مقسما
 اخاف التواء الامر بعد استوائه وان ينقض الجبل الذي كان ابرما

وعاد فاسترجع رشده واعمل فكرته في حقيقة الواقع فغلب عليه الخوف من جعفر . . . لما بعلمه من كثرة مرديبه وانصاره وفيهم جماعة كبيرة من نخبة رجال الدولة حتى بني هاشم ممن غمرهم بالعطاء وقيدهم بالانعام . . . فكانت هذه المواجس تتردد في مخيلته وهو يمشي في الابوان ويداه وراء ظهره . واتفق وهو في ذلك انه وقف امام السترفراً عليه بيتين مطرزين بالقصب هذا نصها :

اباك والامر الذي ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
 فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر
 فلما قرأها امسك نفسه وعاد الى صوابه ونظر الى البطاقة في يده وقال « لعل الذي كتب هذه الايات من حساد جعفر وهم كثيرون واني في كل حال صابر له اترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة »

الفصل الثالث والاربعون

باب الرشيد

ففى فى تلك الخواطر وامثالها حيناً وهو يقف تارة ويمشي اخرى وعليه ذلك اللباس
 الفخيم واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان الشعراء والندماء يباب العامة منذ الصباح
 لانه يوم الجلوس لهم فهل يامر امير المؤمنين بيقائهم أو يصرفهم ؟ »
 فلما سمع الرشيد قوله انتبه لنفسه كأنه هب من رقاد وتخير فى امره لانه فى حال لا
 يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء وانما بفضل الخلوة ولكنه استنكف من ان يشعر
 احد بقلقه اذا صرف الشعراء فقال من فى الباب من هؤلاء ؟ »
 قال « هم كثيرون وفيهم المقيمين فى بغداد من اهل الرواتب المعينة والارزاق الجارية
 وفيهم الوافدون للاستجداء من اطراف البلاد »
 فقال « اما الوافدون فتاذن لهم فى وقت آخر اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال
 ان يحسن جوائزهم ويطيب خواطرهم ٠٠٠ ومن بالباب من اهل الرواتب ؟ »
 قال « فيهم من العلماء الاصمعي والكسائي وابوعبيدة ٠٠ فقطع كلامه و اشار اليه
 بيده ولسان حاله يقول « دعني من العلماء واذكر غيرهم »
 فقال « اما الشعراء فمنهم الحسن بن هاني (ابو نواس) وابو العتاهية ومروان ابن ابي
 حفصة ٠٠٠ واما ٠٠٠ »

فاشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لانه كان يستلذ شعره لما فيه من الطعن
 بالعلويين ولكنه لم يجد فى نفسه راحة لسماع الشعراء او الادب وعلم انه لا يجلو ما فى خاطره
 غير الغناء فقال « دع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلوا الى قاعة الشراب فى هذا القصر
 واخبرني هل يبابنا احد من الندماء والمغنين والملمين »

قال « اما المغنون فرأيت منهم بعض اصحاب مولانا ابراهيم بن المهدي اخي امير المؤمنين
 الذين هم على طريقتهم فى الغناء كابن جامع وابن نابة وابن ابي العوراء ويحيى المكي ورأيت
 بعض اصحاب اسحق الموصلى المجهين بطريقتهم وممعتهم يتقارعون فى اي الطريقتين افضل ٠٠٠ »
 فقطع الرشيد كلامه وقال « دعنا من هذه الطبقات فاني لا أرى الاجتماع للمناظرة فى
 طرق الغناء اليوم ٠٠٠ فادع بزصوما الزامر و ابا زكار الرباباني الاعمى وحسينا الخليل واما

الغناء فاحب سماعه من قبان القصر « ثم اطرق وقال « ولكن ذلك لا يحلو الا بوجود ابراهيم الموالي . . . ادع لي مسروراً الخادم . . . »

فاشار مطيعاً وخرج ثم اتى مسرور بسيفه وفضاظته وحيي فقال له الرشيد « الي بابراهيم المغني على عجل . . . »

فظل مسرور واقفاً فعلم الرشيد انه يريد التكلم فقال « ما بالك لا تذهب ؟ »

قال « لا ادري اين اجد ابراهيم الآن وامير المؤمنين قد اذن له ان يخلي باهله يوماً في الاسبوع لا يطالبه فيه . . . وهو هذا اليوم »

قال « هاته حيثما كان ولا تراجعني »

فلم يسه الأ الطاعة فخرج وصفق الرشيد فجاءه بعض الغلمان فقال « الي بصاحب اللباس » وهو الذي يلبس الخليفة ثيابه فأتى . فقال له « اني عازم على مجلس متادمة فالبسني ثيابها فخرج ثم عاد ومعه عدة وصفاء يحملون تلك الثياب وهي غلالة وشي منسوجة بالذهب وعمامة صغيرة موشاة وازار رشيدي عريض العلم مضرج — تلك كانت ملابسه الصيفية في مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون في ايديهم المباخر فيها العود والند . وفي ايدي آخريين جامات الطيب . فبدأ صاحب الملابس بنزع ما على العمامة من الحلي حتى حل العمامة واخذ البردة والجببة ثم ألبسه الغلالة وعممه وناولته الازار فاتشح به . فلما فرغ من لبسه خرج من باب في الابوان يؤدي الى دار النساء . وما زال ينتقل من رواق الى آخر ومن دار الى اخرى حتى دخل داراً مفروشة الصخر بالرخام وملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ومنها الى قاعة ارضها وحيطانها ملبسة بالوشى المذكور وقد نصبوا له هناك سريراً من الصندل وارخوا في منتصف الغرفة سترًا من ذلك الوشى عليه نقوش جميلة وحول ارض الغرفة الوسائد من الوشى المطرز ولبس عليها احد لان الشعراء يجلسون في القسم الآخر من الغرفة وبينه وبينهم الستر

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه تذكر انه جائع ولم يتناول طعاماً منذ الصباح فامر صاحب الطعام ان ياتيه ببعض الاطعمة المستحبة فنصبوا له مماطاً واتوه اولاً بالمرق من السكباغ تشييطاً لجسه ثم جاؤه بمبابوخات البقول ثم الدجاج فالشواء من الحمام أو الدراج فانواع السمك فبعض ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول ثم قدموا له رفاقاً من السنبوسج المحشية باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل . ثم الحلوى من التالودج واللوزينج واخيراً النقل للتعامل بعد الطعام . وكان باكل وخاطره قلق حتى اذا فرغ

من الطعام سمع عوداً يضرب ضرباً مطرباً على نغم لم يسمعه من قبل
فاصاح بسمعه فاطربه ذلك الصوت وعلم انه آت من الرواق وبينه وبين ذلك
المكان سترٌ فشرع يذهب الانقباض عن صدره شيئاً فشيئاً وهو يعجب لذلك النغم الغريب
وقد ادرك من نعومته انه صوت جارية فصاح « من بغيننا في الرواق جزاه الله خيراً؟ »
فسمع الجواب من وراء الستر « هذه قرنفلة وصوتها مثل رانحتها » فعلم الرشيد ان الذي
يخاطبه حسين الخليلع فصاح فيه « فبجك الله واي قرنفلة؟ »
فقال « هي جارية ارسلها مولانا ولي العهد هدية لامير المؤمنين في هذا الصباح . . .
غني يا قرنفلة ان الخليفة طرب لصوتك في السعادتك . . . وباليتني كنت مكانك فيغنييني ذلك
عن اللطم والصفع على الاقل »

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك وضحك سائر السامعين الا حسيناً المذكور فانه استأنف
الكلام قائلاً « هذا هو حظي بتقربي من الخلفاء انا ابكي وهم يضحكون . . . نفسي ان يسعدني
الحظ واصير قرنفلة او وردة يشمني الناس ويسمعون صوتي أو يرقون بجلدي
ولكنني اخاف لادبار سعدي ان يجاب دعائي ويقع الالتباس في طلبتي فيجعلني القضاء بطيخة
او سكباجة فيأكلني الناس ويمتعون بي واصير انا الى ظلمة الاحشاء وبس الظلمة . . .
غني يا قرنفلة غني . . . اطلب الى الله ان ييقيني على ما انا . . . وقد قيل نحس تعرفه ولا
سعد لتعرف به . . . »

فاغرب الرشيد في الضحك ولم يبق احد هناك الا قهقه ثم سكتوا جميعاً ينتظرون
ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده احد من الندماء او الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب فلم
يكن يرى وجهه في ذلك المجلس الا الغلمان والوصائف الوقوف في خدمته او الترويج له —
وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب حاجساً مما كان فيه ذلك الصباح ثم قال « قد علمت ان
هذه القينة جديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من في هذا القصر من
القيان . . . فبج الله ابراهيم الموصلبي اين هو؟ »

فقال الحاجب « قد ذهب مسرور في اثره ولم يأت بعد »

فقال « انصبوا الستارة لهذه المغنية وضموا اليها احسن من في قصرنا من القيان ممن اتقن
الصناعة على يد ابراهيم . . . وهاتوا الشراب . . . »

الفصل الرابع والاربعون

مجلس المنادمة

فسر السامعون بتلك الاوامر لما سيشنف آذانهم من معجزات الطرب . وكان في قصر الرشيد ثلاثمائة فينة وفيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها^(١) من المتفننات بالضرب على آلات الطرب وان تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصناعة — غير التي جارية لا يحسن الغناء وهن السراري فاسرع الغلمان لتدبير ذلك . وكان المنوط بالسراي والقيان مسرور الخادم وهو غائب فتاب عنه قيم الجوارحي — ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج اليه من الاباريق والاقداح من البلور والذهب والفضة وتليها النقوش على نحو ما وصفناه في مصطبة الامين . واما الاثربة التي تعاطوها في ذلك المجلس فانواع الانبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر او التفاح او الشمس او غيرها من الفاكهة اللذيذة واشربة من محلول العسل او الدبس او غيرها . فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقى بآباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلاً وهو محبوب عن القيان بستارة وعن الشعراء بستارة اخرى ومع القيان برصوما وابوزكار وكان كلما غنت احدها صوتاً عرفها وطرب لها ونادها باسمها . ثم صاح بالحاجب فاتي فقال له « قل لحسن بن هاني ينشد ما عنده » فبلغه امر الرشيد فقال اياتاً كان قد هياها فانشدها انشاداً على نادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح « وانت يا ابن ابي حفصة »

فقال « لبيك يا امير المؤمنين » واخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد فمنها التعريض بالعلوين « فاذكره ما كاد ينساه من هواجسه فصاح فيه « دع عنك هذا الآن . . . قل لابي العتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر؟ » فاجاب ابو العتاهية « ان ما نسمعه يا امير المؤمنين من اسباب الطرب يرني الزهد بالمجنين . . . وقد صدق القائل ان الغناء رقية الزنا »

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول « هذا هو الشعر بعينه . . . فقل بيتاً او بيتين » قال « سمعاً وطاعة وساتلو ما يحضرنى بعد قليل لاني تركت النظم من زمن طوبل » ويناهم في ذلك دخل مسرور فلما رآه الرشيد صاح فيه « وياك ابن ابراهيم »

قال « هو بالباب يا مولاي .. لقد اتيت به من اقاصي الارض .. »
قال « ا دخله الي ليكون قريباً من هؤلاء القيان يعلمن او يساعدهن »
فدخل ابراهيم وسلم فامر له الرشيد بالجلوس وقال له « نفلتنا ازعجناك لدعوتنا اباك
على غير انتظار ... ولكننا آثرنا لذتنا على راحتك ... فاعذرنا »
فحجل ابراهيم لهذه الجاملة وقال « نحن عبيد امير المؤمنين واذا دعانا الى خدمته فقد
شرفنا ورفع منزلتنا ... »
فقطع الرشيد كلامه وقال « اسمع الغناء الجديد ... » والتفت الى صاحبة ستارة
القيان وقال « ان ابراهيم استاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد »
فصاحت الجارية « غن يا قرنفة .. »
فلما سمع الموصلي اسمها ابتم وقال « قرنفة هنا ؟ ان هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت
وانقان الصنعة وطالما كنت اتنى دخولها في جملة قيان القصر .. وهي من جملة الجواري
البيض اللواتي تعلمن الغناء تلى يدي ومن اكثرهن براعة وانقاناً »
قال الرشيد « ان ولدنا محمداً اهداها الينا في هذا اليوم ولم ار وجهها بعد .. »
قال « ووجهها جميل يا مولاي .. »
فصاح حسين الخليل من وراء الستر « نحمد الله لان استاذها علمها الغناء فقط ولم
يعلمها الجمال »
فضحك الرشيد وامر الساقى فصب له قدحاً ولا ابراهيم قدحاً وقال « ان حسيناً خفيف
الروح ... اشرب هذا القدح يا ابراهيم »
فصاح حسين الخليل من الداخل « جزى الله امير المؤمنين خيراً لانه انصف بيني
وبين مغنيه فاعطاني خفة الروح واعطاه القدح كأن خفاف الروح لا يشربون لثلاً
يزدادوا خفة فيطيروا »
فضحك الرشيد وقال لا ابراهيم بصوت منخفض « فبحه الله رمى حجراً فاصاب اثنين
بجعلني من الثقلاء وهو لا يدري »
فسمع الخليل قوله فاستدرك خطأه وقال « استميت عذر امير المؤمنين فان منع
الشراب عني قد اسكرني فخلطت ... ورميت القول جزافاً ... ولكن صاحب الحاجة
يعرف حاجته ولذلك فلا اخن كلامي تجاوز ابراهيم خطوة واحدة .. »
فضحك ابراهيم وقال « كن مطمئناً يا حسين فاني قد حبسته عندي فاكف عني »

الفصل الخامس والاربعون

تغير الحال

ثم قال الرشيد « نسمع يا قرنفلة .. »

فاخذت تصرب على العود وحدها وتغني والرشيد يباليغ في استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها، وفيهن من كان لها حظوة كبرى عند الرشيد فسمع الخليفة لغطاً وراء الستارة عقبه ضحك فقال « وعلى اي شيء يضحكن »

قالت صاحبة الستارة « نقول ضياء (احدى القيان) ان امير المؤمنين محجب بقرنفلة وهي لا تحسن الا صوتاً او صوتين تعودتهما فاذا امر بعض الشعراء بنظم بيتين نغنيهما ارنجالاً فيظفر الفرق »

فصاح الرشيد « احسنت احسنت .. الى ابا العتاهية بيت او بيتين مما نظمته

الآن »

فقال « لبيك يا امير المؤمنين .. هل اقول وعلى الامان بما ربما كان ؟ »
فاستغربوا سؤاله ولا سيما الرشيد ولكنه ظنه يقول ذلك من قبيل المجون خوفاً من غضب القيان فقال « عليك الامان »

قال « وتجزيني يا امير المؤمنين غير اجازة سائر الشعراء .. لاني لم اقل الشعر من زمن مدبد »

فازداد الرشيد استغراباً لهذه الشروط ولكنه ما زال يحسبه مازحاً فقال « وتجزيك »
قال « وتسمح لي ان ارى وجهك على حدة ؟ »

فضجر الرشيد من كثرة الشروط ولكنه تحمله وقال « ولك ذلك ايضاً .. قل »
فقال « لا تعجب يا مولاي من دالتي وجسدي فقد قيل : »

ولن يباهي العبد اربابه الا اذا ما بطر العبد

فلما سمع الحضور هذا البيت ظنوه بشير الى جراته في شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . واما الرشيد فلما سمع قوله تذكر انه قرأه منذ ساعة في تلك البطاقة فانقبضت نفسه وادرك ان ابا العتاهية لم يقدم على ذلك الا وفي نفسه شيء لا يريد اسراره اليه

وخصوصاً بعد ان اشترط ان يرى وجهه ككتابة عن مقابله فتغير الرشيد ونسي ما كان فيه من الطرب واصبح همه الاطلاع على سر تلك البطافة فنهض للحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئاً مما في خاطره لانهم خلبو الذهن من امر تلك القصيدة . ثم صفق بجاء مسرور فامر اليه ان يجيز الشعراء والقيان وان يأتيه بابي العتاهية وحده واحسن الموصلي بوجوب الانصراف فاستأذن بالخروج وخرج سائر من كان في المجلس وتحولت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار . اما مسرور فعاد ومعه ابو العتاهية وقد قبض على عنقه لاعتقاده انه السبب الوحيد في انقلاب مسرورهم الى كدر ولم يكن يشك في ان الرشيد سيأمره بقطع رأسه اما ابو العتاهية فانه اقدم على ذلك الخطر طمعاً بمبلغ كبير من المال وعده به الفضل ابن الربيع ومع جبنه وضعفه فقد غاب الطمع عليه حتى حمله على تلك المخاطرة ودير هذه الوسيلة وكان مطلعاً على تلك القصيدة ولا يبعد أن يكون هو نظمها لام جعفر . وقد علم ان ام جعفر بعثت بها باكرًا وانها وضعت على سرير الخليفة في دار الخاصة ولا بد من ان يكون الرشيد قد رآها وقراها فالاشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فاذا استزاده قص عليه خبر اطلاق العلوي . على انه لم يشعر بمقدار الخطر الذي عرض نفسه له الا لما رأى انقلاب ذلك المجلس من الغناء والضوضاء الى الانقباض والسكوت تخفق قلبه وخاف على حياته وخصوصاً بعد ان قبض مسرور على عنقه وجاء به الى ما بين يدي الرشيد فانه دخل تلك الغرفة وقد انحرفت عامته وتشوشت لحينه وارتعدت يداها واصطكت ركبته حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فلما وقع نظره على الرشيد ترامي على قدميه واخذ في تقبيلها وغاب عليه البكاء فتحقق مسرور عند ذلك انه مذنب ولا يلبث ان يسمع امر الخليفة بقتله فوقف ويداها على قبضة الحسام وعيناه على شفتي الرشيد

اما الرشيد فلما رأى ما استولى على ابي العتاهية من الرعب وما اظهره من التذلل والاستعطاف بعد ان اعطي الامان اشفق عليه وقال « لا بأس عليك يا ابا العتاهية . . انك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء . . قم لا تخف . . »

فما صدق انه سمع تلك العبارة حتى وقف وتكتف وهو مطرق لا يرفع بصره عن الارض والرعدة ظاهرة في ركبته وبدبه وظل ساكتاً خائفاً حتى سمع الرشيد يامر مسروراً بالخروج فرمقه بطرف عينه فلما تحقق خروجه اطمان خاطره ورفع بصره الى الرشيد مع الخشوع

الفصل السادس والاربعون

كشف السر

فاتكأ الرشيد على السرير وأوماً إليه ان يقعد فقعد جاثياً على البساط والدموع لا تزال في عينيه فقال له « لا تخف يا ابا العتاهية انك في امان . . »

فاجاب وصوته مخنق « انا آمن يا امير المؤمنين ؟ »

قال « انت آمن اذا صدقتني »

قال « آمن بنك ومن وزيرك ؟ »

قال « لا تكثر السؤال . . . اذا امنك امير المؤمنين فلا خوف عليك »

فتنفس الصعداء حتى هدأ روعه ثم قال « وسيعلم مولاي اني انما ركبت هذا المركب

الخشن استهلاكاً في سبيل خدمته »

قال وقد ملء الانتظار « قل لي من اين عرفت هذا الشعر ومن اطالعك عليه »

قال « لم يطالعني عليه احد »

قال « وكيف عرفته ؟ أعله من نظرك ؟ »

قال « . . . نعم »

قال « وما الذي حملك على نظمه ؟ »

قال « حملني على ذلك امر عرفته وعلمت ان ليس بين رجال بطانتك من يجسر ان

يطلعك عليه فاحتلت هذه الحيلة في إيصاله اليك فارجو ان لا اكون قد اسأت الى نفسي

والى اهلي »

قال « لا بأس عليك . . . وما هو ذلك الامر وما دخل وز برنا فيه »

قال « انه بتعلق به وحده باسيدي وسأقصه عليك فاذا تحققت وقوعه فانا آمن

الأ فدمي مهدور »

قال « اقص الخبر ولا تخف . . »

فقص عليه حكاية العلوبي ونجاته على يد جعفر الى آخر الحديث

وكان ابو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف وينقطع والرشيد مصغ بكل جوارحه وجاشه

رابطاً . فلما أتى على آخر حديثه سأله « هل انت واثق بصدق هذه الرواية ؟ »
قال « لو لم اكن واثقاً . . بل لو لم اكن على يقين من الامر لم اعرض حياتي لهذا
الخطر العظيم ؟ »

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده فأكبر ان يدخل ذلك الشاعر
بينهما ورأى من الحزم والحكمة ان يعالطه فانغصب ضحكة وقال « لا ريب عندي انك
اقدمت على كشف هذا الامر غيرة منك على مصلحة الدولة ولذلك فانت اهل للشكر
والجائزة . . ولكنك كلفت نفسك عناء عظيماً بلا طائل لأن وزيرنا لم يأت شيئاً من عند
نفسه فهو لم يطلق ذلك العلوي الاً بشارتي اذ تحققت انه لا بأس باطلاقة »

فلما سمع ابو العتاهية ذلك اسقط بيده وتولاه الحجل ولكنه اطمان على حياته وقد
ربح المال الذي وعده الفضل به . على انه ظل خائفاً من جعفر اذا بلغه خبر هذه الوشاية
فقال « احمد الله على ان ذلك لم يحدث الا برأي امير المؤمنين . . وقد اطمان بالي على حياة
الوزير ولكنني اصبحت خائفاً على حياتي منه اذا اتصل به اني نقلت هذا الخبر فيحسبني
من اعدائه . . »

فقطع الرشيد كلامه قائلاً « لا تخف . . فاني سأكنم ذلك عنه كمن مطمئناً »
قال ذلك ونهض فنهض ابو العتاهية وقد هدأ روعه . اما الرشيد فالتجسس غضبه حتى ضاق
صدره عنه وكاد يصصره — فعل ذلك رغبة في اخفاء ما في نفسه عن اعداء جعفر . ولم
يخف عليه ان ابا العتاهية لم يأت من عند نفسه وان الفضل هو الذي ارسله ولكنه اكتفى
بما سمعه وصفق فجاء مسروراً كالبرق الخاطف فقال له الرشيد « خذ ابا العتاهية
وأمر صاحب بيت مالنا ان يعطيه الف دينار واطلق سبيله »

فقال « سمعاً وطاعة يا امير المؤمنين . . . » وامسك ابا العتاهية بيده وخرج به
فلما خلا الرشيد بنفسه هاج بلباله وعادت اليه وساوسه فتذكر ما دار بينه وبين
اسماعيل في ذلك الصباح وكيف رداه خائباً مع قرابته وجلالة قدره مراعاة لحق جعفر
وكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق اسيراً عهد به اليه — فثبت عنده ما كان يتهمه به
من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين — فلما تصور ذلك هاج غضبه وانمي
موقفه وجعل يمشي ذهاباً واياباً على غير هدى ويخاطب نفسه قائلاً « هل انا في حلم ؟
ايرتكب جعفر هذه الخيانة وقد أحببته واكرمه ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد
الاحكام واطلقت يديه في شؤون الدولة ؟ وهل يعقل ان يكون ما سمعته وشاية من

الحساد؟ لا يعقل ذلك... ولكن كيف يتصور ان يدبر بي جعفر ويطلق عدواً سلمته اليه مع ما يعلمه من كرهه للعلويين • بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته؟ • وهذا ايضاً لا يعقل... الا ان يكون الرجل مصاباً في عقله... لانه يعلم بطش هرون اذا غضب...»

الفصل السابع والربعون

مداعبة السباع

قضى ساعة في هذه المناجاة وهو لا يستقر في موقفه واخيراً استوقف خاطره واعمل فكرته في ما يجلو عنه هذه الشكوك فرأى ان يسأل جعفر نفسه عن صحة هذا الخبر فاذا كان صحيحاً بادر الى الانتقام • فامسك غضبه وتجلد • وكان الرشيد مع سرعة غضبه وشدة بطشه قويا الارادة له اقتدار عجيب على الكظم وكتيان ما في نفسه • فصفق فجاءه مسروراً فقال له « قد حدث شغل يستدعي حضور الوزير الى هنا • فادع لي صاحب الطعام واذهب انت الى الوزير ادعه اليّ »
فسأله « ماذا اقول له؟ »

فاجاب « قل له ان امير المؤمنين احب ان تتناول معه العشاء في هذا المساء...»
ولا تقل له غير ذلك...»

قال « سمعاً وطاعة » وخرج

وكانت الشمس قد قاربت المغرب فلما جاء صاحب الطعام قال له « اعدد مائدة اتناول عليها العشاء مع الوزير ولكن فاخرة »

فاشار مطيعاً وخرج ومكث الرشيد وحده فعادت اليه افكاره وقد تعب منها فاحب ان يلهو ريثما يأتي جعفر فخطر له ان يخرج الى حديقة القصر يزه فيها نظره فامر برداء تزمل به وجاءه غلام البسه الثعال وسواها بقدميه • فخرج الرشيد الى الحديقة يتمشى بين الاشجار والرياحين الى حيث لا يعلم

فما لبث ان وجد نفسه بجانب اقفاص السباع وكان بينها اسد تعود الرشيد ان يلهو بمداعبته وهو داخل القفص • فلما وقع نظره عليه شعر بشيء استلفت انتباهه وهو ارتياح

طبيعي في الإنسان إذا رأى الأسد أو غيره من السباع في قنص . ولعل سببه الإعجاب بقوتها
والدهشة من منظرها غير ما يجيش في النفس من حب التمثل بها . ومنظر السباع يهيج القوة
الغضبية في الإنسان فكيف إذا كان غضباناً ؟ فوق الرشيد عند القنص وأمر السباع أن
يرمي للأسد طعامه فأتى بخروف كان قد ذبحه وجعله قطعاً صغيرة فرمى له قطعة فوثب الأسد
عليها والتقمها دفعة واحدة لأنها صغيرة ووقف ينتظر قطعة أخرى فدعى الرشيد السباع
أن يرمي إليه شيئاً فجعل الأسد يزأر ويخطر في القنص ذهاباً وإياباً وذيله كالتوس فوق ظهره
ينظر إلى السباع بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما والسباع يريه اللحم عن بعد . فلما استبطأ
الطعام أقبل يضرب قضبان القنص برأسه تارة ويغالبه أخرى يحدق في قطعة اللحم بيد
السباع ويزأر ويكثر عن انبائه والسباع يضحك والرشيد يشارك الأسد بالغضب وقد
ازداد عبوساً وازدادت امرته انقباضاً حتى كاد يفتك بالسباع عنه — كأنه تصور نفسه
شريكاً له في ذلك الغضب لأن حاله مع جعفر مثل حال الأسد مع فريسته . ولكن
الكواسر ليس لها ما يعقلها عن اظهار احساسها فغضب ونفاق وهي في اقصاها . اما الرجل
العاقل فيملك غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهي بين يديه مثل شأنه مع وزيره
في ذلك اليوم . فرأى نفسه اسداً عاقلاً فاذا لم يستطع امساك نفسه كان حيواناً اعجم
فكان الرشيد يفكر في ذلك والسباع ينتظر امره ليرمي القطعة للأسد حتى زأر الأسد
زارة نهبت الرشيد له فإشار إلى السباع فرمى له القطعة فاتقض عليها والتقمها وعاد إلى
الوزير حتى رمى له القطعة الثالثة والرابعة وهكذا حتى شبع . فربض ووضع رأسه بين ساعديه
ولم يعد يتحرك ولكن عينيه ما زالتا تبرقان والحلق ظاهر فيهما

قضى الرشيد ساعة يلهو بذلك المنظر حتى سري عنه وزاد تمكناً من اعتقاده ان رابط
الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان وامسك غضبه كان اسداً عاقلاً — واراد ان يكون
هو ذلك الاسد في تلك الليلة

فلما غابت الشمس واخذت الاضلال تنكاثف فوق قصور بغداد وبساتينها رجع الرشيد
إلى قصره وهو يسير بين الأشجار بثوبه الموشى وعمامته المزركشة والغلمان يتباعدون عنه
احتراماً له وقد لحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه والرشيد يحسب سره مكتوماً . وهو في
ذلك سمع دبدبة وصهيلاً وصلصلة وضوضاء يباب القصر فعلم انه موكب جعفر فتجاهل وظل
ماشياً حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسروراً فاخبره ان الوزير ينتظره في تلك الدار
فقال له « ادعه لموافاتي إلى القاعة التي كنا فيها في اصيل هذا اليوم »

ومشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد اضيئت فيها الشموع على مناور الذهب وفاحت
روائح البخور والاطياب فتربع على السرير ولم تمض هنيئة حتى اقبل الحاجب يخبره بقدم
جعفر فقال « يدخل . . ليس على الوزير حجاب »

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجببة على عادته في مجيئه لمقابلة الخليفة وهو لباس
العباسيين الرسمي . وكان جعفر خائفاً من ذلك الطلب في آخر النهار لعله ربما يتوقعه من
سعاية حساده به بشأن العالفة بعد ان اطلع ابو العتاهية على سره ورأى ابنه مع
والدتهما رأي العين — فلما دعاه مسروراً الى الرشيد اوجس خيفة وساله عما يريد منه فقال
« لا ادري » ولم يتوسم في وجه الرجل سوءاً ومع ذلك فانه ركب في موكبه الحافل وفيه
جماعة من الفرسان الاشداء ممن يستهلكون في نصرتهم ودخلوا معه الى الباب الرابع على
غير المعتاد في من يدخل قصر الخلد من القادمين الا بئى هاشم والوزير وامثالهم من المقربين .
فترجل جعفر واقبل على دار الخاصة ومسرور يسير بين يديه لا يتكلم

الفصل الثامن والاربعون

المدحاة

فدخل الوزير تلك القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وقلبه يرتجف
خوفاً . فلما اقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال « ليتك جئتني ببئى لباسي فان
تجلسنا مجلس انس » ودعاه للعود بجانبه على السرير . فغياه وقعد متادباً وقد سرى عنه
واطمأن باله . وجعلا يتطارحان الاحاديث والرشيد يخفي به وبلاطفه . ومما قاله « لقد
دعوتك رغبة في انسك لاني شعرت بئلى في اثناء هذا النهار على اثر ملاقاتي ذلك الوفد
الهندي » واقبل يقص عليه ما جاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السيورية
وما كان من قوتها وفتكها بالاسد

فاجابه جعفر « ما زال قصر الخلد مصدر الابهة والسؤدد ولا زال امير المؤمنين مؤبداً
بنصر الله يتزلف له الملوك والسلاطين »

والقاري . يعلم ما في قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من خوف بطشه اذا اطلع على
حاله مع العالفة وما ينويه من النجاة بها اذا اطلع الرشيد على سرهما — فكانا يتداجيان

وفي قلب كل منهما غلُّ على صاحبه . وما زالا في ذلك حتى آن العشاء ومدَّ السحاط
وقد أعدت عليه ألوان اللعوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة والرياحين وأصناف النقول
ووقف الغلمان بآباريق الماء وأقداح الشراب . فقعدا بأكلان والرشيدي يباليج بأكرام
جعفر حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف فيلقمه يده^(١) ويناوله السنوسجة بعد
السنوسجة والتفاحة بعد التفاحة ويش له ويحادثه ويضحك لحديثه حتى تطرق الى حكاية
العلوي فقال له « وما جرى لذلك العلوي الذي عهدت به اليك ؟ »
قال « هو بحاله يا امير المؤمنين لا يزال في الحبس كما امرت »
فابتسم الرشيدي وقال « هل هو هناك ؟ »
قال « نعم يا امير المؤمنين »
قال « بحياتي ؟ »

ففظن جعفر ان سؤاله لم يكن بسيطاً فبغت حتى ظهرت البغته في وجهه وقال « لا
وحياتك . . بل اطلقته لاني لم اجد مكروهاً عنده ولا خوف منه . . . وزد على ذلك اني
اخذت عليه الموائيق والعمود حتى لا يعود الى شيء مما كان فيه »
فضحك الرشيدي وقدم لجعفر خوخة كانت في يده وهو يقول « بورك فيك . . . فقد
فعلت ما كنت ارجوه منك ولم تتجاوز ما في نفسي »
فاستأنس جعفر بتلك الملاطفة وخصوصاً لما غير الرشيدي الحديث واقبل يمازحه
ولما فرغ من العشاء جاءها الخدم بأنية الغسيل فغسلا ايديهما وجلسا يتجادلان ساعة ثم
استأذن جعفر بالذهاب فاذن الرشيدي له ومشى لوداعه الى باب القاعة . فلما ودعه ورجع
حرق اسنانه وقال في نفسه « قتلي الله ان لم اقتلك »

اما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيدي ولا انخدع بملاطفته ومجاراته فقد خرج وهو
يعلم ان مركزه اصبح في خطر لا اعتقاده ان تلك القصة لم يرد ذكرها عرضاً كما احب الرشيدي
ان يوهمه ولا كان ينوي اطلاق العلوي كما زعم — وكيف يصدق ذلك وقد كان هذا
العلوي مطلقاً ومعه امان بخط الرشيدي وختمه فما زال الرشيدي يسعى حتى افسد الامان ومزقه
وامر بالقبض على الرجل وجسه خوفاً منه . فهل ينطلي على جعفر انه كان ينوي اطلاقه
مع ما اخبره من طباع الرشيدي وكفمه وملاينته . ولكنه اظهر انه صدق قوله واقترفا
وهما يتفادعان ويتداجيان ويظن كل منهما انه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع

الفصل التاسع والاربعون

الخروج للصيد

لما رجع الرشيد بعد وداع جعفر دخل غرفة الرقاد وهو يفكر في مامر به ذلك اليوم من الغرائب . فتذكر يحيى اسماعيل في الصباح وما كان من رده ولم يقض له حاجة رعاية لخلق جعفر وزيره . وما عرفه بعد ذلك من استبداد هذا الوزير في الامور واطلاقه ذلك العلوي حتى قام في نفسه ان يقتله . ورأى انه اساء معاملته اسماعيل وهو يعتقد نصحه وحسن قصده فاحس بافئقاره الى مجالسته ليطلعه على ما فعله جعفر ويسر اليه ما نواه من الفتك به لانه كان شديد الثقة باخلاصه ولم يكن يثق باحد من اهله او رجال دولته مثل وثوقه به علي نية ان يتطرق بذلك الى الاعتذار له عن رده خائباً . وشعر الرشيد بضيق صدره فلم ير خيراً من خروجه للصيد بفرج به كربة . فلما اصبح دعا مسروراً خادمه وامره ان يوصي اصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى ارض دجيل (قرب بغداد) الى ان قال « وهل تعلم مقر اسماعيل بن يحيى »

قال « نعم بامولاي »

قل « اذهب اليه وادعه ولكن لا ترعجه بفظاظتك »

قال « واذا سأني عما يريد امير المؤمنين منه ؟ »

قال « قل له اني عازم على الصيد واحب ان يكون معي »

فاشار مطيعاً وخرج الى الفهادين والبيازرة والحجالين واصحاب الصقور والكلاب وسائر خدمة الصيد والقتص فامرهم بالخروج الى ارض دجيل . وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم الى ذلك المكاف يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب او تدريب . وكانوا ينصيدون في ارض دجيل وهي عبارة عن بقعة من الارض مساحتها عدة فراسخ في مثلها قد احاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة مبني بالاعمدة المنصوبة وقد شدد بعضها الى بعض بالامراس او الاسلاك بشكل سور منيع . وكانت عاداتهم في الصيد ان يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور من مقعره فيضربون حولها حلقة من الجهة المنفوحة

استدراك — جاء في سطر ٦ و ٢٣ من صفحة ١١٩ من هذه الرواية « العالية »

والصواب « العباسة »

و يطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم وهي تفرُّ امامهم بين الاعشاب والادغال فلا يزالون يضايقونها ويحدُّونها حتى يدخلوها وراء ذلك السور ولا يكون لها مجال . فاذا انحصرت في ذلك الموضع اقبل الخليفة ومن معه من الخاصة وتأنقوا في القتل فيقتلون ما يقتلون و يطلقون الباقي ^(١)

وكانت عادة الرشيد اذا خرج للصيد ان يجول بعض النهار على الجواد في ارباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياح حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وأن صيدها فيأتى و يباشر فنص بعضها بنفسه او بتفريج بمشاهدة البزاة والصقور والفهود كيف يستخدمها اصحابها في الصيد مما يطول شرحه - اما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج الى الصيد حيلة في مخاطبة اسماعيل كما قدمنا

اما هذا فلما جاءه امر الرشيد بالقدوم اليه ليرافقه في الصيد لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . وما اقبل اسماعيل على القصر حتى رأى اصحاب الصيد خارجين بصقورهم وبزاتهم وفهودهم وقد لبسوا الملابس الخفيفة وفي جملتهم اصحاب اللبايد وعلت الضوضاء وتزاحم الناس . هذا بلاعب صقره ويمرحه على طائر مازر فوق راسه فاذا تحنَّز الصقر للوثوب امسكه . وذلك بقود فهذه بسلسلة من الحديد وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يومه انها وراء شجرة هناك والكلب لا يكثرث لانه لم يشم رائحة الفريسة - فاعتبر ما يترتب على ذلك من الضوضاء واختلاط الاصوات بين صهيل ونباح وهدير وصرعرة وقععة وصلصلة وطفطقة وهدير . فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثاني من ابواب القصر فلقية مسرور وقال له « لا يترجل مولاي لان امير المؤمنين خارج بموكبه وقد امرني بذلك » فوقف حتى رأى الرشيد قادماً على جواده بثياب الصيد الخفيفة والفرسان احواله في موكب الصيد فلم يتالك عند ذلك عن الترجل فابتدعه الرشيد قائلاً « اركب يا عماء وادن فرسك من فرسي »

فركب واراد ان يسير متأخراً عنه تأديباً على العادة في مصاحبة الخلفاء فدعاه ان يحاذيه وقال له « ليس اسماعيل ممن يطالب بمثل هذه الرسوم . وما دعوتك لمرافقتي الا لاستانس بك »

الفصل الخمسون

المفاوضة

فدعا له وسار بجانبه وامر الرشيد مسروراً ان ينطلق اصحاب الصيد الى عملهم في دجيل كالعادة ريثما يصل . وسار الرشيد واسماعيل لا يتكلمان . اما هذا فسكت عن تأدب اذ لا يليق ان يبادىء الخليفة بالكلام واما الرشيد فسكت عن هاجس غلب عليه . وما زالوا ساكتين حتى خرجا من بغداد واشرفا على بساينها وارياضها فامسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لتتة فهم منها فرسان الموكب انه يطلب الانفراد فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام بادري في محياه « ما الذي حدثك به فسك لما خرجت من دار الخياصة بالامس ؟ »

قال « لم تحدثني بشيء غير موالة الدعاء بطول بقائك وتأييد سلطانك »

قال « ذلك هو عهدي بك على انك لو عتبت على هرون وانقدته لما وجدت سبيلاً للومك لاني لم ارفع حقتك وقد اسات معاملتك في سبيل رجل لم يرع حتى ولا حق بني العباس . . » قال ذلك والتفت كانه يحاذر ان يسمعه احد . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى وودعه الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بانامله وهو ينتظر ما يبدو من اسماعيل

اما هذا فادرك ما في نفس الرشيد وانه يضم سوءاً لجعنر فسق عليه ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران فتجاهل واقبل بشكر للرشيد حسن ظنه الى ان قال « ارى امير المؤمنين يبالغ في اكرامي وحاشا له ان ياتي امرأاً يوجب اللوم . . . وهب انه فعل ذلك فهو فوق لوم اللاتمين . . . وانما ساء في انه غير راض عن مواليه ولو صرح لي بما يريد وابع لي الكلام لزدني منة . . »

فقطع الرشيد كلامه وقال « اظنك تتجاهل باعماه ومثلك لا يفوته ادراك ما اريد »

فقال « اذا صدق ظني فان الرشيد يشكو من وزيره . »

قال « وهل تستغرب شكواي من رجل سلمت اليه مقاليد دولتي واطلقت يديه في كل

شؤني وقدمته على اهلي وذوي عصبتي ثم هو يسعى في هلاكه ؟ »

فقال « معاذ الله ان يكون ذلك ٠٠٠ وما وزيرك يا امير المؤمنين الا من بعض مواليك يستهلك في مصلحة دولتك ٠٠ ذلك هو عهدي به »

وكانا يتخاطبان والفرسان يسيران متحاذين بين الاشجار الباسقة المشتبكة اغصانها حتى تظلل الطرق فبعدا عن المدينة وها يسيران الى غير مكان مقصود . واتفق عند ذلك انها اشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة والطريق بدور حول الضيعة فدارا حولها حتى اقتربا من بابها فنظر الرشيد الى بيدها وكثرة الغلال عليه وما يسرح من الماشية الكثيرة حوله والتفت الى اسماعيل وقال « لمن هذه الضيعة يا اسماعيل ؟ »
فعلم اسماعيل انها لجعفر وقد اراد الرشيد ان يتخذ ذلك حجة على ما يريد من الطعن فيه فقال « هي لاختيك جعفر بن يحيى »

فنتفس الرشيد الصعداء وقال « ولو سألتك عن سائر ما في هذه الضاحية من الضياع لما اجبت غير هذا الجواب لان الذي دعوته اخي قد ملك اهل كل ما يحدق ببغداد من الضياع والبساتين ٠٠٠ ارايت كيف اغنينا هؤلاء البرامكة وافقرنا اولادنا واغفلنا امرهم حتى صارت البلاد لهم واصبحت مواكبهم اعظم من مواكبنا واموالهم اكثر من اموالنا ؟ واذا كانت هذه ضياعهم قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان ؟ »

فشق على اسماعيل ذلك القول غيره منه على سلامة الدولة فقال « انما البرامكة عبيدك وخدمك وما ضياعهم واموالهم وكل ما يملكون الا لك ٠٠٠ »

وكان الرشيد لا يتوقع من اسماعيل دفاعاً عن رجل كان بالامس سبباً في فشله فازداد رفعة في عينيه ولكن ساءه دفاعه لانه انما يريد من يجاربه في ما بنويه شأن كل غاضب مستبد . فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وقال « اراك حسن الظن باعدائي وتحسبهم عبيداً لي والبرامكة يعدون بني هاشم عبيدهم وانهم هم اصحاب الدولة وان لا نعمة لبني العباس الا والبرامكة لهم عليهم المنة بها »

فلم ير اسماعيل ان يدافع اكثر من ذلك لئلا يتحوّل غضب الرشيد اليه فقال « ان امير المؤمنين ابصر بخدمه وعبيده »

فادرك الرشيد انه خاف غضبه ولم يصرح بما في نفسه فاحب ان يسمع رايه فقال « ليس لذلك اصطحبتك باعماه ولا هذا عهدي بك ٠٠ تسارني وتجار بني خوفاً من غضبي ؟ »

فتخبر اسماعيل في امره وتردد بين ان يجيبه او يبتقي على الكتمان . ومع ما يعلم من منزلته عند الرشيد لم يكن يطلق لنفسه الحرية الا وهو يحذر من غضبه ولا يستبعد ان ينقلب الرشيد عليه اذا تبادر الى ذهنه سوء الظن به . وهذا جعفر لم يبلغ احد مبلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيد يدعوه اخاه ويدعو والده يجي اباه فلما شك فيه اصحبت حياته في خطر . فظل اسماعيل ساكناً يفكر وهو سائر بجانب الرشيد ولا يدري الى اين يسير به فانتبه فاذا هو بباب المدينة فرأى مسوفاً لتغيير الحديث فقال « ارانا قد عدنا الى بغداد . . فابن الصيد ؟ »

قال « لم اخرج للصيد الا حيلة لمرافقتك وقد اوصيت من يقوم به عني . ولكنني لم اسمع منك غير ما يقوله سائر الناس ممن يجالسونا وبصانعوننا وانت شيخ بني هاشم وحكيمهم فلا اقبل منك بهذه المصانعة . . »

فقال « ارى امير المؤمنين حسن الظن بي وانا بحمد الله عند حسن ظنه ولكنني لم اسمع منه سوا الا صريحاً فاجيبه عليه . . . »

الفصل الحادى والنخسون

التصريح

وكان الرشيد لما دخل المدينة فدعا الموكب الى المسير بين يديه فقال « نحن داخلون بغداد وعمنا قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونعادث »

فاوجس اسماعيل خيفة من عاقبة تلك المحادثة ولكنه تجلد وسكت حتى اذا دخلا القصر نرجلا وسارا الى غرفة خاصة فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى جانبه فجلس وهو مطرق ينتظر ما يقوله الخليفة فاذا هو يقول « دع المدافعة وقل ما في نفسك الا ترى هؤلاء الاعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة واموالها دوننا ؟ »

قال « بلى . ولكنهم فعلوا ذلك بارادة امير المؤمنين . ولو افهمهم انه يريد غير ذلك لأتمروا بامرهم »

قال « وهل امرتهم ان يستأثروا بكل شيء دوني ؟ »

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين ان يصرح له بما يعتقد من فضل البرامكة

على الدولة او يسايره في اقواله فغلب عليه استقلال رأيه فقال « اما وقد اكرمني امير المؤمنين بحسن ظنه فلا ينبغي لي ان اكتبه شيئاً يجول في خاطري — ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ولا خلاف في ذلك ولكن امير المؤمنين اعلم الناس بما كان من بلائهم في مصلحة هذه الدولة من عهد جدهم خالد في خدمة دولته وقد عرف هذا الملك النبيل فضل خالد فقدمه كما قدم امير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر . . ولا يخفى على الرشيد ما لحقوا، من الاثر الصالح في خدمة دولته وتنظيم ادارتها وسائر شؤونها غير ما لهم من المآثر في رفع منار العلم واسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الاطباء من الهند وفارس الى بغداد وقد بنوا المدارس وادخلوا الكاغذ وعمروا بغداد وعنوا بنقل الكتب — وهم طبعاً لم يفعلوا ذلك الا والرشيد راض عنه . . . واخشى ان اطيل الكلام . . »

وكان اسماعيل يتكلم وهو يراقب ما يسدو من الرشيد وكأنه قرأ في وجهه قرب استيائه من ذلك الثناء وانه لا يرضيه الا ما يعضد عزمه على الفتك بهم فاستدرك قائلاً « ولا انكر انهم من الجهة الأخرى استأثروا بالاموال . . والانسان مطبوع على الطمع ولكنني علمت عن ثقة ان الاموال التي تجتمع من غلتهم في كل عام مها كثر فأنهم يفرقون معظمها على اهل الفاقة »

فضحك الرشيد اغتصاباً وهز رأسه وقال « لا يفعلون ذلك على سبيل الاحسان ولكنهم يتناعون الاحزاب ولا يلبثون ان يجندوا علينا الجند . . قال ذلك وتنهى فابتدره اسماعيل قائلاً « معاذ الله . . »

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه « كيف لا ووزيرنا الذي دعوته اخي يمالئ العلويين علينا ؟ »

فاجفل اسماعيل وقال « يمالئهم ؟ »

قال « نعم انه اطلق يحيى بن عبد الله »

فقال « يحيى العلوي ؟ »

قال « نعم اطلقه بدون اذني ولا شك في ذلك وقد اعترف هو نفسه به »

فلم ير اسماعيل باباً للدفاع وتحقق ان الرشيد غير راجع عن غضبه بعد ذلك لعله بما في نفسه على الشيعة العلوية فقال « انها جسارة وتطاول . وهل تظننه فعل ذلك عن عمد وقصد بي ؟ »

قال « مها يكن من قصده فان فعلاه هذا لا استطيع الصبر عليه . . »

فقال « وما الحيلة يا مولاي ؟ »

قال « الحيلة ؟ .. قد حلّ قتله والسلام »

فاكبر اسماعيل تسرعاً الى هذا التصريح وقال « اذا قتل امير المؤمنين عبيده فانه مالك الرقاب يفعل ما يشاء .. ولكنه اعلم مني بما يترتب على هذا الامر .. وقد قال لي الساعة ان البرامكة يتناعون الاحزاب بالاموال .. »

فاطرق الرشيد وسكت اسماعيل وكلاهما يعمل فكرته ثم رفع الرشيد بصره وقال « فما الذي يراه ابن عمنا ؟ »

قال « ألا ترى ان تفرق بينه وبين احزابه بعمل توليه اياه خارج بغداد ؟ »

فابرقت اسرة الرشيد عند سماعه رأيه وقال « ذلك ما عزمت عليه وسأوليه خراسان فاذا بعد عن بغداد فكرنا في شأنه .. »

فسرّ اسماعيل بقبول الرشيد ذلك وقال « نعم الرأي هذا »

قال « انه رأي سديد وبعد ذلك ننظر في امره » ثم توجه نحوه بكليته وقال وهو

يتفرس فيه « واعلم يا اسماعيل اني لم اطالعك على سرّي هذا الا لعظم ثقتي بك .. واني امرك ان نكتمه فانه ما علم به احد غيرك ومتى بلغهم شيء مما جرى علمت انه ما افشاه الا انت . أفهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من ذلك التهديد . ولما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة تحقق ان مشيري

المملوك اذا لم يسأروهم وبداهنهم كانت حياتهم في خطر فقال « اعوذ بالله ان اقدم على

افشاء سرّك يا امير المؤمنين »

ثم ترحل الرشيد من مجلسه فعلم اسماعيل انه يريد الانصراف فوقف واستاذن فاذن له

فخرج وقد عظم عليه ما سمعه واصبح خائفاً على الدولة من تغير الرشيد وانطلق الى منزله وهو

يصبر نفسه ليرى هل يعمل الرشيد بما قاله



الفصل الثاني والخمسون

اسماعيل وجعفر

وفي صباح اليوم التالي علم ان الرشيد بعث الى جعفر بجنازة فاجلسه الى يمينه واكرمه غاية الاكرام وبش في وجهه وحادثه ساعة واهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام خادم من خاصة خدمه وانبلهم واوضحهم وجهها واكملهم ظرفاً كاتباً حاسباً لبيباً وان جعفر مرَّ مروراً كاملاً بذلك . فاعجب اسماعيل من اقتدار الرشيد على كتان ما في نفسه مع شدة وطائه ومسرعة غضبه . وربما تبادر الى ذهنه ان الرشيد قد صفع وذهب ما يحفظه على جعفر لولا ما علمه من اطلاق العلوي والرشيد بكره تلك الشيعة ويخافها على ملكه

ثم علم اسماعيل بعد يومين ان الرشيد خلع على وزيره وعقد له لواء على خراسان فظنه صفاه فتمنى ان تزول الضغائن بهذا الطريق وتعود المياه الى مجاريها ولا سيما بعد ان علم برضاء جعفر عن هذه الولاية وامراره في ارسال اعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد — فانهم ذهبوا وضربوا مضاربهم هناك واخذوا يتاهبون للرحيل الى خراسان والبلد بعيد الشقة يحتاج الى الاحمال والاثقال . فلما تحقق اسماعيل قرب سفر جعفر راي ان يزوره ويودعه ويسعى في ازالة ما ربما بقي في نفس الرشيد بوسيلة خطرت له

واما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب ما في قلبه على الرشيد ولكنه راي في سفره الى خراسان باباً للفرج وعزم على مخابرة العباسية بشأن الفرار معه . ففي اليوم الذي احتفلوا بالخلع عليه عاد الى قصره في الشامسية وهو من جملة قصور البرامكة في ذلك الحلي وكان لهم عدة قصور هناك اشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشامسية وقصر له آخر في باب البردان (١) وكان جعفر في ذلك العام مقبلاً في قصره بباب الشامسية . ولا نقل قصوره نخامة عن قصور الرشيد يكفي ما تقدم من وصفها في القصيدة التي دستها ام جعفر الى زوجها وفيها قول الشاعر في وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التي ما بنى الـ فرس لها مثلاً ولا الهند
الدرّ والياقوت حصابها وتربها العنبر والند

فاعتبر ما يكون من نغامة هذا القصر وامثاله من قصور البرامكة مما يضيق المقام عن وصفه ووصف ما فيه من الرباش الفاخر وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الامين ودار القرار (قصر زيدة) فقس عليها

فعاد جعفر الى قصره المشار اليه وهو لا يصدق انه ولي خراسان وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة . فتبادر الى ذهنه ان الخليفة ليس في قلبه غل عليه او انه ولاه خراسان خوفاً منه على دولته اذا ظل في بغداد فاستقوى نفسه واستضعف الرشيد ونسي خوفه منه — فلما عاد الى القصر امر قهرمانه ان يهتم بالرحيل ويوصي قيم الجواري والعبيد وكتبه ان يتبهاً وفي الغد . ودخل القصر وكان قد اعجب بالخدام الذي اهداه الرشيد اليه لادبه وفرط جماله فاصطحبه الى قاعة رباشها ساوي اللون لاعنقاده ان هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ودخل الغلام لموانسته . ثم جاءه الحاجب يقول « ان اسماعيل بن يحيى بالباب »

فنهض جعفر لاستقباله وادخله حتى اجلسه في صدر مجلسه لانه كان يجلس مقامه ويثق به لاعنقاده وصفاء نيته وصدق لهجته ولكنه لم يلق في اثناء حديثه انه بكتم امراً يريد اطلاعه عليه فصرف من في مجلسه من الناس ولم يبق في الغرفة سواهما . واقبل جعفر بكليته لسمع حديثه فقال اسماعيل « يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الافطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده »

فلما سمع جعفر قوله تبادر الى ظنه ان الرشيد اوقده للتوسط في ذلك فزاد استخفافاً به واستنقواءً لنفسه وغلب عليه الحقد لما يقاسيه من تصرفه معه وظن نفسه نجاً من قبضته بانقاله الى خراسان قبل ان يتكشفت امر العباسية . وكان حسن الظن باسماعيل وكثيراً ما ذكر فضل يته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقه لان هذا هو اعتقاده فلم يمتنع عند سماعه ذلك عن التصريح بما في خاطره من هذا القبيل فقال « والله يا اسماعيل ما اكل الخبز ابن عمك الا بفضل ولي ولا قامت هذه الدولة الا بنا . اما كفى اني تركته لايهمهم بشيء من امر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت امواله اموالاً ولا زلت الامور الجليلة ادبرها حتى يمد عينه الى ما اذخرته واخترته لولدي وعقبتي من بعدي ودخله حسد بني هاشم وبغيتهم ودب فيه الطمع والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالاً عليه مرعباً »

فندم امماعيل على مجيئه اليه وخاف ان يترتب على حديثه امر يبلغ الرشيد فيعده
منه افشاء فغير الحديث حتى اغتم فرصة للاستئذان وخرج

الفصل الثالث والخمسون

العباسة وارجوان

اما جعفر فعاد الى صوابه بعد ذهاب امماعيل فرأى انه اخطأ بما بدر منه طعناً في
بني هاشم وامماعيل منهم . فسبق الى وهمه انه ربما باح للرشيد بما سمعه منه فلا يبقى سبيل
للمصالحة فزاد تمكناً من عزمه على الفرار بالعباسة والولدين وصفق فجاءه خادمه الخصوصي
حمدان وكان حسن الاعتماد عليه فامر اليه عزمه وقال له « نحن غداً مسافرون الى
معسكرنا في النهروان فاذهب الى عتبة وقل لها تخبر مولاتها العباسة ان تكون على اهبة
الرحيل ربنا ابث اليها من يحملها الي . . . أفهمت ؟ »

قال « نعم يا مولاي فهمت . . . واين قضيت هذا العمر . . . ؟ »

وخرج حمدان مسرعاً في هذه المهمة

وكانت العباسة في اثناء هذه الحوادث على اثر اجتماعها الاخير بجعفر وما سمعته من
وعده بالذهاب الى خراسان وذهابها معه لانفك مفكرة في هذه الامنية وهي لاتصدق
انها تظفر بها لانها كانت تفضل الإقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين في كوخ حجير
على الإقامة في تلك القصور الفخيمة تحت الخطر وبين الرقباء . ولا سيما بعد ان اطلع ابو
العتاهية على مرها ورأى ولديها بعينه وحدث ما حدث من اساءته . فكانت لا يهدأ
ذو بال خوفاً من بلوغ ذلك الى اخيها والعياذ بالله وكانت لاترى اثنين يتساران الا ظنتها
يتباحثان بشأنها ولا رأت كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها الا حسبتها آتية للقبض
عليها . ولم تكن لتعزى بشيء مثل اجتماعها بجارتها عتبة وكانت تبيع لها بنجافها وهذه
تطمئنها وتمنيها حتى علمت في ذلك اليوم ان الرشيد عقد لجعفر على خراسان ورأت الناس
يتسابقون في الطرق لحضور الاحتفال بذلك فكادت تطير من الفرح ومكثت تتوقع
ان ياتيها رسول جعفر حالاً فمضت عدة ساعات حتى علمت بخروج اعوان جعفر ورجاله الى

النهران ولم ياتها الرسول فخطرها ان يكون حبيبها قد شغل عنها وشكَّت في صدقه —
 والمحِب كثير الشكوك — وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت جالسة معها على الشرفة التي
 انتظرت فيها جعفر منذ ايام . واذا بحمدان مقبل بلباس بعض خدم قصرها فلما رآته
 قادمًا ارسلت عتبة لاستقباله وتلقي الرسالة منه فلما لقيها فصَّ عليها المهمة التي أتى بها والحَّ
 عليها ان تبلغ مولاتها « ان تكون على اهبة السفر بما خف حملها وان تتنكر بلباس بعض
 الجوارى حتى اذا جاء الرسول وهو انا فلا يحتاج في اخراجها الى اكثر من كلمة » فلما
 اخبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وامرتها باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى
 من فيه فدخل ووقف متادبًا فقالت له « كيف فارقت سيدك ؟ »
 قال « هو في خير يسلم عليك يا مولاتي »
 قالت « ومتى نظننا نخرج من هنا »
 قال « ربما في صباح الغد . . »

فالتفتت الى عتبة لفتة فهمت انها تذكرها بالولدين الحسن والحسين فقالت « انهما
 في ما من مع الخادمين كما تعلمين ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز
 او حيث يكونان ولتخاصين من هذه المخاوف »

فتنهدت العباسة نهديًا عميقًا ولكن البشر كان يتجلى في وجهها فصرفت حمدان ودخلت
 الى غرفتها واخذت عتبة في الاستعداد للسفر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل
 والعباسة منفردة في تلك الغرفة فما لبثت ان اصابتها ردُّ الفعل فانقبضت نفسها وغابت عليها
 عواطفها اذ تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدي اخيها وستترك ذلك القصر بما
 فيه من اسباب السعادة وقد تعودته وألفت فاعاداته وحدائقه واثائه وخدمه وجواريه وكل
 شيء فيه . نعم انها تفضل الاقامة مع حبيبها في عشة على الاقامة وحدها في قصر ولكن
 الانسان ابن العادة اذا الف شيئًا شق عليه فراقه فكيف بها وقد ربيت في ذلك القصر ولم
 تخرج منه الا نادرًا . على انها كانت اذا تصورت ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها
 هداً روعها . ثم يعترضها ما تخافه من نعمة اخيها اذا علم بفرارها على تلك الصورة وربما حملها
 غضبه على تجرُّد الجيوش في طلبها . فكادت هذه المواجهات تثني عزمها وهي تغالب عواطفها
 وتمنى نفسها بالنجاة — وهي في تلك الخواطر تذكرت خادماً لها كان اميناً على سرِّها في اثناء
 مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم في قصرها واسمه « ارجوان » وكانت تستانس به في ابان
 اضطرابها وقلتها فرأت ان تصطحبه في فرارها فنادت عتبة وكانت منهمة في اعداد

المعدات فانت والغبار يعلوها والانهاك ظاهر فيها فقالت لها العباسة « ابن ارجوان ؟ »

قالت « هو هنا في القصر هل ادعوه ؟ »

قالت « ادعيه فاني ارى ان نسطحبه »

فخرجت ثم عادت ومعها ارجوان وكان اسود اللون اصله من بلاد البربر في شمالي افريقيا وقد ربي في قصر المنصور وكان مقربا منه لان ام المنصور بربرية . وكان طوبل القامة واكثر طول له في ساقه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره ولولا قلة الشعر في وجهه من عواقب الخصى لظهر شبابه وبانت كهولته . ولكن هو لاه الخصيان فلما يعرف مقدار عمرهم بمجرد النظر اليهم . وكان ارجوان قد ربي العباسة منذ طفوليتها واخلص الخدمة لها وهي تعودته واحسنت الثقة به . فلما اسنقدمته في ذلك اليوم وقف بين يديها فنظرت اليه والدمع في عينيه فلما رآها تبكي بكى معها وقال بصوته الموث وغننه الاعجمية « ما الذي تامرين به يا مولاتي »

قالت « نحن مسافرون . . واحب ان تخرج معنا »

قال « اني عبدك وطوع ارادتك »

قالت « اتدري الى اين ؟ »

قال « الى حيثما تشائين ولو الى القتل »

قالت « بورك فيك يا ارجوان فاشتغل مع عتبة في اعداد ما يلزم وهي تخبرك الخبر »

قال « سمعاً وطاعة . . » وخرج مع عتبة فقصت عليه ما هم فيه وأخذ في التاهب فلنتركم في ذلك ولنعد الى الرشيد

الفصل الرابع والخمسون

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد اكثر كتابا لسره مما ظهر لاسماعيل . فع شدة ثقته به لم يطلعه على كل ما يتو به لان غضبه لاطلاق ذلك العلوي ما زال راسخا في نفسه وقد ولاء خراسان وعقد له عليها ليحربه ويستطلع كنه قلبه فاهداه ذلك الخادم الجميل جاسوسا ينقل اليه اقواله وكان الخادم المشار اليه واقفا ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر فكسب

بذلك الى الرشيد حالاً . فلما وصل كتابه اليه تحقق سوء نية جعفر فعاد الى مخوفه . وكان جالساً على سريره فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الامر عليه ورأى الفرصة ضيقة لاتأذن باعمال الفكرة . وخيل له ان وزيره اذا خرج من بغداد افلت من بين يديه واهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه واشكل عليه امره فاخذ يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً كأنه اصيب بجمحة واحس بحاجته الى من يباحثه بذلك ولم يعد يرى ان يخاطب اسماعيل بعد الذي علمه من حديثه مع جعفر وصدافته له وان كان لا يستغشه . فانه انما يلتمس المداولة مع من يجاربه في عزمه ويصوب رابه ولا بدافعه كما فعل اسماعيل

قضى ساعة في التردد حتى كاد ينقد غيظاً فخطر له ان يشاور امرأته زبيدة في الامر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد . ولكن الرشيد كان يحب زبيدة ويحترمها ويتبرك بمشورتها ويعلم بما بينها وبين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك أحس بارتياح عظيم وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسروراً وأمره ان يهيئ له برذوناً ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يسير معه احد سواه

فاعد له البرذون فركبه وقد تلثم ومشي مسرور في ركابه فلما اقبل على الدار لم يعرفه الحرس ولكنهم عرفوا مسروراً ففتحوا له فدخلا الحديقة ثم تزل الرشيد وامر مسروراً ان يسبقه الى زبيدة فيخبرها بقدمه . فلما اخبرها ادركت انه انما جاءها في تلك الساعة لامر هام فخرجت لاستقباله في القاعة التي استقبلت فيها ابنتها محمد منذ ايام وقد اضيئت فيها الشموع فزادتها بهاء . ولبست هي انحر ثيابها وتطيبت واستقبلته احسن استقبال وعليها العقود من الجواهر وفي رأسها الدبابيس المرصعة وفي صدرها الحللى المنمقة على اشكال بدعيه حتى خفافها فقد كانت مرصعة كما علمت واقبلت ترحب به وتلاطفه . اما هو فمع شدة غضبه لم يتالك عند رؤيتها عن الابتسام وجلس على السرير وامسك بيدها واجلسها الى جانبه وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من انواع الحللى وقد زادت انوار الشموع لمعاناً ورونقاً . اما هي فلحظت ما يستتر تحت ذلك الابتسام من الغيظ ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب فقالت « مرحباً بامير المؤمنين لقد آتني بلقياه وشرفني بقدمه فهل يا مر بطعام او شراب ؟ »

فلم يسعه الا ان قال « لم آتك للطعام يا ابنة العم . . »

فقالت وقد ابرقت عينها تفرساً واستطلاعاً « خير جئت ان شاء الله »

فمد يده الى جيبه واستخرج الكتاب الذي جاءه من جاسوسه ودفعه اليها ولم يتكلم

فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها فلما فرغت من قراءته اعادته اليه وهي تفحك فقال لها « اراك تفحكين كانك لم تقرأي الكتاب . . » قالت « بلى قرائته . . » قال « لا اخلك تدرकिन قوته الا اذا اخبرتك بما ارتكبه هذا الفارسي » فلما سمعت قوله ظننته اطلع على خبر العباسة فجهلت وقالت « وماذا ارتكب ؟ » قال « انه اطلق الرجل العلوي الذي لم تقبض عليه الا بعد شق الانفس ولم تصدق اننا حبسناه وامننا من شره حتى عاد فاطلقه . وانت ترين من هذا الكتاب ان هذا العبد قد شمع بانقه حتى اصبح يهددنا . . فمن يضمن انه اذا صار الى خراسان لا تحذثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من ابدينا . . فاشيري علي في اتبرك بمشورتك »

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهم والاستخفاف ولم يكن احد من اهل الخاققين يجسر على ذلك بين يدي الرشيذ سواها لانه كان يحبها ويحترم رأيا ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب فكيف اذا اضيف اليها نفوذ صاحب الحق لانها كثيرا ما نصحت له ان يعدل عن الاستسلام لجعفر واهله وهو لا يطيعها بل كان يحمل ذلك منها يحمل الانتقام منهم . فلما جاءها الآت يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت « مثلك يا امير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غريق في بحر عميق فان كنت قد صحت من سكرتك وتخلصت من غرقتك اخبرتك بما هو اعظم من ذلك كثيرا وان كنت لا تزال على الحالة الاولى تركتك »

فأثرت لهجتها هذه في الرشيذ تأثرا شديدا ولولا حرمتها عنده ما تمالك عن الفتك بها فقال لها « قد كان ما كان . . فقولني اي شيء اعظم من هذا ؟ » قالت « ان الامر الذي اشير اليه قد اخفاه عنك وزيرك وهو اصعب مما انت فيه واقبح واشنع »

فغضب الرشيذ وقال « ويحك وما هو ؟ قولي . . » فاعرضت بوجهها عنه وقالت « اجل نفسي عن ان اخطبك به ولكن تحضر ارجوان الخادم وتشد عليه وتوهنه ضربا فانه يعرفك الخبر » فكاد الرشيذ بتقد غيظا ولم يتمالك عن النهوض سريعا وصاح « ارجوان ؟ خادم العباسة اختي ؟ » قالت « نعم خادم العباسة اختك »

فصاح « ابن هو ٠٠ ؟ ادعيه »
 فصنقت فجاءها احد الشاكرية الواقفين يبائها فقالت « اذهب حالا وادع لنا ارجوان
 الخادم من قصر العباسية »
 فاجاب مطيعاً وخرج وظل الرشيد في انتظاره كأنه على مقالي الحجر وزيدة جالسة بين
 يديه ولم يفه احدهما بكلمة

الفصل الخامس والخمسون

كشف السر

وكان ارجوان مشتغلاً بالتأهب للسفر كما علمت وقد اطلع على سر مولاته وسبب
 سفرها وهو حريص على راحتها مستهلك في سبيل مرضاتها — فان اولئك الاخصيان اذا طابت
 سرايرهم كانوا نعمة على مواليتهم لان الرجل منهم اذا اخلص النية نسي نفسه وانقطع لخدمة
 مولاه بكل جوارحه . ولعل السبب في ذلك انهم لا يتزوجون فلا يعلقون آمالهم بولد او ابنة
 فننصرف عواطفهم الى مواليتهم يسرون بسرورهم ويحزنون لحزنهم لا يبالون بما يقاسونه في
 سبيل ذلك ولا يهمهم كان مولاهم على حق في ما يعمله او باطل — وكان ارجوان من
 اطيب الناس قلباً واكثرهم تعلقاً بخدمه ولا سيما العباسية فانها نظراً لما كانت تتمتع به على
 يده من اسباب الراحة بما يسهله لها من دخول جعفر الى قصرها واخروجه بلا معارض كانت
 تبلغ في اكرامه وتلطف بمعاملته وهو يزداد تقانياً في خدمتها

فكان ارجوان في ذلك المساء يشتغل في ما قدمناه واذا بالخدم يدعونه فخرج فرأى
 شاكرية ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زيدة فقال « ما وراءك »

قال « اجب مولانا ام جعفر »

قال « الساعة ؟ »

قال « نعم في هذه الدقيقة »

قال « تمهل ريثا اخبر مولاتي بذلك »

قال « لا حاجة الى اخبارها فانها كلمة نقولها مولانا لك ثم تعود »

فصدقه وخرج والعباسة لا تعلم

اما الرشيد فكان قد ملَّ الجلوس في تلك القاعة ساكتاً فنهض وتمشى بهليلز الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويقول في نفسه « ماذا عسى ان يكون ذلك الامر العظيم ؟ »
على ان ترفع زبيدة عن التصريح به واحالة ذلك الى ارجوان الخصي نبيه الى انها فضيحة
تمسّ العرض ...

ثم سمع حركة في الحديقة فعلم ان الشاكري عاد فنقدم حتى رجع الى القاعة وكانت
ام جعفر قد خرجت منها لثلاً تسمع ما يدور بين الرشيد والخصي
فدخل الشاكري وقال « ان ارجوان بالباب يا امير المؤمنين »
فقال « هاتوا السيف والنطع »

فاناه الشاكري بهما فبسط النطع في الدهليز خارج القاعة ووضع السيف بجانبه . ثم
صاح الرشيد « اين ارجوان . . ؟ ادخله »

ولما سمع ارجوان صوت الرشيد بهذه اللمجة اسقط يده فدخل وركبته تصطكان
من الخوف ووقف متأذباً ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف من شدة
الارتعاش ولم يجاسر ان يرفع بصره عن الارض فاشار الرشيد الى مسرور بابعاد الخدم
والشاكرية واغلاق الابواب حتى لا يعلم احد بما يدور في هذا الشأن ثم نظر الى ارجوان
قائلاً « برئت من المنصور ان لم تصدقني في حديث جعفر لا قتلتك »
فعلم انه يسأله عن امره مع العباسة فظل ساكتاً ولو اراد التكلم لم يطعه لسانه من
شدة الخوف فصاح الرشيد « ما بالك . . . تكلم والا فهذا النطع والسيف . . » ثم صاح
« مسرور ! »

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب باسرع من لمح البصر فاشار الرشيد اليه فتناول السيف
وانتضاه ووقف بجانب النطع ينتظر امر الخليفة فلما رأى ارجوان ذلك جثا عند قدمي الرشيد
واخذ يقبلها ويبكي فتلطف الرشيد في خطابه فقال له بصوت هاديء « قل الصدق ولا
تخف . . ما الذي تعلمه من امر جعفر الوزير واهل ذلك القصر ؟ قل . . حالاً »
فقال وصوته يخننق ولسانه يتلعثم من الخوف والبكاء « الأمان يا امير المؤمنين ! »
قال « نعم لك الامان ان تكلمت الصدق وان لم تكلم فنحن مطلعون على كل شيء »
فقتلك بهذا السيف »

حدثته نفسه ان يحافظ على سرّ مولانه تفانياً في سبيل مصلحتها ولكن الضعف البشري
غلب عليه وهو يغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال فكيف بعبد خصي مها بلع من اخلاصه

على انه اتحل لنفسه عذراً على اقراره — وذلك ان الرشيد لم يسأله الا وهو عالم بكل شيء فاذا انكر قتل ولم تنتفع مولاته بقتله اما اذا اعترف وظل حياً فقد يستطيع انقاذها او خدمتها في شيء — مرت تلك الخواطر في ذهنه بلحظة ولما عمد الى الاقرار احس بوخز في ضميره لئلا يقع من اقراره ضرر على العباسة فاطرق وتشاغل بيلع ريقه ولا ربق في فمه لما اصابه من الجفاف لئلا يتردد الرشيد ترده فصاح فيه « قل .. او امتاك »

فقال وصوته يبلبلج « ان جعفر .. قد تزوج اختك العباسة .. منذ سبع سنين وولدت منه ثلاثة بنين .. اقدم .. له ست سنين والاخر .. له خمس سنين والثالث .. عاش سنتين ومات قريباً .. والاثنان .. الباقيان .. قد انقذها الى مدينة الرسول .. وهي حا .. مل .. بالربع .. واخنتق صوته

الفصل السادس والخمسون

الانتقام

وكان الرشيد يسمع كلامه والشرر يكاد يتطاير من عيذه فلما فرغ ارجوان من كلامه قال له الرشيد « وكيف يجري ذلك وانت عالم به ولم تخبرني ؟ » فتشدد ارجوان عند هذا السؤال لان جوابه هين عليه وقال « است اذنت لوزيرك بالدخول على اهل بيتك وامرتني ان لا امنعه في اي وقت شاء ليلاً او نهاراً » فقال وهو يحرق اسنانه « امرتك ان لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لم لا اخبرتني اول مرة »^(١) ثم التفت الى مسرور وقال « اضرب عنقه » فامسكه مسرور بيده من حديد وجره الى النطع بعنف كأن له عليه ثاراً دموباً فسقط ارجوان وهو يصيح « الامان الامان »

فلم يمهله مسرور ان يقول الثالثة لئلا يجيب الرشيد طلبه فيعقونه وهو سفاك غليظ القلب بلذله منظر الدماء ويفتخر بعدد الذين قتلهم وبسرعة فتكهم بهم فابتدر ارجوان

بضربة سيف على عنقه فازاح رأسه عن كتفيه

اما الرشيد فحول وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وكانت متربعة على فراشها وقد اطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلًا تحفزت للقيام ولم تقم . اما هو فلم يلتفت الى شيء من ذلك لما هو فيه من الخلق وقال وصوته يرتجف وحيته ترقص وقد امتنع لونه « أرايت ما عاملي به جعفر . . ؟ وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي فضحني بين العرب والعجم ؟ »

فقال بصوت هاديء وجأش رابط « هذه شهوتك وارادتك . . عمدت الى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه ادخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي احسن منه وجهاً وانظف منه ثوباً واطيب رائحة لكنها لم تر رجلاً غيره . . . فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب »

فقال « ألا تزالين تعنفيني . . والله سأحمو هذا العار عني بالدماء »

فسرها تهديده واحبت ان تتمكن من غزوه انتقاماً من جعفر فقالت « سترى ما يكون . . واخاف انك اذا رأيت وزيرك غيرت عزمك اذ يغلب عليك حنو الاخوة فتعفو عنه . . » قالت ذلك وهي تتشغل بتثنية هداك كمها المزركش بالقصب وبان الغضب والعتب في عينها

فاحس الرشيد بما ينطوي تحت تلك العبارة من القوارص وشعر انه صاحب الذنب وحده لانه كثيراً ما سمع نصيحها له في هذا الشأن ولم يعرها التفاتاً ولكنه استكبر تعريضها بذلك في تلك الساعة ولولا احترامه لها لم يصبر على توبيخها . ومع ذلك فلم يتمالك عن تحريق اسنانه غيظاً وتجلد وتنهدي ونظر اليها وقال « كفي يا ابنة العم . . فما علينا الا كتمان هذا الامر ما استطعنا الى كتمان سبيل . . واي رجل علمت انه اطلع عليه قتلته . . . الا انت . . . وقد قتلت ارجوان بعد ان امنته لاني لم اطق ان ارى رجلاً عالماً بهذه الخيانة التي لطختني بها اخوتي ووزير الذي اسميه اخي . . . » ثم اتبه لنفسه وندم على تصرجه بما في خاطره على جعفر ولا سيما بين يدي زبيدة وهي أشد اعدائه نقمة عليه . فتاسك وحاول الابتسام والتجلد وقال « ولكن الانسان موضع الخطاء والنسيان . . . » فادركت زبيدة ما يتضارب في خاطره من العواطف واحسنت انه يهت بالخروج فوقفت له وحاولت اجلاسه فامتنع وودعها وهو لا ينظر اليها اما خجلاً او حقناً . فامسكت يسه واستوقفته فوقف وهو لا يلتفت اليها فقالت « تمهل . . ألا تحب ان تعرف اين

الغلامان ؟ .. »

فاجفل وقال « الغلامان ؟ .. علمت انهما في المدينة »

فالت « كلاً بل هما في مكان قريب انا اعرفه » ويحضران متى شئت »

فقال « في بغداد ؟ »

فالت « نعم »

فتحوّل عنها وصاح وهو لا يزال في القاعة « مسرور ! »

فحضر باسرع من البرق فقال له « وزيدة واقفة » هل رأيت شيئاً الليلة ؟ »

قال « كلاً يا مولاي لاني اسم اعشى » وهي علامة تحريضه على الكتمان . ثم امره أن

يأتيه بالبرزون وسار في اثره فاتاه به فركبه وساقه نحو قصر الخلد وسرور يعدو في ركابه

وقد مضى هزيع من الليل . ففضى الطريق وهو غارق في بحار المواجس وقد نسي نفسه

لما جاش في خاطره من امر العباسة . واعمل فكرته في ما دهمه من الامر العظيم فرأى

ان ملكه وسطوته وامواله او اي شيء مما حازه من نعيم الدنيا لا يخفف عنه وطأة ذلك

المصاب . وحدثته نفسه ان يستقدم اخنه في تلك الساعة او يذهب اليها ويفتك بها ولكنه

خاف الفضيحة فجعل يتصبر الى الغد لعله يهتدي الى سبيل آخر

الفصل السابع والخمسون

التردد

اما العباسة فقد كانت في غفلة عن كل ذلك تهتم في اعداد معدات السفر وعتبة تبذل

جهدا في طمانتها وتطبيب خاطرها وتمنيها بما ترجوه لها من السعادة متى خرجت من بغداد

واقامت في خراسان اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا اعلمت

فكرتها واستخدمت عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . اما

اذا استشارت قلبها وتصورت اجتماعها بجيبها ولا رقيب عليهما فيربيان الولدين براحة

وسكينة ويتمتعان بحنو الوالدين فتبرق اسرتهما وتبسط نفسها ثم يعترضها غضب اخيها اذا علم

بعملها فتعود الى الاتقياض . واخيراً احسّت بانقراج كربتتها فجأة لخاطر طراً على ذهنها

يفنيها عن هذه المخاوف . وذلك ان تكتم اسمها وخبرها في خراسان فتعيش مع زوجها

وولديها مستترة حتى يقضي الله بما يشاء . فهذه الخواطر كانت تخفف مخاوفها ولا سيما اذا
تذكرت ارجوان خادمها الامين لانه كان من اعظم اسباب تعزيبها
وهي في تلك المواقف رأت عتبه تعدو نحوها والبغته ظاهرة في وجهها تخفق قلبها
وتصاعد الدم الى مجاها ولم يكن شيء اسرع من وقوع الرعب في ذلك القلب لما تعلمه
صاحبه من الاخطار المحدقة بها من كل صوب ولا سيما في تلك الساعة وهي في ما قدمناه
من القلق . فلما رأت عتبه على هذه الصورة صاحت فيها « ما وراءك »

قالت « ارجوان ! ارجوان ! .. » وسكتت

فبغتت العباسة وقالت « ماذا جرى له ؟ »

قالت « لا اعلم اين هو »

قالت « اليس هو في القصر ؟ . ابجئي عنه لعله في بعض الغرف يشتغل في الاستعداد »
فهمت بالخروج وهي لا تنويده ثم عادت ووقفت متحيرة واطرقت وهي تتشغل بمحك
صدغها فازدادت العباسة خوفاً وقالت « ما بالك ؟ .. ماذا جرى له ؟ .. قولي ..
اين هو ؟ »

قالت « لا ادري يا مولاتي ولكن بعض الخدم اخبرني انه خرج من القصر . و . . »
فقطعت كلامها قائلة « خرج من القصر ! . في مثل هذه الساعة يتركنا ؟ والى اين
ذهب ؟ »

قالت « لا اعلم .. » وغصت بريقها

فصاحت العباسة « ويحك قولي .. اين هو ؟ »

قالت « اظنه .. . ذهب الى دار القرار »

فصاحت « دار القرار ؟ ذهب الى ام جعفر ؟ واي شغل له هناك ؟ »

قالت « اخبروني ان شاكر ياء في طلبه على عجل ولم يمهله ريثما يستأذنك »

فعضت العباسة على شفتها واطرقت لحظة ثم استأنفت السؤال قائلة « شاكري ياء جاء

في طلبه .. ؟ وما ظنك بسبب ذهابه ؟ »

قالت « اظنه ذهب لامر مخيف .. »

فقالت « مخيف ! . ولماذا .. قد يكون ذهابه لغرض بسيط »

قالت « بل هو ذهب لامر مخيف .. لان امير المؤمنين هناك الليلة »

فلطمت العباسة يداً بيد وصاحت « امير المؤمنين هناك ؟ ون انباك بذلك ؟ قولي .. »

لقد ازعجتني يا عببة»

قالت « علمت انه هناك من جاسوس لنا في قصر الخلد جاء في منذ ساعة واخبرني ان الرشيد ركب برذونه وجاء الى دار القرار ومعه خادمه اللعين مسرور . . ولم انقل لك هذا الخبر لاشتغالي في الاستعداد وكنت احسب قدومه لامر خاص به فلما علمت بذهاب ارجوان على هذه الصورة وقع الرعب في قلبي فجت اليك . . . اني خائفة من عاقبة ذلك يا سيدتي . . . »

فاطرت العباسة وقد اخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً وعمدت الى التفكير في ما سمعته وارتبكت في امرها فقالت « ما الذي تخافينه من استدعاء ارجوان واخي هناك ؟ ومع ذلك فنحن على اهبة السفر غداً »

قالت « صدقت وانا قد فرغت من الاستعداد ومتى رجع ارجوان ورأينا في الامر ما يدعو الى سرعة الذهاب خرجنا حالاً . . الا تخرجين في هذا الليل ؟ »
قالت « ولكن الوزير امرنا ان نربص ربثاً يا تينا رسوله . . »
قالت « سنرى . . وسأرسل خصياً يتجسس خبر ارجوان ويعود الينا سريعاً »
قالت « افعلني . . . » وتحوّلت عنها الى الشرفة التي تعودت ان ترى رسول جعفر منها اذا جاءها بخبر . وخرجت عببة لارسال الخصي

الفصل الثامن والخمسون

البغلة

وقفت العباسة على الشرفة ساعة وعيناها شائعتان نحو الطرق والظلام يحجب بصرها وكلما رأت شيئاً ظننته رسول جعفر

ظلت على ذلك حتى مضى نصف الليل والمواجس تنقادها فلما استبطأت عببة سمت ان تبعث في اسنقدها فاذا هي آتية تعدو مهولة والدمع ملء عينها وقد نبش شعرها وامتنع لونها وايضت شفتها فصاحت العباسة « ما بالك يا عببة . . مالي اراك تبكين . . ماذا حدث ؟ »

فامرعت وامسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة وهي لا لتالك عن الارتعاش

وقالت « اذهبي يا سيدتي . . . انزلي من هذه الشرفة . . . اطلبي الفرار بنفسك . . . »
 فقالت « اذا جرى . . . هل عاد الجاسوس الذي ارسلته ؟ . . . ماذا قال ؟ »
 قالت « عاد ولم تنفعنا عودته . . . انزلي من هذه الشرفة واخبتني في الشارع وسأرسل
 اليك من يصحبك الى مولاي الوزير . . . انزلي . . . انزلي . . . »
 فاستغربت حالها وانتثرت منها وقالت « ماذا جرى . . . ؟ قولي . . . »
 قالت وصوتها يرتجف ويتقطع « امير المؤمنين . . . يا مولاتي . . . امير المؤمنين . . . »
 وأومات يديها نحو الداخل

ففهمت ان الرشيد جاء القصر وادركت ان الامر بلغ أشده وان الساعة آتية لا ريب
 فيها لان أخاها لا يأتيها بعد نصف الليل الا لامر عظيم ولا سيما بعد تلك المقدمات فعظم
 عليها الامر لاول وهلة فوقفت لحظة . ثم غلبت عليها عزة النفس ونسيت ما كانت فيه من
 الاضطراب واكبرت ان تفر على هذه الصورة وهي لا تضمن النجاة . وتحولت رعدتها الى
 سكينه وثاب اليها رشدها وظلت واقفة مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحرضها على الفرار
 من تلك الشرفة . ثم سمعت دبذبة ووقع اقدام كثيرة فاجتذبت ثيابها من عتبة وقالت
 « دعيني فاني احب ان أرى اخي واسمع قوله » ثم تراجعت وهمست في اذنها قائلة
 « ارسلي رجلاً سريع الخطى يمضي الى الوزير فيخبره بما جرى لنا ليكون على حذر من امر
 نفسه مخافة ان يصيبه ما اصابنا لان عجي . اخي بعد منتصف الليل على هذه الصورة بدل على
 خطر يهددنا جميعاً »

قالت ذلك ونزلت من الشرفة نحو الدار فلقيت الرشيد ماراً في الدهليز نحوها وعليه
 ثوب بسيط فوقه عباءة واسعة لانه جاءها متكرراً . وكان قد ذهب الى قصره على ان
 يؤجل امر العباسة الى الغد كما تقدم فعظم عليه القلق ولم يستطع رقاداً فبادر اليها ومعه
 مسرور خوفاً من ان يبلغها غضبه فتعمد الى الفرار لعله بمن يمدق به من جواسيسها
 وجواسيس جعفر ولم يكن يتوقع ان يراها خارج الفراش فكيف وقد شاهدها تهاب للسفر
 اما هي فتجلدت ورحبت به قائلة « لقد شرفني اخي بزيارته »

فلم يجيبها بل ظل ماشياً الى مقصورة لها في بعض جوانب القصر تعود ان يجالسها
 فيها اذا زارها فتبعته وركبناها تصطكان وهي لتالك وقد ذهب خوفها من الموت لان توقع
 المصيبة شر من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكت عليه الخاوف وتحقق وقوع الخطر تجلد له
 ورجع اليه رشده . فالعباسة تشددت وقام في نفسها ان تناقش اخاها الحساب فاذا قتلت

بعد ذلك فلا نأسف على الحياة

وكانت عتبة تمشي في اثرها وهي تبكي وتتمتم فاشارت اليها ان تنصرف في المهمة التي كلفتها بها . ورأت العباسة في دهليز الدار مسروراً الخادم واقفاً فلما وقع نظره عليها حياً ها باحترام فلم تجبه لعلمها بفظاظة قلبه — والنساء يكرهن اهل الغلظة والخشونة بلا سبب يدعوا الى الكره . وما زالت تمشي وراء الرشيد حتى دخل المقصورة وفيها كرسي قعد عليه وهو يلتف بالعباءة وعلى رأسه عمامة صغيرة من الوشي . وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى يكاد الشرر يتطاير من عينيه فتجاهلت ووقفت امامه تنتظر ما يبدو منه

اما هو فامرها باغلاق الباب فاغلقته ووقفت بجسارة لم يعيدها بها من قبل فابتدرها قائلاً « اراك في ثياب السفر يا عباسة فالى اين ؟ »
قالت « الى حيث لا ارى اخاً ولا اخاف ظملاً »

الفصل التاسع والخمسون

الجدال

فاستغرب مفاجأتها اياه بهذه الجسارة على حين انه لم يكن يتوقع منها غير التذلل والتضرع فحفي غضبه ولكنه صبر نفسه ريثما يطرح عليها بعض الاسئلة ويسمع جوابها وقال « اتعلمين لماذا جئتك في هذا الليل والناس نيام . . . الا انا وانت ؟ »
قالت « كلاً »

قال « فلماذا بادرتني بهذه الوقاحة »

قالت « سألني سؤالا فصدقتك في الجواب عليه »

قال « لقد تاخرت في الصدق بعد الخيانة التي ارتكبتها »

قالت « لا اعرف اني ارتكبت خيانه . . . ولو سألني مثل هذا السؤال من قبل ما كذبتك »

قال « الم تكوفي اخت امير المؤمنين ؟ »

قالت « بلى . . . وارجو اني لا ازال اخته »

قال « ومثلك تخون اخاها في رجل من الموالي . . ؟ »

قالت « قلت لك افي لم ارتكب خيانة قط وحاشا لله ان اخون احدًا . . . »
قال « او تجيبيني بهذه القصة وقد أصبح امرك مشهوراً حتى اذلتني بين الملا بأمر
اتينه لم يكن يخطر ببالي »

قالت « وای امر تعني با هرون . . . او لعلك تعدد الصدق خيانة ؟ »
قال « اعني امرك مع جعفر الوزير الذي لم يرع حرمتي ولا خاف سطوتي . . . »
فاجبت عند ذلك ان تجادلته بالبرهان لعله يرق لها ويعذرهما ويستبقها فقالت « ان
الوزير لم يخرق لك حرمة ولا اراد بك سوءاً . . . فارفتي با اخي ولا تعجل في حكمك . . . »
فصاح فيها « لا تدعيني أخاً لك . . . فاني بريء من قرابتك . . . »
قالت « تبرأ مني ما شئت . . . ولكن ذلك الرجل لم يرتكب خيانة . . . »
قال « ويحك ! . . . ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟ فاعلمي افي علمت كل شيء وقد
اطلعتي ارجوان خادمك الخائن على سررك واذ اصرت على الانكار فان ولدكما يشهدان
على ذلك . . . »

فلما سمعت ذكر ولدتها تحرك حنوها وخيل لها انها اذا اصرت على الجفاء دعتة الى
ابقاع الاذى بها فصغرت نفسها وضعف عزمها عن المقاومة وغلب عليها الحنان واستسهلت
في سبيل استبقائهما ان تئذلل وتستعطف — وليس اشد وقعاً على قلب الوالدين من ان
يصابوا باولادهم فاذا خافوا ذلك لا يباليون ما يضحون في انقاذهم ولوارتكبوا اكبر الكبائر في
هذا السبيل والاستعطاف من اسهل الوسائل . نجحت العباسة عند ركبت الرشيد وارادت
التكلم فسبقتها العبرات فظننها نعم بالاعتراف عن جرميتها توطئة للاستغفار . نحوّل وجهه
عنها وقال « قد تحققت افي مطلع على حقيقة فعلك فلم تري بداً من الاعتراف والاستعطاف
ولكن هيهات ان من يأتي ما أتيت به لا علاج له غير القتل الشنيع »

فكففت الدمع وتجلدت وهي لا تزال جاثية وقالت « افي لا استعطفك من اجلي ولا
انا اعترف بجريمة . . . ولكنني اطالبك بحق لا اخالك تنكره . . . واذا شئت ان تنكره
عليّ فلا اظنك تنكره على سواي »

قال « وای حق تعنين ؟ . . . »

قالت « تمهل يا امير المؤمنين — ولا افول با اخي لثلاً اغضبك — تمهل وانا اذكر
لك ذلك الحق . . . »

فتجلد وقال « فولي »

قالت « ألم تعقد عليّ لجعفر الوزير عقداً شرعياً صحيحاً . . ؟ »
قال « بلى . . ولكنني فعلت ذلك ليحلّ لكما ان تنظرا احدكما الى صاحبه . . وليس
لما وراء ذلك »

قالت « وهل يجوز العقد على هذه الصورة . . ؟ واذا جوزته انت فهل يعدّ من يتمّ
شروطه خائناً . . ؟ »

قال « لا تكثري من المواربة فانكما علمتما منذ كتابة ذلك العقد ان المراد به مجرد
النظر لرغبتني في مجالستكما لاني كنت احبكما واحب حديثكما . . . (وهرّ رأسه وحرق
ارتيانه) هذا جزاء المحبة ؟ »

قالت وفي صوتها لحن الملاينة « ولكن ألا يظن أمير المؤمنين اننا كنا بدون هذا العقد
خيراً منا معه . . ؟ »

فقطع كلامها وقال « لا ريب في ذلك لانكما بعد ان كنتما من احب الناس اليّ صرتما
ابغض الابالة عندي . . »

قالت « ولماذا ؟ الاننا اتينا امرأ حلاله الله وحرمة انت . . البست طاعة الله اولى
من طاعة امير المؤمنين ؟ . . »

الفصل الستون

عذر الرشيد

فلما رآها كادت تفحمة زاد غضبه ليس لانه لم يدرك وجه الحق عندها . ولا هو يتعمد
اذيتها ظلماً وبهتاناً ولكن العادة غلبت على طباعه — تعود ان لا يسمع غير التأمين علي ما
يقوله والتنفيذ لما يريد حقا كان او باطلا شأن اصحاب السلطة المطلقة ولا سيما في تلك
العصور وقد كثير المتملقون الذين يتزلفون الى ولي الامر بالاطراء والاعتراف لا يباليون بما قد
يكون من عواقب تفريرهم . فيستبد الحاكم المطلق باموره فكراً وقولاً وفعلاً حتى ينسب
ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه كأنه من طينة غير طينة البشر . ويتوهم
انه صاحب الحق دائماً وأن ارادته اذا اضيفت الى حقه وان كان قليلاً تضاعف
ورجحت كفته

فلا يلام الرشيد لاصراره على تخطئة العباسة وتضامه عن سماع حجتها . وعذره في ذلك انه شب على نفوذ الكلمة حتى صار الاستبداد طبيعة له تغلب على عقله وسداد رأيه ولا سيما في حال الغضب . فلما سمع حجة العباسة عمد الى الاستعانة بسلطته الشخصية فقال « ولكنني نهيتكما فعصيتاني ومن عصى امير المؤمنين حلّ قتله . . . »

قالت « اذا لم يكن بدّ من ان تعدّ عملنا عصياناً . . . فانا العاصية . . . وليس هو . . . ولا . . . »

فقطع قولها وانتهرها وقال وهو كأنه يتخنز للوثوب « اراك تحببته وتحمّلين التبعة عنه ؟ . . . »

فتنهدت وقد هاجت اشجانها وقالت « نعم احبه . . . ولولا ذلك ماخالفت امرك فيه . . . نعم اني احبه واره اهلاً لمحبي ومحبة من هو اعظم مني لانه من خاصة الناس وقد اتى اعمالاً ترفع قدره فوق اقرانه وليس ارفع قدراً منه غير امير المؤمنين وحده » قالت ذلك وقد عادت اليها الائمة وابرت عينها واحمرت وجنتها كأن الخجل غلب عليها ومثل هذا التصريح عظيم من نساء ذلك العصر ولا سيما في حضرة الخليفة

اما الرشيد فلما سمع تصريحها ازداد استغراباً ودهشة وقال « ويحك اعترفين بحبه في حضرتي . . . ؟ ثم انت تفضيلينه على سائر الناس حتى بني هاشم جميعاً ؟ وهو عبد . . . واذا رفعت قدره فهو مولى اعجمي . . . لا تجادليني بالمحال فانه مقتول . . . »

فلما سمعت تلفظه بقتله ارتعدت فرانصها وعاد اليها ضعفها وهان عليها التذلل في سبيل انقاذ حبيبها فضلاً عن ولديها . . . فنجذرت وامسكت عواطفها وعمدت الى الملاينة فقالت « هرون . . . اخي هرون ! . . . بل يا امير المؤمنين . . . اذا كنت تنكر العباسة الآن فتذكر انها كانت اختك وكنتم تلعبان معاً في الصغر وتجاوبان . . . فاصغ لقولها على الاقل في ذلك الوزير فانه وزيرك ولم يقصر في خدمتك . . . انقلبه لغير ذنب ارتكبه . . . ؟ . . . انه لم يرتكب ذنباً . . . واذا لم يكن مفرّج من قتل احدنا فافتلني انا . . . لاني انا المخطئة دونه . . . » فقال وهو يضحك غصباً واستخفاً « وانت ايضا مقتولة . . . وساقتل ولدك كما لامحو اثر هذا العار من الوجود . . . »

فلما سمعته يهددها بقتل الولدين اقسعر بدنهما وقف شعرها ونهضت رغم ارادتها وصاحت وصوتها مخنق « لقتلها ؟ . . . ما ذنبها ؟ . . . انها طفلان بريثان . . . انها ملاكان كريمان لا يعرفان حلالاً ولا حراماً . . . بالله الا اشفقت عليها ؟ » ثم ضمت يديها الى

صدرها وقالت ولدي . . آه . . رحمتاه يا امير المؤمنين . . . رفقا بذينك الطفلين «
فالت ذلك وصوتها ينقطع وتكاد تشرق بدموعها

فلما رآها تبكي على هذه الصورة تحركت فيه عاطفة الاخوة وهو والد يسهل عليه تصور
عواطف الوالدين . وربما جال في خاطره وهو يجادلها ويدافعها ان يلتمس لها عذراً ويفضي عن
عملها ولكن ما سبق الى ذهنه من العار الذي لحقه بسببها كان يعترض حنوه . وكان الرشيد
من اكثر الناس غيرة على العرض واشدهم رغبة في صيانته وقد يغتفر كل ذنب غير
التعرض لدولته او عرضه - وهو يعد عمل جعفر تعرضاً للامرین معاً . وقد توهم ان وزيره
انما استولد العباسة ليكون في اولاد دم هاشمي يساعده على طلب السلطة وهي يومئذ
لامطمع فيها لغير القرشيين . فكان الرشيد وهو يسمع استعطاف اخته ويرى عذرها يغالب
عواطفه ولا سيما سمعها تدافع عن الولدين وهو يعلم براءتهما كما تعلم هي ولكنه يزي
بقاها عثرة له او حجة عليه . فلما طلبت استبقاها وهي تبكي لم يلتفت الى بكائها بل اجابها
مختصراً « اقتلها لاختي اثر هذه الخيانة من الوجود . . »

فعدت الى التذلل رفقا بالولدين فقالت وهي تبكي وتشهق « اشفق يا اخي . . نعم
يا اخي . . . فانك اخي . . تذكر الرحم . . واذا كنت لانزال تعدد عملنا خيانة فاقتلنا
كلينا واستبق ذنبك الطفلين فانها بريتان . . »

فقال « انها بقتلان بذنبكما ولا يجوز هذا الذنب غير القتل . . . »

فلما رات الاستعطاف لا يجدي نفعا عادت الى انفتها وعزة نفسها ومسحت دموعها ونظرت
الى الرشيد نظرة حادة كادت تخترق صدره لولا اصراره على الغضب وقالت « الاتزال تعدد
عملنا ذنباً ونحن انما اطعنا به امر الله . . . »

قال « لا تحاولي تحالفاً فقد عصيتا امير المؤمنين فارتكبتا خيانة لا صبر لي على تحملها «
ووقف كأنه بهم بالخروج فاستوقفته وقالت « لقد اخرجتني ياهرون حتى الجأتني الى التصريح
بما لم تعود سماعه مني ولا من امرأة سواي . . . كيف تحرم علينا امرأ احلته لنفسك ؟ «
فانتهرها ويده على قبضة خنجره قائلاً « بمثل هذا الخطاب تخاطبينني يا فحمة . . وتقولين
افي ارتكبت مثل جريمكما ؟ . . »

فالت « نعم اقول ذلك ولا اخاف لانما . . . فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعي انت
عقدته بيدك ولا تحاسب نفسك ولا انا حاسبتك على مثله . ولكنني اذكرك بمن في
قصرك من الجوارى والسراري فانهن كثيرات ولا ترى باساً من التمتع بهن والشرع

لا ينهاك عنهن . . . فكيف تنهاني عن زوج واحد شرعي . . . اليس ذلك من الظلم . . .
 تنهون الجوارى بالعشرات والمئات بلا حرج ولا بأس حتى ان نساءكم يهدونكم منهن
 ما يطيب لكم . . . هذه زوجك ام جعفر قد اهدتك عشر جوار من اجمل النساء . . .^(١)
 — فعلت ذلك وهي لا ترى فيه حطة ولا ذنباً لها ولا لك . ولكنكما تريان ذنباً مثلي ان
 تزوج رجلاً عقدت له عليها واذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل وهددت زوجها به
 ايضاً ولا ترضى مع ذلك الا بقتل طفلين لا ذنب لهما ولا تقبل بهما شفاعاة من والديهما
 الحزينة التي رضيت ان تقلمها وتبقيها . . .

الفصل الحارثي والستون

الفتك

فلما سمع قولها وما فيه من الجسارة لم يعد يصبر على رؤيتها فانتهرها قائلاً « اراك
 تماديت في التهمة وقد اخطأت لاني وسعت لك مجال القول . . . وقد نفذ صبري
 وان لي ان افرغ منك » ثم نادى « مسرور ! »
 فدخل ذلك الفرغاني الغليظ القلب وحامه الى جانبه فلما رآته استعازت بالله من رؤيته
 وتحققت قرب منيتها فالتفت الى الرشيد وقالت « اني مقتولة الآن لا محالة؟ وليس من بدفع
 عني هذا القضاء فاذا كنت لم تصدقني بدفاعي عن نفسي فاني انقدم اليك ان تصدقني في
 جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له في شيء مما نتهمه به وارفق بالطفلين . . . » قالت
 ذلك وخنقتها الدموع

اما الرشيد فخالما دخل مسرور صاح فيه « هل اوصدت ابواب القصر وحبست اهله ؟ »
 قال « نعم يا مولاي ؟ »
 قال « واين الخادمان والفعلاء الذين اتيت بهم معك . . . »
 قال « هم على مقربة منا . . . هل ادعوم ؟ »
 قال « ادع الخادمين فقط . . . »

فخرج ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقاً كبيراً فلما رأت العباسة ذلك تحققت انها ممتولة والتفتت الى اخيها فرأته قد حوّل وجهه عنها و اشار الى مسرور ففجّم عليها بالسيف فقالت ل اخيها « انت مصرّ على قتلي ؟ ... ألا تخشى الله في ... تقتلني لاني اطعت الله وعصيتك ؟ ولكنكم معاشر الرجال تحلون لانفسكم ما تحرمونه على نساءكم ... امن العدل ان يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني من اجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة نبيه ... لا أبالي ان اموت وقد لقيتك وناقشتك الحساب ... » ثم خففت صوتها وقالت « ولكنني أبالي ان لا ترتكب ذلك بزواجي العزيز وولديّ الحبيبين » ثم وات وجهها نحو طريق الحجاز حيث تظن ابنيها بقيان وقد تعودت ان تستشق رباها من تلك الجهة وقالت « استودعك الله يا حسن ويا حسين » ثم حوّل وجهها نحو الشماسية كأنها تهتم ان تناجي حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها والرشيد لا يلتفت اليها وودّ انه لم يشهد قتلها لانه كان يحبها كثيراً وكثرة محبته لها اوجبت شدة نقمته عليها لما اعتقده من خيانتها

فلما سقطت ميتة اوماً مسرور الى الخادمين فوضعاها في الصندوق ونادى الرشيد « اين الفعلة فخرج مسرور وعاد بهم وهم عشرة من الرجال الاشداء يحملون المعاول والزنايل وقد حسروا عن سواعدهم وشتموا عن سوقهم كأنهم من الابالسة فامرهم ان يحفروا وسط تلك المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال « حسبكم هاتوا الصندوق » فانوا به ودلوه في تلك الحفرة ثم قال « ردّوا التراب عليه » ففعلوا وسووا الموضع كما كان ثم اخرجهم واقفل الباب واخذ المفتاح معه وامر مسروراً ان يحتفظ بالقصر ولا يدع احداً يخرج منه او يدخل اليه فاوصى الحرس بذلك وشدد عليهم وقال « اي انسان جاء الى هذا المكان اقبضوا عليه »

ثم قال الرشيد لمسرور « خذ هؤلاء القوم واعتلهم اجرتهم ووافني في القصر » ففهم مسرور انه يامره بقتلهم فاخذهم وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعد ان ثقلهم بالصفخر والحصى ورماهم في وسط دجلة وعاد الى قصر الخلد فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه فلما اقبل سأل الرشيد « هل فعلت ما امرتك به ؟ »

قال « قد وفيت القوم اجورهم »^(١)

قال « خذ هذا المنتاح وابقه معك حتى اسالك عنه » ودفع اليه مفتاح المقصورة

فتناوله وقال « سمعاً وطاعة »
 وكان الصبح قد اقترب فقال « نحن في صباح الخميس وهو موكب جعفر الوزير فلا
 نتباعد عني »
 فأوماً مطيعاً

الفصل الثماني والستون

الوداع

اما جعفر فقد كان في غفلة عن كل ذلك وهو يتهباً للرحيل في الغد وقد صمم على
 السفر عاجلاً بعد ما جرى من الحديث بينه وبين اسماعيل وزادت مخاوفه . ولم يكن له بدء من
 وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان على جاري العادة في خروج العمال الى اعمالهم .
 وكان قد اعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج فلما عزم على وداع الرشيد نادى
 خادمه حمدان بنجاءه فقال « انت عالم اننا مسافرون اليوم »

قال « نعم يا مولاي . . فهل اذهب الى مولاتي العباسة فآتي بها الى هنا او نوافيك
 الى النهروان . ؟ »

فاستحسن جعفر سرعة خاطره وتيقظه في خدمته فابتسم وقال « بل ارى ان توافوني
 الى النهروان ولذلك فلا باعث على العجلة في الذهاب اليها . والاحسن ان نؤجل ذلك الى
 حين رجوعي من وداع الخليفة »

قال « الامر لك يا سيدي . . »

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية حتى اقبل
 على قصر الخلد فوسعوا له فدخل الابواب بالابهة والعظمة على جاري العادة وهو يقول في
 نفسه « هذه آخر مرة ادخل فيها هذه الابواب الملاقاة رجل اداجيه ويداجيني فمتي صرت الى
 عملي في خراسان كنت بين اهلي واعواني ولا نظننا نلتقي بعهد الآب الا اذا جاءني
 لحرب . . » وما عثم ان وصل الى دار اخلاصة فترجل

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على مراتبهم فسلموا وانصرفوا حتى دخل جعفر

وسلم فرد عليه الرشيد احسن ردٍ ورحب به وضحك في وجهه واجلسه في مرتبته وكانت اقرب المراتب اليه . واخذ يتحدث ويلاطفه ساعة وهو يظهر البشاشة والاستئناس . واتوه وهو هناك بكتب وردت من النواحي فقرأها على الرشيد وامضاها . ثم نظر اليه وهو يظهر الامتنان من احضائه به وقال « لقد غمرني امير المؤمنين بنعمه واعلى مقامي حتى ولاني اكبر عمل من اعمال دولته فوجب علي شكره . . »

فضحك الرشيد وتمازح وقال « انك اخي ولو قسمت هذه المملكة بيني وبينك لانصفتك . . »

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الاطراء وتأدب وتلم في مقعده وقال « اني من موالي امير المؤمنين وكل ما ياتيني من قبله انعام وتفضل علي مولاه » ثم قال « وان اقصاني امير المؤمنين عن مجلسه فاني عبده ابذل دمي في طاعته »

قال « بورك فيك . . ولا شك اني ساشعر بافتقاري الى رأيك بعد ان توليت امور الدولة عني وتركتني لا اهتم بشيء من امر نفسي . . »

فلما سمع جعفر قوله تذكرا انها نفس العبارة التي قالها لاسماعيل لما باحثه بالامس فوخزه ضميره وخاف ان يكون كلامه قد بلغ الرشيد ولكنه استبعد ان ينقله اسماعيل ولم يدرك في خلد ان ذلك الغلام كتب به اليه مع علمهم انهم يجسسون كل واحد على صاحبه . على انه لم يعمل فكرته في ذلك لاعتقاده قرب النجاة من هذه المخاوف بالخروج الى خراسان . فاطهر شكره لاطراء الرشيد وقال « معها بذل العبد في خدمة مولاه فلا منة له ولا فضل »

ومكث ينتظر امر الرشيد بصرفه الى خراسان لان التأدب يقضي ان يبدأ الخليفة بذلك . فلما لم يسمع منه شيئاً في هذا الشأن قال « هل يا ذن لي امير المؤمنين بالانصراف » ولم يذكر خراسان فقد تحمل عبارته على انه يطلب الانصراف الى منزله

فقال الرشيد « هل تهيأت للسفر الى عمالك ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « وهل تنوي الذهاب في هذا اليوم »

قال « اذا امر امير المؤمنين »

وكان الرشيد يريد تأخيره بحيلة ريثما يدرك غرضه فمضى اراد الفتك به كان قريباً منه لانه ما زال الى تلك الساعة متردداً في ذلك الامر لما يعلمه من احزاب البرامكة حتى بني هاشم انفسهم كانوا اكثرهم يحبونهم فعلم ان الفتك بجعفر يقتضي الاحتياط واعمال

الفكرة ليس كالفتك بالعباسة . فرأى ان يحتمل في تأخير سفره فقال له « وهل استطعت ارتفاع نجمك في هذا النهار ؟ »

قال « كلاً يا مولاي » وكانوا شديد يدي التمسك بالطوالع ينقدون السعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات وكانت منازل الكبراء لا تخلو من اسطرلاب لاستخراج الطالع عند اللزوم . وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة اتصل اليه من جده ابي جعفر المنصور لانه كان شديد العناية بالتنجيم والتنجمين . وكان الاسطرلاب موضوعاً على رف من الابنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة . وكان له الممام بهذه الصناعة وجعفر اعلم منه بها . فبادر الرشيد حينئذ الى الاسطرلاب وامر الحاجب ان ياتيه ببعض التنجيمين فما عثم ان جاءه باحدهم لانهم من جملة ارباب الفنون المقيمين في قصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر

فلما دخل المنجم قال له الرشيد « كم مضى من النهار ؟ »

قال « ثلاث ساعات ونصف »

قال « خذ الارتفاع »

فاخذه واخبر الرشيد فجعل الرشيد يحسب له ذلك بنفسه ونظر في نجمه ثم التفت الى جعفر وقال « يا اخي هذه ساعة نحس لا أرى الا انه يحدث فيها حدث فالأوفق ان نؤجل سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة فتصلي وترحل في سعودك وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق في النهار فانه اصح من اليوم »

فشق هذا التاجيل على جعفر واخذ الطالع وحسبه لنفسه وربما رأى غير ما قاله الرشيد لكنه ليس من آداب مجالسة الخلفاء ان يراجعهم او يخاطبهم ولعل الرشيد ادرك ذلك فلم يقبل بحساب المنجم فحسب الطالع بنفسه

فقال جعفر « صدقت يا امير المؤمنين ان هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجماً اشد احتراقاً ولا اضيق مجرى من البروج في مثل هذا اليوم ورأى امير المؤمنين اصوب »

ولبت ينتظر اشارة الصرف على عادة الخلفاء فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظهونه وييجلونونه في داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفي كل مكان والكل غافلون عن حقيقة حاله وما يحدق بجيانه من الخطر — واكثر ما يشاهده الناس من مظاهر السعادة في اهل الدولة او ارباب الثروة بقدرونه فوق قدره لانهم غافلون عما يشوبه من المتاعب والاختطار

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يصدق انه سيستقل بعمله في خراسان وبعيش آمنًا بين اهله واعوانه ومعه العباسة وابناها وينجو من دسائس اهل البلاط وما يحدق به من الخطر على الحياة

فلما وصل الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان فلما اتى اخبره بتأجيل السفر الى الغد واوصاه ان يهتم بامر العباسة فيبقى في الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضي الى قصرها ومعه الركائب يحملها ومن شاءت نقله معها الى النهروان او يسير بها الى ماوراء ذلك لتكون في مامن وهو يعلم انها تحب ان تصطحب عتبة وارجوان . ولكن حمدان لا يحتاج في مثل هذا الى توصية لنباهته وصدق خدمته . ثم خلع جعفر ثيابه وقعد للراحة

الفصل الثالث والخمسون

عتبة وحارس القصر

اما عتبة فكانت قد امرتها العباسة ساعة يحيى الرشيد ان تبعث الى جعفر فتخبره بما يهدده من الخطر لعله ينجو بنفسه . فمضت الى غرف الجوارى والخدم لترسل احدهم في هذه المهمة فرأت القصر محاطًا بالحرس ولا سبيل الى الخروج فعظم الامر عليها وذهبت الى غرفتها وهي ترتعد خوفاً على سيدتها بعد ما شاهدته من يحيى الرشيد على تلك الصورة واخذت تفكر في ما دامها من الامر وايقنت ان سيدتها ستصاب بشراً عظيماً ولم تعلم انها مقتولة بعد قليل . فما لبثت ان تحققت قتلها حتى بكى وندبها وعلمت ان الخطر سيتطرق اليها ولكنها احقرت حياتها بعد هذا المصاب واصبح همها ان تنفذ وصية سيدتها الى جعفر لانها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة فلا بد من ان تنبهه الى ذلك لينجو بنفسه . فاعملت فكرتها في وسيلة تنذره بها فرأت السبل مقفلة في وجهها فزادت حيرتها وطلع الفجر وهي تطوف من غرفة الى غرفة وتبكي وتندب

ثم رأت البكاء لا يجديها نفعا واحست ان خير ما تفعله في تلك الساعة ان تسعى في الخروج من القصر فاذا خرجت نجت من القتل وابلغت الخبر الى جعفر وفي نجاته تعزية لها على مصابها بسيدتها . وانقل فكرها فجأة الى ابي العتاهية لاعنقادها انه سبب هذه المصائب كلها فلعلته وتذكرت ما كان من حبه لها وكيف طلبها من الخليفة وابنت الحبيء اليه

تخيل لها انها اذا توفقت الى مقابلته ربما استرضته باظهار حبه له وهو لا يعجز عن اخراجها من ذلك القصر لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم فاذا خرجت لا تعدم وسيلة في الوصول الى جعفر . ونذرت رغبة ابي العتاهية بالمال وهو كثير بين يديها فاذا لم تستعطفه بالحب استخدمته بالمال ولما تصورت ذلك احست بارتياح . ولكنها ما لبثت ان عادت الى الانقباض لانها لا تعلم اين هو ابو العتاهية في تلك الساعة ولا كيف تتوصل اليه .

ثم خطر لها ان المال يذلل الصعاب ويلين اغظ الرقاب فعزمت على بذله في اقرب الاسباب فاستخرجت عقداً من الجوهر كان في جملة ما جمعته من حلي مولاتها للسفر وتنكرت بثوب غريب وثقنت بخمارها ولبست خفها وخرجت تطلب باب القصر وهي تجهل الاوامر بالتضييق عليه . فلما بلغت الباب ووجدته مقفلاً قرعته ونادت البواب الذي كان عليه من عهد مولاتها فلم يجيبها احد فقرعته ثانية ففتحت الخوخة واطل منها رجل عرفت انه حارس من جند الرشيد فقالت له « اين هو البواب ؟ ما بالكم اقلتم علينا الابواب ؟ » فاقفل الخوخة وتحول وهو يقول « ادخلي . . لا سبيل الى الخروج »

قالت « وبلاه ! . . ولماذا ؟ »

فصاح فيها « ادخلي ولا تكثري الكلام فان القصر مقفل بامر امير المؤمنين . . »

فصفت وصاحت « يا تعاسي ما الذي جاء بي اليه ؟ . . »

فادرك الحارس من ذلك انها ليست من اهل القصر ففتح الخوخة ونظر اليها فراها نبالغ بالثقل وهي تقول « بالله عليك الا فتحت لي واطلقت سبيلي فاني لم اجن ذنباً ولا انا من اهل هذا القصر »

فقال « وما شأنك ؟ »

قالت « جئت البارحة بمهمة الى مولاتنا العباسة وخيم الظلام قبل الفراغ منها فبت مع بعض الجوارى وانا مزمنة على الخروج الى سيدي لثلاً يستبطنني ويسبي الظن بي »

قال « من هو سيديك ؟ »

قالت « سيدي . . . ابو العتاهية شاعر امير المؤمنين »

فلما سمع اسمه استأنس به لشهرته والشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء فقال « وما

الذي جئت به من قبله »

فاظهرت لها تخاف التصريح بذلك وظلت ساكنة

فقال الرجل « ما بالك لا تجيبيني ؟ »

قالت « جئت من قبله بمهمة الى مولانا العباسة . . . و . . . فافتح لي ولا تعيقني حرسك الله »

فلم يشك الحارس في انها تقول الصدق فاراد العبث بها فقال « انبت بمهمة مربية . . . ؟ فامكثي في مكانك واحفظي مرك معك » قال ذلك واغلق الخوخة

فصاحت « بالله افتح لي ولا تضايقي فقد كفاني تأخري الليلة الماضية ولا آمن من شره اتوقعه بسببه فكيف اذا تأخرت ايضاً ؟ »

فعاد وفتح الخوخة وقال « لا اطلقك الا اذا اخبرتني عن السر الذي جئت به »

قالت « اراك تعبت بي وقلبك مستريح وانا قلقة فاذا لم تصدق قولي فاني استشهد العباسة عليه . . . الا تصدقها ؟ »

فزاده تظاهرها بالسذاجة اعتقاداً بصدقها ولكنه تذكر تشديد الرشيد بخاف ان يخرجها ويحمل تبعه ذلك فقال « هذا لا يهمني فاني ما مور بمنع اهل هذا القصر من

الخروج والسلام » واراد اقفال الخوخة فامسكتها منه وحاولت فتحها وهي تقول « واذا اخبرتك بسبب نجيتي هل تطلق سراحي ؟ »

قال « وما ذلك ؟ . . . قولي »

قالت وهي تخفض صوتها « اخذك تعلم ان ابا العتاهية . . . ان ابا العتاهية . . . ابطل نظم الشعر . . . »

قال « نعم اعلم ذلك »

قالت « واخذك تعلم انه يحب المال . . . »

قال « انه مشهور بذلك »

قالت « فاذا اراد المال نظم القصائد سرا لبعض الامراء فنظم بالامس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها اليها مساء امس فدفعت اليّ الجائزة واكرمتني بالمبيت

هنا . . . ليتها لم تفعل . . . » وهزت رأسها

فقال « وما هي تلك الجائزة ؟ »

فنظارت باخوف من الاقرار وتوقفت عن الجواب فابتدراها قائلاً « ألا تقولين ؟ » فقالت بلهفة الخائف المستعطف « بلي » ومدت يدها الى جيبها فاخرجت العقد فابرق

بين اناملها كالشمس فمد الحارس يده ليتناوله فامسرت في ارجاءه الى جيبها فقال « ارني اياه »

فدفعته اليه وهي تظهر خوفها عليه . فتناوله واخذ بقلبه ويعجب به وهو يقول « انه
 ثمين ولكن ٠٠٠ هل تظنين اني اخرجك بهذا العقد وانا لا املك جوهرة من جواهره ؟ »
 قالت وهي تتأفف « يهمني الخروج والسلام »
 فلما رآها تتلطف للخروج قال « فاذا شئت الخروج فاخرجي وحدك »
 قالت « وماذا اقول لابني العتاهية ؟ »
 قال « قولي له ان العباسة لم تعطك شيئاً »
 فسرّها قبوله بذلك ولكنها ارادت تمكينه من وعده فقالت « ولكنه لا يصدقني ٠٠
 وارى ان انصف بينكما فاعطيك نصف الجائزة واحمل اليه نصفها »
 فرضي الحارس بذلك وبادر للحال فقطع العقد واخذ معظمه ودفع اليها الباقي وقال
 « يكفيك هذا القدر ٠٠ فاذا اعجبك ذلك اخرجي والا فادخلي »
 فاطرقت لحظة ثم قالت « بل اخرج واحسب انها لم تعطني شيئاً »
 فسرّ الحارس لفوزه بتلك الجواهر وفتح الباب وقال لها « اخرجي ولكن احذري ان
 تخبري احداً بخروجك فانك تقتلين لا بحالة ٠ »
 فخرجت وهي لا تصدق انها نجت وقلبها يكاد يطير فرحاً بالانطلاق من ذلك الامر
 واملاً بنجاة جعفر وكان الحارس اكثر فرحاً منها . وكانت الشمس قد اشرقت فاسرعت لانلوي
 على شيء واكثرت حمراً وركبت تطلب فصر جعفر بباب الشمسية

الفصل الرابع والخمسون

الدعوة العاجلة

اما جعفر فتركناه في قصره وقد خلع ثيابه للراحة فخطر له ان يجلس للصباح وهو
 مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحاً . فاراد ان يودع بغداد به فأمر فاعدت المائدة
 وجاؤوه بالشراب وسأل عمن في داره من المغنين . فقالوا « ان ابازكار الاعمي هنا » فقال
 « اليّ به » . فدخل ونصبت الستارة واستدعى جواريه ليغنينه فيتودع من مجالستين في
 في دار السلام لاعتقاده انه مسافر في صباح الغد . فاخذ ابوزكار يغني والجواري يضربن على
 العيدين وجعفر يشرب ويطرب ويظن الناس غافلين عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من

ذلك أكثر مما يعلمه هو ولا سيما المغنين فقد كانوا يطلعون على اسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الانس التي يدور بها الشراب فاذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم والمغنون يتجاهلون ذلك ويكتمونه خوفاً على حياتهم . فالرشيد مع نكتمه في امر جعفر لم يكن يخفي سره على مغنبيه الموصلية حتى قيل انه سأله مرة وهو في بعض مجالسه « بماذا يتحدث الناس » فاجابه « يتحدثون انك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة »^(١) فانتهره الرشيد وصاح فيه « ما انت وذاك وبلك »

وكذلك ابو زكار الاعمي فان عماء كان يجريه جلوسه على التصريح باكثر مما يصرحون به امام سواه فكان على بينة مما يمدق بجعفر من الخطر وربما المع الى ذلك في بعض غنائه فلا يلحظه غير العارفين — فلما دعاه الى الغناء في ذلك اليوم غناه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق او يغادي

وكل ذخيرة لا بد يوماً وان بقيت تصير الى نفاذ

ولو فوديت من حدث الليالي فديتك بالطريف وبالتلاد^(٢)

فلما سمع الحضور قوله ادركوا مراده الا جعفر . وما اتم ابو زكار غنائه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر « ما بالك ؟ »

قال « ان مسروراً خادم امير المؤمنين بالباب . . »

فلما سمع اسمه اجفل لانه كان يستغلظه ويستثقل روحه لكنه لم يسهه الا الاذن بادخاله فدخل فصاح فيه جعفر « ما وراءك ؟ »

قال « يا سيدي اجب امير المؤمنين »

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال « وبلك يا مسرور انا في هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ »

قال « وردت كتب من خراسان يحتاج ان تقرأها له »

فاطمان خاطر جعفر قليلاً فنهض وهو يقول في نفسه « كنت احسب مقابلتنا في هذا الصباح آخر مرة الاقي فيها هذا الرجل في بغداد فاذا انا مضطر لملاقاته مرة أخرى لاحول ولا قوة الا بالله »

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها ونقل سيفه وامران تعبد له الركائب وخرج وانفض المجلس . وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءت الحاجب ووقف

بحيث يراه ويفهم انه يريد مخاطبته فتحول جعفر اليه وسأله عن غرضه فقال « ان عتبة جارية مولاتنا العباسية في دار النساء تطلب ان تراك .. »
فخطر له انها جاءته من عند العباسية للمخاطبة بشأن السفر فقال « قل لها اني راجع الساعة فاخطبها بما تريد »

قال « انها تطلب مقابلتك حالاً »

فخطر له ان يلقاها ويسألها عن شأنها ولكنه خشي ان يلحظ مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف هنيهة يتردد في الامر ثم تذكر ربحان وانه عالم بكل ما يتعلق بالسفر فقال للمحاجب « دعها تقابل غلامنا ربحان وتطلب ما تريده فهو مفوض من قبلنا »
فاشار مطيعاً وخرج جعفر حتى اتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والعلمان وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقتلسوته وحوله الفرسان من نخبة رجاله واكثرهم من الفرس وكلهم يقدونه بارواحهم وكان اذا ركب اعتر بهم . فقطعوا الشمس حتى اتوا الجسر فخطوه واقبلوا على الميدان بين يدي قصر الخلد . فلما وصلوا باب القصر ترحل مسرور و اشار الى فرسان الموكب ان يقفوا هناك فوقفوا وهم في غفلة عن مراده فدخل مسرور وجعفر والعلمان في ركابه ولم يفتنوا لاشتغال خاطره بامر تلك الدعوة . ولما دخلوا اوماً مسرور سرّاً الى البوابين فاقفلوا الباب وكانوا على موعد من ذلك قبل ذهابه . ثم دخلوا الباب الثاني فاستبقي العلمان خارجه ودخل جعفر فاقفل الباب وراه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده ولم يبق معه احد من رجاله فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع . ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بامر الرشيد وحولها اربعون غلاماً من السودان فظن الرشيد ينتظره فيها فدخلها فلم يجد احداً وانما شاهد في ارضها سيفاً ونطعاً فايقن بالهلاك ووقف وركبناه ترتعدان وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه لعلمه بشدة مسرور وانه لو اراد مقاومته لا بقوى عليه . وهب انه غلبه فلا فائدة من فوزه وهو محصور في تلك الدار فعمد الى الملاينة فقال لمسرور « يا اخي ما الخبر ؟ »

فضحك مسرور ضحك الاستخفاف وقال « انا الساعة اخوك وفي منزلك نقول لي وبلك؟ انت تدري ما القضية . . . وما كان الله ليملك ولا يغفلك . . . فقد أمرني امير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة »

فلما سمع قوله بهذه الصراحة اشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقه وغلب عليه صغر النفس

ولعل ذلك الضعف طرأ عليه من الشرب - ويتوقع القارى ان يرى من جعفر الوزير ثباتاً ورباطة جأش في مثل هذا الموقف شأن الرجل الكبير. ولكن الانغماس بالترف والمسكر يضعف القلب ويحل العزيمة فلا صبر لصاحبهما على التجلد اذا تحقق وقوع المخذور ولا سيما ساعة خروجه من مجلس الشراب كما كان حال جعفر في ذلك الصباح - فلما سمع مسروراً يخاطبه بهذه الלהجة الشديدة لم يتالك عن الترامي عند قدميه واخذ يقبلها ويقول يا اخي يا مسرور انت تعلم كرامتي لك دون جميع الغلمان والحاشية وان حوائجك عندي مقضية في سائر الاوقات وانت تعرف موضعي من امير المؤمنين وما يوحيه الي من الاسرار ولعل ان يكونوا بلغوه عني باطلاً . وهذه مائة الف دينار هنالك احضرها لك الساعة قبل ان اقوم من موضعي هذا وخلي ايم علي وجهي «

فقال مسرور « لا سبيل الى ذلك ابداً »

قال « فاحملني الى امير المؤمنين واوقني بين يديه فلعله اذا وقع نظره علي تداركه

الرحمة فيصفح عني »

فهز مسرور رأسه هزاً الالباء وقال « ما من سبيل الى ذلك ابداً ولا يمكنني مراجعته

وقد علمت انه لا وسيلة الى الحياة ابداً »

قال « فتوقف عني ساعة وارجع اليه وقل له انك فرغت مما امرك به واسمع ما يقول

وتد فافعل ما تريد . فان فعلت ذلك وحصلت لي السلامة فاني اشهد الله وملائكته اني

اشاطرك نعمتي مما ملكته يدي واجعلك امير الجيش واملكك امر الدنيا . . . »

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطر بباله ان الرشيد ربما امر

بالقتل في حال غضبه فاذا سكن غضبه يغير فكره ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الاموال

ويشتمع بهذا المنصب فاطرق . فلما رآه جعفر مطرقاً طمع في الحياة ولبث ينتظر ما يبدو منه

فاذا هو يقول « ربما يكون ذلك » ومد يده اليه فخل سيفه ومنطقته واخذها ووكل به

السودان الوقوف هناك واوصاهم بحراسته وخرج

فلما خلا جعفر بنفسه تلفت فلم ير غير النطع والسيف فاسترجع رشده . ومع ما يغلب

على المرء من الامل في الحياة مهما بلغ من تعرضه للخطر فجعفر لم يكن يرجو نجاة لما يعلمه من

الاسباب التي بعثت الرشيد على قتله . بعد ما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة واهتن

في تلك الساعة ان الرشيد عالم بحاله مع العباسة ثم تذكر مجيء عتبة بتلك العجالة فندم على

استهاها ربما يعود وخطره ان تكون قد جاءت بتحذير او تنبيه كان ينفعه لو اطلع

عليه قبل خروجه فزادت مصيبتُه عنده خطارة واصبح كأنه يرى الموت رأْي العين وهاجت اشجانُه فتمثلت له العباسة كما فارقتها للمرة الاخيرة وقد تواعدا على الفرار الى خراسان وتذكر ما كان يرجوه من النجاة بها وبولديه لو سافر بالامس بلا وداع او لو قابل عتبة قبل خروجه . فضاقت صدره وتجمست مصيبتُه فدعمه البكاء وودَّ لو انه يرى العباسة قبل موته ويقبل طفليه قبل هذا الفراق الابدي . فأخذ في البكاء وجعل يخاطب نفسه قائلاً « واحسرتاه عليك ايُّتها الحبيبة بل والهفي على قبلة من ولدي قضيتُ العمر اتحرق على ساعة الاعمى بها كما يلاعب الاب اولاده فلما ظننت ذلك قريباً فاذا هو بعيد عني بعد الابدية — وانت يا قرينتي بشرع الله — وان ادعى اخوك خيانتنا — لقد تحملت خطر الموت من اجلي وعرضت نفسك لغضب هذا الرجل المستبد حياً بي . نعم لم يملك على ذلك غير الحب الصادق ولولاه لكنت في نعمة وسعادة لان بني هاشم جميعاً يمتنون رضاك . . ماذا عسى ان يكون حالك اذا عرف اخوك بامرنا فانه فانك لا محالة — اذا لم يكن قد قتلك الآن . . هل اجاءت عتبة لتخبرني عن قتلك وتخبرني من مثله رفقا منك بحبيبتك ان يصيبه ما اصابك ؟ ربما كان ذلك — وانت جديرة بهذه المنقبة قد عرفتُ استهلاكك في سبيل حبي غير مرة — فاذا كنت قد قضيتُ نحبك قبلي فانا نادم على طلب البقاء بل انا راضٍ في المحاق بك واذا كنت لا تزالين في قيد الحياة فانت لاحقة بي لا محالة لان اخاك لم يسرع الى الزنتك بي على عجل الا وقد اطلع على ما يظنه خيانة . . والله يعلم اننا انما اطعنا به الشرع وشروط الحب » . وسكت لحظة ريثما يلع ربقه ويمسح دموعه ثم قال « وولدانا ؟ يا حسن ويا حسين . . اين انما الآن . . هل تعلمان بما حلَّ بوالديكما من بد ذلك الخال الظالم آه من استبداده وفساوة قلبه قال ذلك وغص بربقه واحس باختناق صوته واذا بالفتاح يعالج بالباب . فاجفل وانتبه لنفسه فسكت وبصره شاخص نحو الباب حتى اذا فتح دخل مسرور ووجهه مقطب فعلم انه لم ينجح بمهمته وهم ان يخاطبه فسمعه يقول « ذهبت الى امير المؤمنين فلما رأيتُ سألني عنك فقلت قد انقضت امرك فيه فقال انني برأسه حالاً »

فلا سمع جعفر قوله تجلد وقال « افعل ما بدالك ولكنني اسالك سوِّ الا واحداً اصدقني به وانا في آخر لحظة من لحظات الحياة »

قال « وما ذلك . . . »

قال « ما ذا جرى بالعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف وشاية فان سامعك مقتول »

قال « قد قُتلت »

فصاح « قُتلت ! . . . اقتلني . . . اقتلني . عجل بقتلي . لا ارب لي بالحياة »
ولم يتم كلامه حتى ضربه مسرور بالسيف على عنقه فاطار رأسه فحمل الرأس وهو
يشخب دماً وذهب به الى الرشيد

الفصل الخامس والستون

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت مما تقدم ان الرشيد هو الذي امر مسروراً ان يفعل ما فعله ودير هذه الحيلة
في ادخال جعفر فصر الخلد منفرداً على تلك الصورة الى القبة التركية وكان قد امره ببنائها
في صباح ذلك اليوم على اثر خروج جعفر من دار الخاصة وذلك ان الرشيد ظل بعد خروجه
ساعة يحظر في تلك الدار ذهاباً واياباً ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الامر العظيم
ويتردد بين التعجيل والتأني لعله بما للبرامكة من المرادين الذين يبذلون اموالهم في سبيل
نصرتهم . ولكنه اصبح بعد توالي فلقه وطول سهره وهو لم يذق طعاماً ولا شرباً لا يزداد
الا تقمة وغضباً — والأرق وحده بورث ضيق الخلق وحده الطبع مع ضعف القلب
فكيف اذا رافقه القلق والاضطراب — يخاف الرشيد اذا اجل الفتك ان يعلم جعفر بمقتل
العباسة فيذهب للدفاع وربما انقلب الامر الى عكس المراد . وكان من الجهة الاخرى يحب
جعفر حباً شديداً وقد ربياً معاً وتعاشراً على غير كلفة وكان يعدّه اخاله فيثق عليه
قله . ولكنه كما خطر الحب بذهنه اعترضه ما حفظه عليه من خيائته ومس عرضه فيقف
شعره ويقشعر بدنه فلا يرى راحة الا بالاصرار على قتله

قضى في ذلك حيناً وهو يتشكى في الدار منفرداً واستغرق في تلك الافكار حتى نسي
نفسه ولو دخل عليه احد في تلك الساعة لراه يسرع في مشيته تارة ويعطي اخرى بين
اطراق وتصويب يحك ذقنه أو يشير بانامله تهديداً ووعيداً أو استمهالاً وتردداً لا ينزبه
لشيء مما يكسو جدران تلك القاعة من الستائر المطرزة او الطنائس الموشاة كأنه لا يرى من
الالوان غير السواد . وربما وقف لحظة امام ستارة ليقرأ ما عليها من الاشعار او ينظر في
ما يكسوها من الاشكال وقد يقرأ البيت او الفقرة فلا يفقه لها معنى لاستغراقه في الهواجس

فاتفق انه وقف امام اسطوانة بجانب مريره فقرأ عليها يتبين استفزاز عزمته وقضيا باهضاه
امره وهما :

ليت هنداً انجزتنا ما تعدد وشفقت انفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وكان متردداً وقد تضاربت في ذهنه عوامل الاقدام والاحجام وتساوتنا كأنها في كفتي
ميزان وقد توازنتا فاي شيء اضيف الى احدهما رجحها . فما فرغ من تلاوة هذين البيتين
حتى رجح عنده الاقدام فصمم على الفتك فصاح « مسرور » فدخل باسرع من لمح البصر فاوصاه
بما يعمل على نحو ما تقدم ومكث في القاعة ينتظر رجوعه وهو على احرام من الحجر حتى جاءه
بالحيلة التي اتخاها جعفر لعله يصفح فرداه واستعجله بالقتل فرجع وضرب عنقه وحمل رأسه
وهو قابض عليه من لحينه فتدلى الرأس مقلوباً والدم يشخب من اوداجه ويسيل على
خديه وعينيه وشعره

دخل مسرور بالرأس والرشيد جالس على السرير فطرحه على وسادة بين يديه وتحنى في
بعض جوانب الدار . فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس احس بزوال الخطر ولكنه لم
يتالك عن الاسف فامتنع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب بينهما . فنظر الى
الرأس هنيهة ويده قضيب من الابنوس المطعم بالعاج تعود ان يتلاشى به وهو جالس
فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلاً « يا جعفر؟ الم احلك محل نفسي؟ . . . يا جعفر
ما كافأتني . . . ولا عرفت حتى . . . ولا حفظت عهدي . . . ولا ذكرت نعمتي . . . ولا
نظرت في عواقب الامور . . . ولا تفكرت في صروف الدهر . . . ولا حسبت لتقلبات
الايام واختلاف احوالها حساباً . . . يا جعفر خنتني في ادلي وفضحتني بين العرب والعجم . .
يا جعفر اسأت الي والى نفسك . . . وما تفكرت في عاقبة امرك . . . » وكان يقول ذلك
والقضيب بيده ينكت به البساط او ينقر به اسنان جعفر كأنه يستنطقه ومسرور واقف
يسمع ويرى ولو كان له قلب لا تنظر ولكنه كان نقلاً قاسياً

ويبدأ الرشيد يخاطب جعفرًا بثقل ما تقدم ويعاتبه ومسرور لا يجسر على حركة
ولا قول اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقرب حتى سمعا قرعاً وقائلاً
يقول « السلام على امير المؤمنين ادخل ؟ »

فاجفل الرشيد لانه عرف صوت اسماعيل بن يحيى فاشار الى مسرور ان ياخذ الرأس
ويضي . ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب

الرشيد فدخل

اما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلاً والبغنة باذبة في وجهه وحول فلتسوته عامة لم يحسن هندامها ولا مسح لحيته او اصالح من شأنه كما ينبغي في مقابلة الخليفة

فلما رآه الرشيد داخلاً تجلد ورداً التحية وأشار اليه ان يجلس
فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو بلهث حتى يكاد يختنق من العجلة فنهض
الرشيد ومشى نحوه وحاول الابتسام ترحيباً به ولكن التأثر غلب على تجلده وكظمه
اما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفاً وقف تادباً فامر بالجلوس وجلس الى جانبه وقد
ادرك ان اسماعيل انما جاءه في ذلك الحين لامر بهام فاستعجل في الاستفهام منه عن
غرضه فقال اسماعيل « جئتك شافعاً يا امير المؤمنين . . . وان ايتت فستمهلاً امرك
الى حين »

الفصل السادس والستون

قضي الامر

فلحظ الرشيد انه جاءه بشأن جعفر واستغرب اطلاعه على أمره مع احتياظه في
الكتبان كما علمت - وانما عرف اسماعيل ذلك من ريمان غلام جعفر لما علمته من يحيى عتبة
بالخبر في ذلك الصباح فلما لم يرض جعفر مقابلتها واحالها الى ريمان قصت الخبر عليه وكان
الموكب قد مشى فلم يجسر ان يتبعه لئلا تبدو الشبهة لمسرور فوقع في حيرة وتشاور مع عتبة
ونظراً لما يعلمانه من صداقة اسماعيل وجعفر اجعلا على الذهاب اليه . فامر ريمان الى قصره
فوجده جالساً في الحديقة فاخبره بما جرى واستحثه على التوسط لدى الرشيد فتعجل في لبس
ثيابه وجاء الى قصر الخلد فنعه الحراس من الدخول في بادي الرأي ثم اذنوا له فدخل وهو
لا يعلم بقتل جعفر ولم يخطر له تعجيل الرشيد بقتله الى هذا الحد . وسأل عن الرشيد فقيل
له انه منفرد في دار الخاصة فجاء ودخل كما تقدم

فلما سمع الرشيد قوله وعلم انه بشنع اليه في جعفر تجاهل وقال « ان شفاعتك مقبولة
وامرك نافذ ولو على ولي العهد »

فاستبشر اسماعيل وقال « اطال الله بقاء امير المؤمنين وحفظ انجمله .. وانما انا
اشفع اليك في وزيرك جعفر .. »

فهز الرشيد رأسه وقال « جئت متأخراً يا ابن العم وقد تذا القضاة »

فلما سمع اسماعيل قوله اجفل وتراجع وقال « قتل جعفر ! »

قال « قتله غدرة .. »

قال « قتله يا امير المؤمنين ؟ قتل وزيرك وصاحب خاتمك ومدبر دولتك ؟ »

قال « لا سبيل الى اطالة القول يا اسماعيل .. ان وزيرى هذا قد قتل بخيانتة ولو

علمت ما ارتكبه وانت هاشمي لحكمت عليه بالقتل »

فحسبه يشير الى ما يتهمونه من حب الشيعة العلوية باطلاقه ذلك العلوي وقد تفاوضا
في ذلك من عهد غير بعيد . وكان اسماعيل يعتقد انه لا يستحق القتل لاطلاعه على سعي
اعدائه ووشايتهم به فقال « الم يكن امير المؤمنين قد عزم على ابعاده الى خراسان ثم يفكر
في شأنه ؟ »

قال « كنت عزمته على ذلك ثم رأيت التفكير في امره وهو في قبضتنا اقرب الى صيانة
ملكنا ونيل مرادنا لانه اذا سار الى خراسان كان في اهله واحزابه .. واهل خراسان
لا يزالون ناقلين علينا منذ قتل جدي المنصور اميرهم ابا مسلم .. نعم انهم يعجزون عن
مناواتنا ولكنهم يشغلوننا . فمن سداد الرأي ان نتدارك الخطر قبل وقوعه »

فقال « رأي امير المؤمنين اصوب .. ولكن حساد جعفر كثيرون وقد وشوا به
وكثروا ذنوبه وبالغوا بالظعن فيه وامير المؤمنين من حرصه على الخلافة لبني هاشم عجل
بقتله وربما كان استبقاؤه انفع لمصلحة الدولة ولكن قضي الامر .. »

فلما سمع الرشيد تعريضه بذكر الواشين اراد ان يسترق منه اخبارهم لينتقم منهم او
يجتنب اذيتهم فقال « وهل انت على يقين من ذلك .. ومن هم الواشون ؟ »

فهم اسماعيل ان يطلعه على ما يعلمه من سعي ابن الهادي والفضل بن الربيع وغيرها
ولكنه امسك لسانه واعمل فكرته فرأى التصريح بيزيد الخرق اتساعاً ويزيد الدولة
ضعفة وارتيباً كما وهو حريص على صيانتها كما علمت . فلو كان جعفر حياً لكان الخطر
من التصريح قليلاً اما وقد قتل فاصبح ذكر الواشين والاقرار باقوالهم واعمالهم وشاية اخرى
فندم على ما بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال « اذا كنت قد قتل جعفر فانها احدى
المصيبتين فاذا ذكرت لك غيره حررت الدولة الى مصيبة اخرى فليعني امير المؤمنين من

ذلك وهو يعلم رغبتني في سلامة هذه الدولة . وقد عصيتني في ما اردته من تبرئة جعفر فلا تكلفني الوشاية بأخريين ولو علمت في ذلك خدمة نافعة ما كتمته . فاطمني في هذا واعلم اني انما اكتمته رغبة في خير بني هاشم كما كان تصريحي ببراءة جعفر لنفس هذا السبب
وأقدم الى الرشيد ان لا يعدد ابائي وقاحة واذا عدده كذلك فله ان ينتقم بما شاء
اني لا ابخل بروحي في سبيل هذا الكتمان »

وكان الرشيد يجمل اسماعيل ويعتقد اخلاصه وصدق نيته وضمن بحياته فقال « ان حياتك عزيزة علينا يا عمنا وحاشا لله ان نسي الظن بك وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعا واما جعفر فلو كان ذنبه قاصراً على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة اصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا في ما مضى لان انخياره للشيعة لم يكن جديداً علينا ولكنه ارتكب ما هو افظع من ذلك كثيراً ارتكب ما لو علمته لسبقتني الى قتله به لا تسألني عما ارتكبه فاني حريص على كتمان ما علمت ان يبني علمت به لقطعها »
قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض امرته وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحية ثم هز رأسه وقال « آه . . . آه . . . لو استطيع قتله مرة أخرى انعلت »

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ولم يفته الامر الذي مسمعه يلح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رآه فيه فتجاهل ولو رأى مجالاً للكلام ما تكلم لئلا يجزر الكلام الى الجدال بلا فائدة لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكناً

ثم سمعا الاذان اصلاة الظهر فنهض الرشيد ونهض اسماعيل واستأذن وخرج

الفصل السابع والستون

الحسن والحسين

اما الرشيد فامر صاحب وضوءه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في الجامع فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فانفذ بعض خاصته لاقبض على والد جعفر واخيه وجميع اولاده وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما فيها فاستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم الا ريجان وعتبة فانهما فضلاً للحاق بن قتل فقاوما بعض الذين جاؤا

للنهب فقتلوهما . ووجه الرشيد مسروراً الى معسكر جعفر في النهروان فاخذ جميع ما فيه
من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك

واصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم الف انسان وترك من بقي
منهم لا يرجع الى وطنه وحبس يحيى بن خالد والد جعفر والفضل بن يحيى اخاه في مطهرة
وامر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد

فلما اطمان خاطره من هذا القبيل ذهب الى زبيدة امرأته واخبرها بما كان فاستحسنت
ذلك ولكنها تذكرت الصبيين فقالت « لقد فعلت فعل اهل الحزم ونجيت الخلافة من
الاعداء ولكن ما الذي فعلته بالصبيين ؟ »

فاطرق واعمل فكرته فابتدرته قائلة « اذا اردت محو العار الذي لحقنا فبادر الى ازالة
اثره لان بقاء الصبيين وسممة باقية . »

فقال « وهل تعلمين مقرها ؟ »

قالت « اذا شئت دلت خادمك على مكانهما »

فقال « اخبري مسروراً عن ذلك »

فدانه على مخبأهما ومضى الرشيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئها

وكان الغلامان قد خباها الفضل بن الربيع على يد ابي العتاهية في بيت على شاطيء
دجلة وأوقف عليهما الحراس فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد بعد ان قتل
ر ياشاً و بريرة الخادمين القائمين على تربيتهما

ولما جاء مسرور بالغلامين ادخلهما على الرشيد وكان جالساً على وسادة وحده

فدخل الغلامان وهما يدرجان ويضحكان ووجهها يطفحان سروراً وسذاجة وطهارة
يحسبان الرجل جاء بهما الى فرجة او وليمة . فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه اسفاً على
ما سينالهما من الاذى لعلمه انهما بريئان طاهران . ولكنه كان قد صمم على محو اثر تلك
الجنابة من الوجود فتجلد ودعاها اليه فاسرعا وتراهما عليه وهما يتلفتان لمشاهدة ما في تلك
القاعة من الرباش الفاخر والالوان الزاهية

فسال الرشيد ا كبرها « ما اسمك يا قرّة عيني ؟ »

قال « الحسن »

فقال للصغير « ما اسمك يا حبيبي »

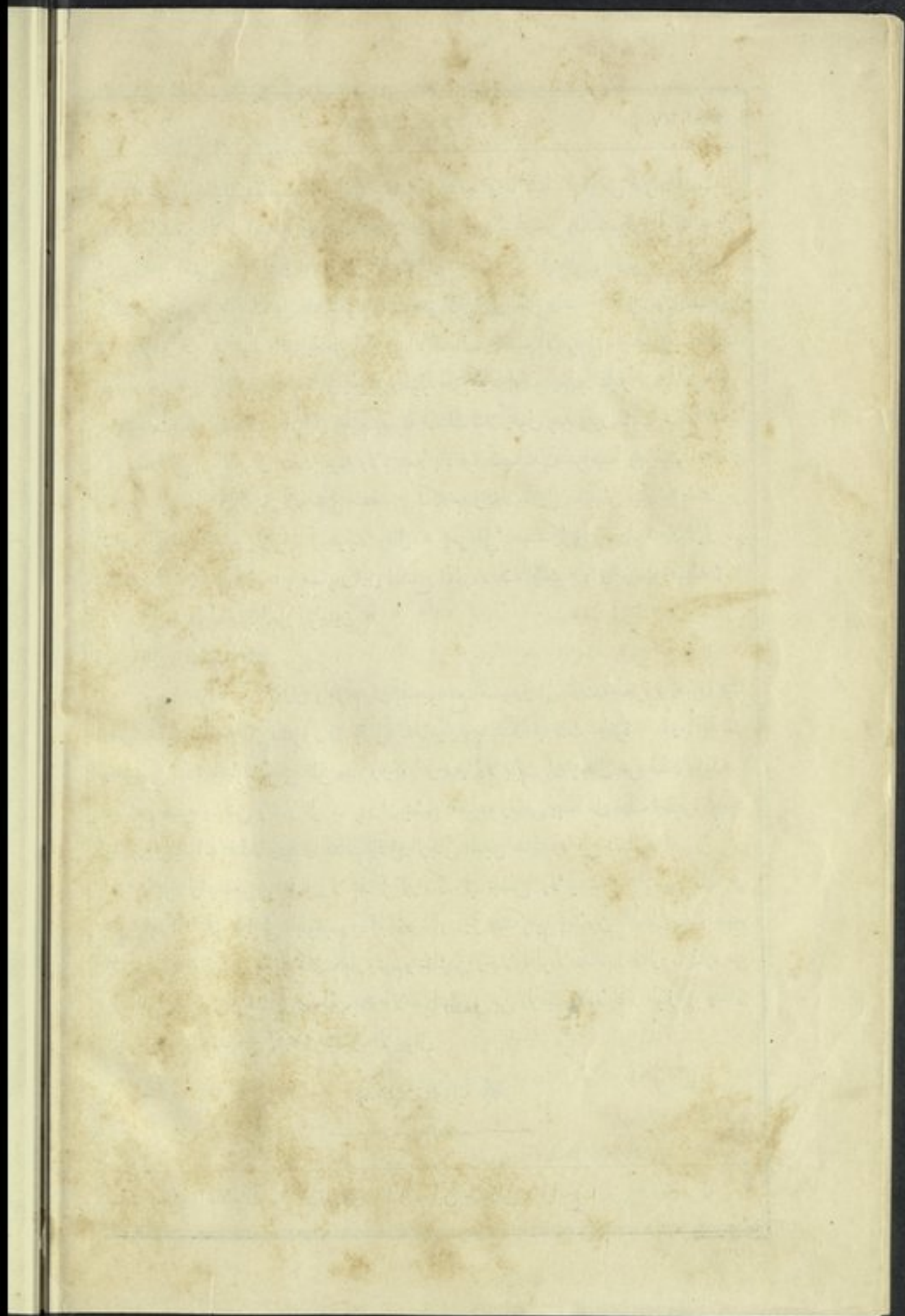
قال « الحسين »

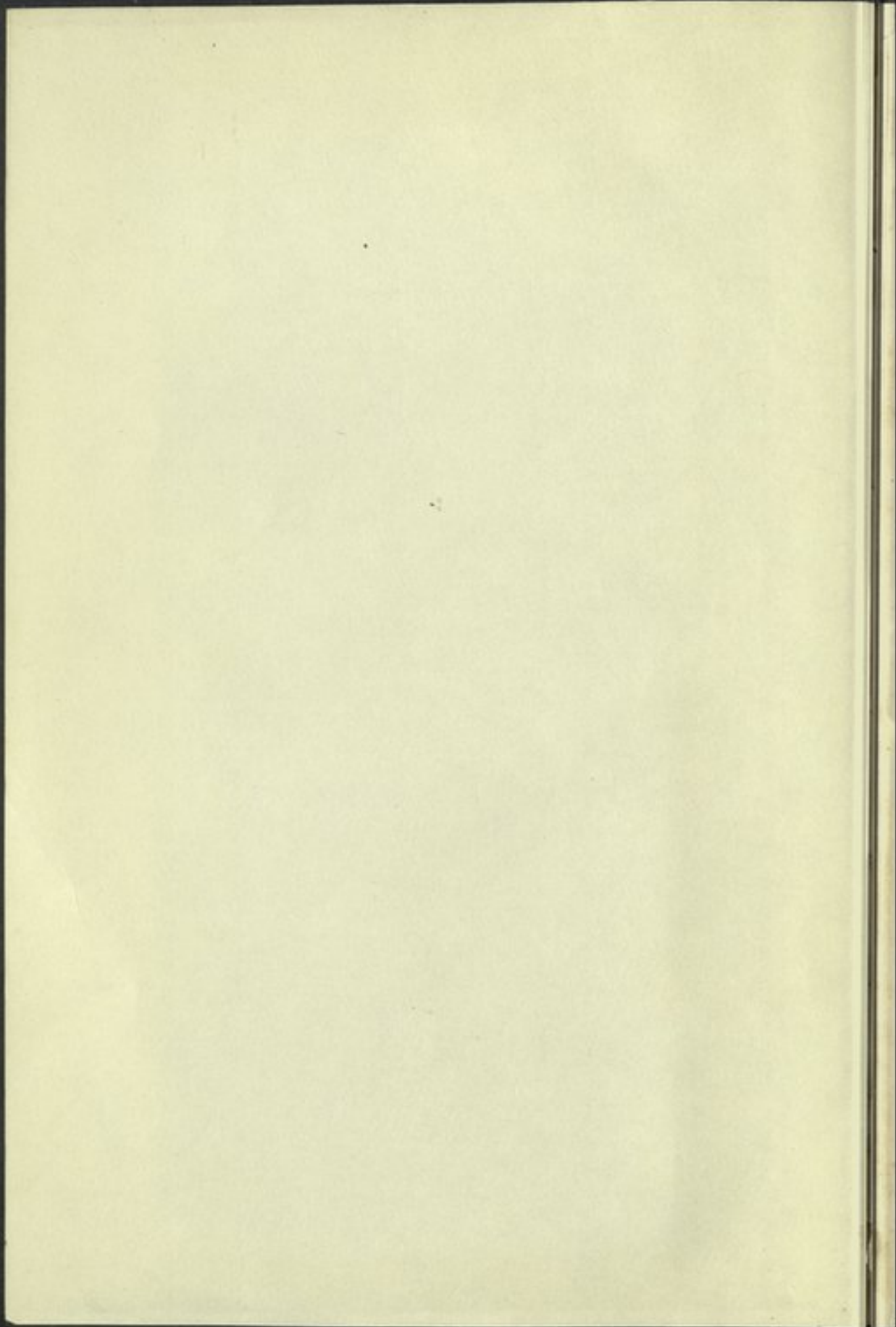
فأعجب الرشيد بنطقهما لان لغتهما مدنية ونصاحتها هاشمية ثم أعمل فكرته في ما هو
مقدم عليه من الامر الخطير وهو والد نجب لا اولاده ولو لم يكن والدًا لكان الاقدام على
ذلك العمل اسهل عليه لان الحنو لا ينضج و يبلغ اشدّه الا في قلوب الوالدين والوالد
لا يقتصر حنوه على اولاده بل هو يتعمّد ذلك حتى يحن الى كل ولد - وزد على ذلك ان
في الغلامين دمًا هاشميًا والقراية من اسباب الانعطاف فعظم الامر على الرشيد ولبث حينًا
يفكر والغلامان بلاعبانه وبعثان بلحيتته وطوقه حتى كاد الحنو يغلب عليه فتذكر ما هو
فيه وخاف غلبة الضعف فعاد الى الحزم وسرعة الفتك لئلا يحول بينه وبين ذلك شافع فعمد
الى قتلها على ان لا يرى ذلك بعينه ولا يسمعه باذنه فنصدمت عواطفه وجاشت اشجانته
فغلب عليه البكاء واغرق فيه حتى منعه من الكلام والغلامان يعجبان لبكائه . اما هو
فنظر اليهما والدمع يترقرق في عينيه وقال « يعز نلي حسنكما وجمالكما . . . لا رحم
الله من ظلمكما » ثم قال « يا مسرور ابن المفتاح الذي دنعته اليك . . . وامرنك بحفظه ؟ »
قال « هو حاضر يا امير المؤمنين »

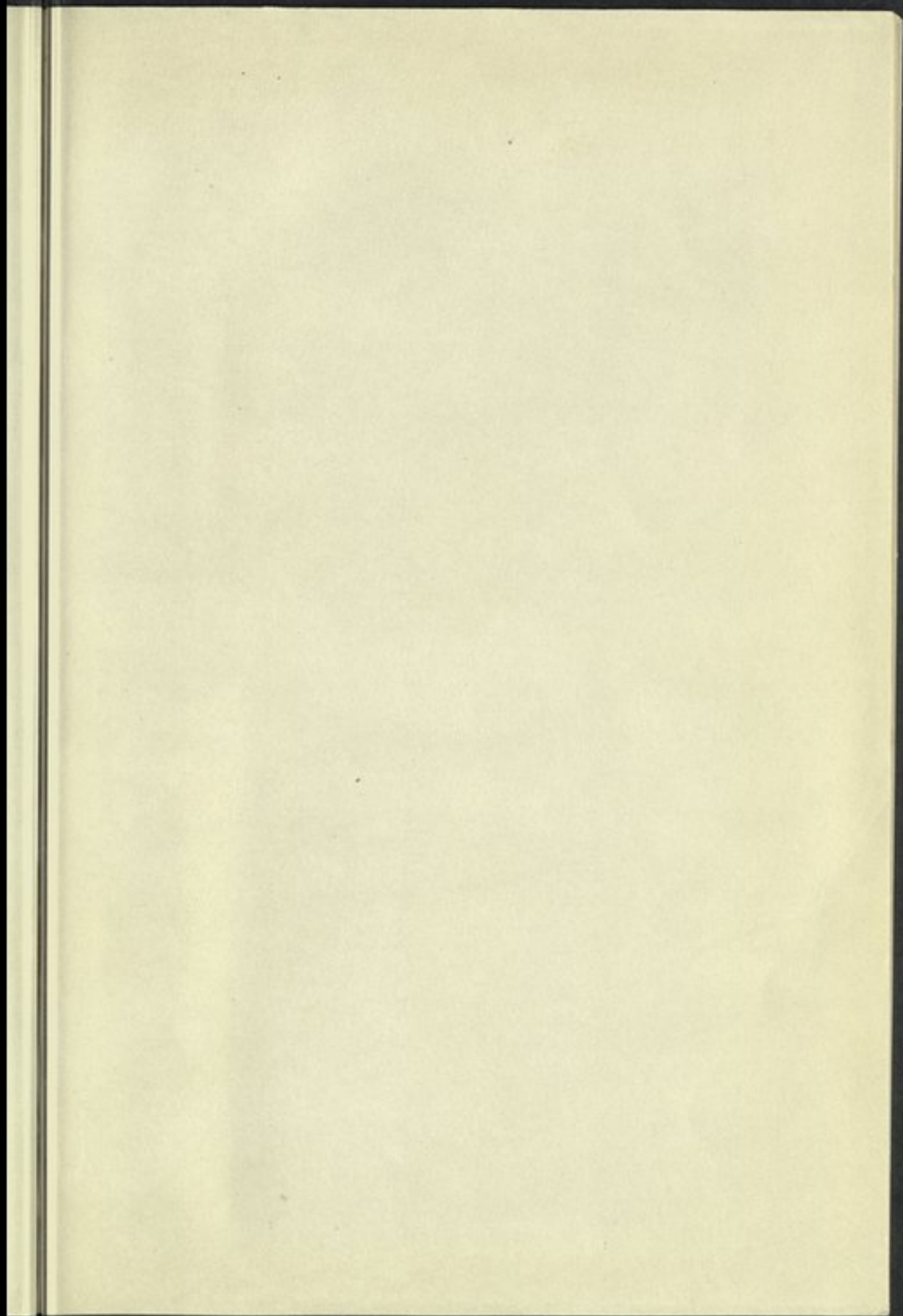
قال « فأتني به »

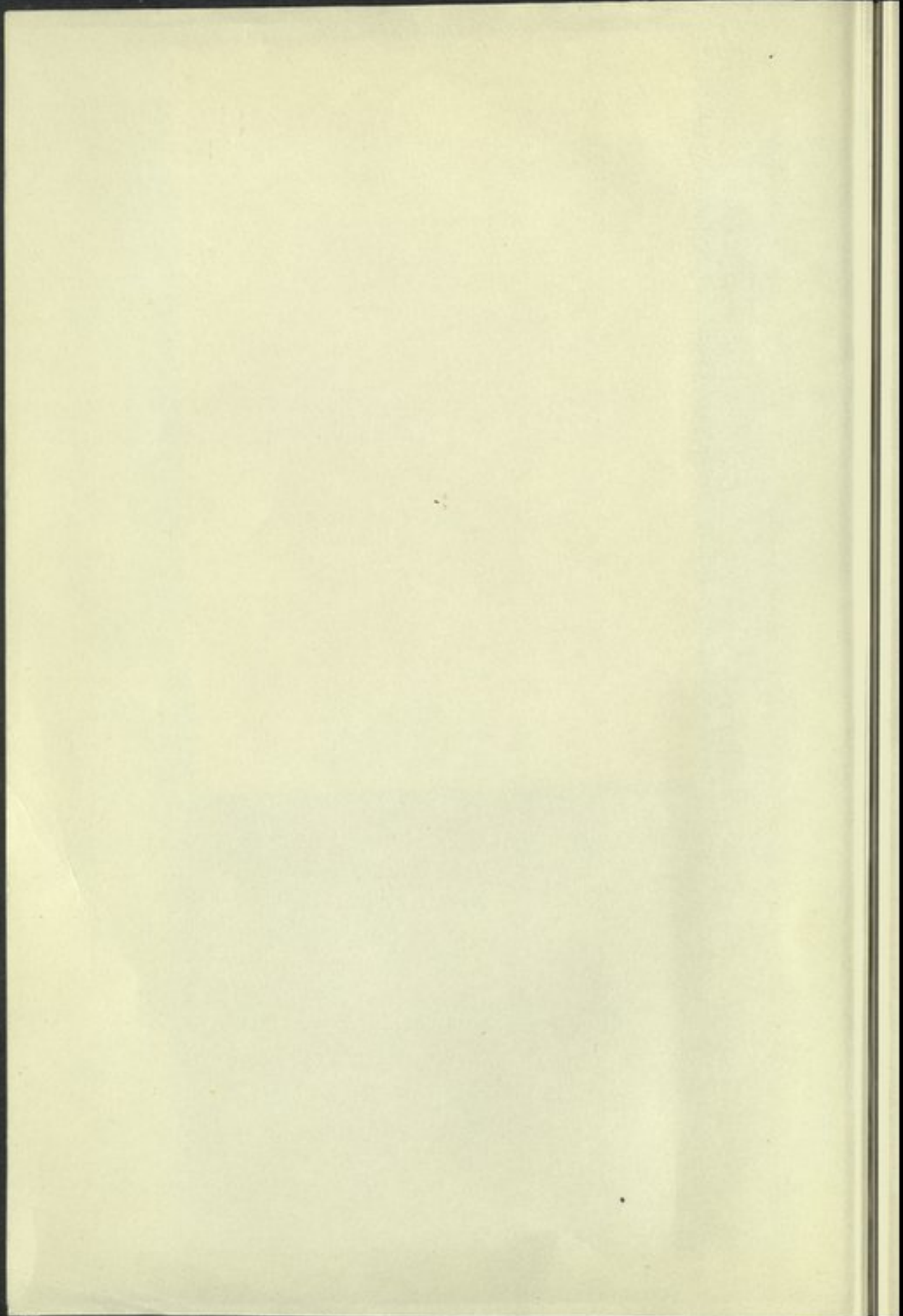
ثم دعا بجماعة من الغلمان وامرهم ان يذهبوا مع مسرور الى تلك الحجرة ويحفرها فيها
حفرة عميقة وأوماً الى مسرور ان يقتل الغلامين ويدفنها في تلك الحفرة - أوماً بذلك
وهو يبكي بكاءً شديداً حتى ظن مسرور انه رحمهما ولا يلبث ان يعدل عن قتلها فاذا هو
قد مسح عينيه ونهض وأشار الى مسرور ان يمشي فاطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ثم عاد
واخبر الرشيد انه قتلها ودفنها هناك وقتل الرجال الذين ساعدوه على ذلك
وامر الرشيد من يومئذ ان لا يذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في
شيء ابدأ . فخرجوا على وجوههم في البلاد شاردين متنكرين جائعين^(١) عارين واصبح
الناس يمتثلون بنكبتهم مثل تمثلهم بثروتهم وسخائهم . وخلا الجولا عدائهم فنالوا ما تمنوه من
التنكيل بهم وتولوا مصالح الدولة بعدهم ولا سيما الفضل بن الربيع فانه تقلد الوزارة وصار
اليه الحل والعقد - فسبحان مبدل الاحوال

* انتهت الرواية *









DATE DUE

~~25 JUN 1976~~

~~J. LIB.
1 JUN 1976~~

~~1 JULY 1976~~

JAFET LIB.

~~8 SEP 1976~~

JAFET LIB.

~~1 FEB 1977~~

JAFET LIB.

~~1 JUN 1977~~



892.78:Z39aba2A:c.1

زيدان، جرجي

العباسة أخت الرشيد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01044332

892.78 :Z39aba2A

زيدان

العباسة أخت الرشيد

892.78
Z39aba2A

Borrower's

DATE

Borrower's
Number

